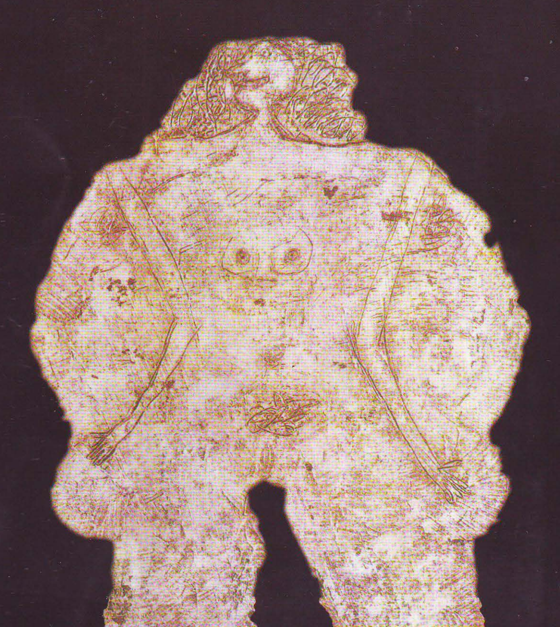
بنسالم حمّيش

مُعَذّبَتي



رواية

دار الشروق

الطبعة الأولى ينـــايــر ٢٠١٠

رقــم الإيداع ٢٤٤٥٨/٢٠٠٩
ISBN 978-977-09-2746-1

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)+
email:dar@shorouk.com
www.shorouk.com

بنسالم حِمِّيش

مُعَذِّبَتِي

رواية

إهـــداء

إلى روحيْ سعيدة لمنبهي

وإدريس بنزكري

متى استعبدتمُ الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا

عمر بن الخطاب

توطئة

«عزيزي حمودة،

إذا شق عليك أن تصير خديمَ أعتاب الطغاة وخططهم الجهنمية، جاسوسا مخترقا، عميلا مزدوجا، قاتلا أجيرا، فعليك بمراودة حلٍّ قد ينجيك لو أتقنته: أن تتحامق وتتمارض... دوّخْ مستنطقيك بأعتى كلام الحمقى والمجانين، هدد معذبيك بسعالك وعدوى مرضك، لعل وعسى أن ييأسوا منك، فيعيدوك إلى موطنك أو قريبا منه مخدرا بأفيون، تصحو منه وأنت مراقب بدمليج إلكتروني ومستهدف برصاصة في الرأس، تصيبك ولا تخطئ، إذا ما رويتَ قصتك من حولك أو رفعت في شأنها شكاية ضد مجهول...».

نعم يا نعيمة، أنعمكِ الله ونعّمك...

بطاقتك التي دسستِها في جيبي خلسة وترجيتني أن أتلفها بعد قراءتها، بطاقتك الثمينة حفظتُها عن ظهر قلب، وأطعمتُ أمعائي بورقها وحبرها، وأشهد أني مدين لها بنجاتي حيّا من

غياهب معتقل رهيب. لولاها كنت سأقضي سنوات أخر تحت تعسفات حراسة نظرية لا محدودة وتوالي حصص التعذيب، التي كانت تباشرها وتسهر عليها الجلادة المتوحشة الخبيرة، السيئة الذكر والصيت، المسماة ماما غولة.

الآن وقد رجعت إلى مكتبتي ـ مسكني، التي عاثت الفئران والحشرات فيها فسادا طوال سنوات سجني، كيف لي أن أخرج إلى شوارع مدينة وجدة وساحاتها وأسواقها وجوامعها من دون أن ألقى الناس وأحادثهم، أن أبلسم جراحي بعونهم، وأتنسم حريتي المستعادة في وصلهم وعشرتهم، وذلك ريثما أستطيع السفر إلى بلدة واد زم لأبحث عن أمي، فأجدها حية ترزق أو في قبرها وقد التحقت بجوار ربّها الأكرم؛ لكن إذا ما فعلت، كيف أبرر لمن سيتذكرني من الناس ـ على قلتهم ـ غيبتي الطويلة ونحولي البليغ واشتعال رأسي ولحيتي شيبا؟ وإذا حدث أن استدرجني أذكاهم إلى الإخبار عن وقائعي، فهل أرويها تحت شعار الصدق والصفاء، أم بشتى أفانين الاختلاق والتمويه، والمخاتلة والتزوير؟ في كلا الوجهين، أراني بين نارين، نارٍ مصوّبة إلى رأسي أو من دمليج إلكتروني إلى قلبي لن تخطئني إذا أُطلقت، ونارِ الافتراء والكذب وما ينجم عنهما من ازدراء ذاتي وتبكيت الضمير.

لعل لزوم الصمت، مع التعويل على كرور الوقت، هو الحل إذا ما اقترن بلزوم البيت؛ لكن اللزومين يستحيلان، لا

ريب، إلى سجنيْن في حالة امتداد أمدهما وانسداد أفقهما. عند جريح سنوات اعتقال همجيٍّ مريرٍ مثلي، كل سجن، ولو خفَّت معاناته، يستثير أعصابه ويدير السكين في جروحه.

قلت الرويةَ الرويةَ، ريثما ينقشع غيم التردد والحيرة، وتخفّ وطأةُ الغمة.

في فترة أولى، ارتأيت أن مخالطة الناس ممكنة في أمكنة معلومة، لكن باتخاذ أسباب الوقاية والحيطة، وجعل عوامل الاحتراز والتستر في خدمتي؛ منها مثلا اجتناب الخروج من مكمني في النهار الجهار، حيث درجات الشفافية والانكشاف تبلغ أوجها ومداها؛ ومنها مع هبوط الليل، حتى لو تلبدت سماؤه ودمس، أن لا يتم ذلك الخروج إلا ورأسي محفوظ تحت خوذة معدنية مقواة، إلا وعليَّ صدرية واقية من الرصاص. صنعتُ هاته بنفسي مسخرا قطع صلب وحديد بطنتُ بها سترتي الجلدية، واشتريتُ تلك من خردة بظاهر المدينة قصدتها متنكرا تحت جنح ظلام صاعد.

في الشوارع والأزقة ذات الحركة المتناقصة ليلا والأضواءِ المعطلة أو الشاحبة، كانت عيونٌ هنا وهناك ترمق زيّي الغريب، لكن من دون أن تجعلني محطّ أنظار، ربما ظنا منها أني سائق دراجة نارية ترجّل ونسي أن يخلع خوذته. أما في المخازن والمطاعم والمقاهي، فقد أخذ هندامي يثير أكثر فأكثر فضول الزبائن ولمزهم وهزءهم، وذهب الصبيان والشباب إلى

مناوشتي وإطلاق اسم كوسمونوط بساط الريح عليّ، مما حدا بي إلى إلغاء تلك الأمكنة من جدول جولاتي.

ما عدا الفضاءات الخالية من الآدميين، لم يبق لي إلا جوامع المدينة التي بتُّ أرتادها تناوبا قبيل صلاة العشاء، لعلي أصرف العيون عني أو أُضعف اهتمامها بي. لكن بعد كرور الليالي بدأ أمري يعصى ويتعصلج مع المصلين، حليقي الرؤوس وسافريها وذوي الطاقيات والعمائم، وكلهم في نازلتي من الوقّافين عند العجب دون السبب والظاهر دون الجوهر، ووقتهم ضيق لا يسعهم لغير ما هم عليه من الجهل بما وقع لي وحصل. ولو قبل بعضهم سماع نتف من ذلك أرويها - وأنى لي أن أفعل! - لانفضوا عني بعد حين، مديرين سباباتهم في صدوغهم، مكذبين.

تجنبا لأي سوء تواصل مع الناس والمصلين لزمت مثواي أياما، أقتات من زادي وأسوّد صفحات تلو أخرى عن سنوات اعتقالي. وذات يوم، بعد أدائي صلاة العشاء أخذني نوم قاهر، فرأيت فيما يرى النائم أني في ليلة صادفت ليلة الاحتفال بعيد المولد النبوي، خرجت من دون أن أغير شيئا في زيي الواقي، فاعترضني على باب المسجد الكبير رجلان مدنيان، اقتاداني إلى درب محاذٍ خالٍ، حيث فتشاني من رأسي إلى أخمص قدميّ بآلة إلكترونية فيدويا، ثم حجزا خوذتي وسترتي وذهبا بي مقيدا إلى مخفر الشرطة أمام باب سيدي عبد الوهاب،

باب الرؤوس المقطوعة قديما. كان عليّ في انتظار الضابط ومقرره أن أمضي الليلة ما بقي منها على مقعد قبالة مكتبه. هنا نمتُ مكوّما غير آبه بما حولي، ولما أفقت مفزوعا أدركت بعد فحص وتدقيق أني ما زلت على فراشي قابعا في بيتي.

طرقٌ خفيف على بابي صبيحة هذا اليوم الجديد، هببت للنظر في وجه الطارق، أنا الذي لا يزورني أحد، فإذا بي أمام شيخ وقور ذكّرني هندامه وملامح محياه بإمام مسجد صغير بظاهر المدينة، عُرف عنه أنه عُزل من المنصب لأسباب لا أعلمها. بعد تحيته ودعوتي له بالدخول ومقاسمة فطوري، أكد لي صحة ما ظننت، وأضاف في التعريف بنفسه معلومات مقتضبة، تفيد أنه يتعيش من حرفة نوح، له معمل نجارة نافقة، وزبناؤه كثر لأنه قنوع بالرزق الحلال، لا يغش ولا يسوّف؛ ثم انطلق بكلام مذهل وبعضه محزن جعلني فاغر الفم، مسترط اللسان، قال:

ـ اسمع منّي، يا ولدي، كلاما ثقيلا ما إن تدركه بعقلك وقلبك حتى تنقاد إلى طريق الوقوف على حالك اليوم وتقيَ مآلك من كل شر... أبدأ بنعيين: أمك يرحمها الله ماتت في فيضانات أحدثتها أمطار طوفانية مفاجئة، وتسببت في انجرافات التربة وانهيار منازل عديدة. مرقدها بواد زم يوجد في قبر جماعي لمن ابتلعتهم الأرض وحالت تلال أوحالها وردومها دون الكشف عنهم... أما النعي الثاني فيخص ابن خالتك الحسين المصمودي الذي جاهد في أفغانستان والعراق، ثم عاد منذ

سنتين إلى جبال الأوراس حيث انخرط في جماعات قتالية حتى اغتيل في منطقة قريبة من بومرداس... اعتقدت والدتك أنك قضيت في البحر مع من يخاطرون بأرواحهم للعبور إلى أوروبا، كما حدث لأبناء بعض جيرانها، إلا المرحوم الحسين الذي كان كلما زارني متنكرا أكد لي أنك اختُطفت إلى مكان يجهله، وأوصاني بك خيرا في حالة إذا ما رجعت، وعاهدته أن أفعل.

كانت عيناي تمور بدمع جاف، فيما لساني يداري خرسا حادا أمام أقوال الشيخ حماد المزاتي وشدة وقعها عليّ. سمعته مردفا:

ـ كيما أمد إليك يد المساعدة، يا ابني، لا بد أن تبرهن لي أن سنوات السجن القاسية التي أساءت إلى جسمك وصحتك لم تنل شيئا من عقلك ولا من ملكاتك. البرهان أريده أولا في نبذك بالمرة للخوذة والسترة المنتفخة التي قد يحسبها البعض مفخّخة. خوفك من عدو يترصدك وهْم من وسوسة الشيطان، وهذا الدمليج في خاصرك حديث خرافة ولعبة صبيان. هذي الخردوات قد تثير فضول البوليس وأنوفهم... هل تعدني بالتخلص منها؟

أتيته فورا بها ومددته بكُلاب ليكسر دمليجي. قلت مروضا انفعالي المتأجج:

ـ بل خذها معك سيدي، وأقبرها حيث تشاء...

علق مبتسما وهو يجمع الخردوات في كيس:

ـ حسنا! الآن وقد أعطيتني البرهان على سلامة عقلك، قل لي ما تريد أقضه لك بعون الله.

ـ أعز ما أطلب، سيدي، أن أدون معاناتي في معتقل همجي رهيب، دامت ست سنوات ويزيد. شهادتي لو رويت بعضها شفاهة لقهقه السامعون في وجهي، وظنوا جازمين أني مصاب بالهذيان والرهاب ويتخبطني المس والجنون. فحوص طبية تستعجلني، لكني أؤجلها كي أعرض عن معرفة ما قد تأتيني به من أخبار مهولة تحبطني وتعيق تحرير فصولي. وبعد أن أنهي عملي، ليكن من أمري ما يبتغيه القدر. شهادتي أريدها مكتوبة، لعلها تبقى بعد موتي وتقع بين يديّ قارئ عارف ومدرك فهيم... هذا طلبي الأغلى الذي لا بلوغ عندي إليه في هذا المحل المغلق حيث أقنط وتكاد روحي تفيض، كما كان حالي أيام حبسي المدمرِ المرير.

أطرق الشيخ مفكرا، ثم خاطبني بما نزل عليّ بِشرا وسلاما:

ـ امض هذا اليوم في جمع حوائجك الضرورية بين صلاة وأخرى. ضمّنها عقد تمليكك هذا المسكن من طرف المرحوم الحسين، وغدا بعيد الفجر تصحبني في شاحنتي إلى ضيعة أملكها جنوب وجدة في سهل أنڭاد. وهناك بمشيئة الله تستقر وتنجز شغلك، تخدمك راعية الضيعة وابنتها... إذن اتفقنا...

استقام الشيخ واقفا، سحب معه كيس الخردوات، فشيعته إلى الباب، أقبل كتفه وأجزل له الشكر الحار وآيات الامتنان.

وكذلك كان. وَفَى المؤمن التقي بموعده بعد أن صرفت الليل كله أصلي وأفكر في كلام الشيخ الذي كان أوله نعيا ووسطه نصحا وخاتمته مسكا وسعدا.

حين أدركنا الضيعة بادر محسني إلى تعريفي براعيتها، وهي أرملة قوية البنية والشكيمة، وأيضا بابنتها العاتق التي لا يُخفي لُبسها البدوي محاسن جسمها ذي الصدر الناهد والوجه الصبوح.

بعد تناول وجبة الفطور الغنية الدسمة، أنبأ الشيخ المرأتين بحاجتي إلى التفرغ والهدوء، وأوصاهما بخدمتي، ثم عانقني داعيا لي بالسداد والتوفيق، وودّعني واعدا إياي أن يزورني متى تمكن ويكونَ قارئي الأول.

لما خلوت بنفسي في بيت وسيع مفتوح على الحقل وأشجاره وزرعه وبهيمته، هيأتُ نفسي لما ندبتها إليه، علما أن ما سأنسخه غيض من فيض، لابد تشوبه نقط السّهو والنّسي واستحالة الإحاطة بكل شيء؛ فطفقت أمضي سحابة يومي في الكتابة وأخصص بعضه للتأمل مشيا ومبادلة الأرملة كلمات وجيزة بريئة، جاعلا بيني وبين كريمتها حدود العفة والتوقير، حتى أكون عند حسن ظنها وظن الشيخ بي...

[١]

في قبو الصدمة والترويع

... وأما كيف غدوت في هذا المركز الاعتقالي، حيث زُج بي في زنزانة فردية لمدة تعدت سنواتٍ ثلاثًا في يومي هذا، فأنا لا أذكر سوى قدوم ثلاثة رجال مقنعين، قالوا إنهم من البوليس السري، فأخرجوني عنوةً من مكتبتي ـ مسكني واقتادوني، بعد أن وضعوا عليها أقفالهم، إلى سيارة متسخة اللون والأرقام، حشروني داخلها، عصبوا عينيّ ووخزوني بمحقنة سرعان ما نومتني. ولما استعدت بعض وعيي أحسست بوجود آدميين من حولي، يتلف أصواتَهم هديرٌ ضاج، قد يكون لطائرة مروحية.

انتبه إلى تيقظي رجل حالت ضبابية نظري دون التعرف عليه، فبادر إلى وخزي بحقنة مخدر أخرى، لم أفق منها إلا وأنا حيث ذكرت، تؤخذ لي عاريا صور شمسية من كل جانب، ثم ببذلة سجين زرقاء، لبستها بأمر من موظف استلم مني مقابلها في

مكتب الاستقبال كسوتي وقميصي وساعتي وبسطامي وبطاقة تعريفي وحذائي الجلدي، ووثّق ذلك في سجل وقعتُ عليه. سألني عن واحد زائد واحد يساوي كم، قلت اثنين، وأضاف: واحد مضروب في واحد، قلت واحد. خيرني بين الجمع والضرب، اخترت الجمع، فأعلن بلهجة من يسمي مولودا: أنت منذ الآن هويتك رقمُ زنزانتك ١١٢ . بعد ذاك سلمني خفين مطاطين انتعلتهما وتبعته، كما أمر، صحبة حارسين إلى مكتب داخلي مجاور، طُبع على بابه «لقاط الأكاذيب». هنا أجلسني الموظف أمام شاشة تمور بالخطوط والذبذبات، واستحلفني، وقد وضع يدي اليمنى على مصحف القرآن، أن أقول الحق ولا شيء سواه.

مضى عليّ وقت مشحون بالتوجسات والقلق، سيما بعد أن أطفأ مرافقي ضوء المكتب وانبعث صوت آلي لا يُرى ناطقه، سألني عن اسمي وتاريخ ولادتي ومكانها وعن اسميْ والديَّ وشغلي. أجبت بما أعلم. وعن سؤاله في انتمائي إلى تنظيم حزبي سري أو إلى خلية جهادية عاملة أو نائمة، سكتُّ معرضا متمنعا. لكني اضطررت إلى تلفيق جواب بعدما شعرت بموسى حادة تلامس قفاي، مفاده أني عاشرت في ما مضى فرقة صوفية لمدة محدودة. سألني الصوت عن اسمها قلت: فرقة اليقظين، وعن شيخها ومقربيه، أجبت بعد تلكؤ: نسيت.

اسودت الشاشة فجأة كأنها أعطبت، وأشعل الموظف

خلفي ضوء المكتب، ثم أمر الحارسين، تعبا متثائبا، باقتيادي إلى القبو رقم ١٣ في انتظار إصلاح العطل.

ذاك القبو ـ كيف لي أن أنساه! ـ عبارة عن مستودع مسطح، مضاءة بعض زواياه بلامبات نيون جد شاحبة، تعمره أقفاص حديدية فردية مصطفة طولا، متقابلة، لا تسمح للسجين بأكثر من الجلوس أو الانطراح. حينما زج بي حارس في قفص بجنب الباب، صافحني جليسي من خلف القضبان بارك لي حلول شهر رمضان في يوم غد، ورحَّب بي في قبو الصدمة والترويع، كما هو اسمه الرسمي، وفعل مثله آخرون بجواره. تكهن بعضهم أني إما أسير قديم ميؤوس من تعاوني، كحال كل من هم في القبو؛ وإما نزيل حديث أوجد هنا على سبيل الخطأ أو لإفهامي بالدليل القاسي والحجة القاهرة أني في هذا المعتقل ما جيء بي للنزهة أو معاشرة حراس ومُدراء يمزحون ويلعبون.

القبو مثله كمثل فرن، ليس للمودعين فيه من حيلة لتمييز الليل من النهار إلا بحَرِّ هذا وبرودة ذاك. هذا ما أنبأني به جاري، مضيفا أن تمضية الوقت بين من لم يمرض بعد تكون تارة برواية أسباب نزولهم في هذا السجن، وطورا بتحاكي قصص وطرائف ما زالت عالقة بذاكراتهم أو بلعب الكارطا والشطرنج، هذا علاوة على الصلاة لمن استطاع إليها سبيلا وتلاوة القرآن والأذكار. أما المرضى والمسنون، ومنهم من

تعدت إقامتهم العقد، فقد أسلموا مقاليد أرواحهم إلى باريها، منهم من طال بهم المكوث حتى تورمت جلودهم وتفسخت، وعجزوا عن الحراك؛ ومنهم من يستعجلون أجلهم بالصوم المتصل أو الإضراب عن الطعام.

مساءَ أول يوم من الشهر الفضيل، أقبل موزعو وجبات الإفطار وكلهم كالحراس بأقنعة طبية، داروا دورة، صبوا في ما مُدَّ إليهم من أوعية بلاستيكية حساء مخلوطا بالعدس وقطع خبز. لمحت في وعائي، بالرغم من شح الإنارة جناحيْ حشرة، أدرت سبابتي داخل السائل فاستللت منه جثة صرصار، سارعت إلى إظهار جاري عليها شاكيا. هنأني على حدة نظري وصحته، وقال في ما يشبه الإخبار أن معظم الأسرى من غير الصائمين لا يبصرون ما يأكلون. علقت صائحا بشجبي شروط هذا الاعتقال غير الإنسانية، المنافية للأديان والأخلاق والشرائع كلها، وجرّمت القيمين عليها، متوعدا إياهم بغضب الله وعقابه... ابتسم صاحبي ونصحني بالسكوت والصمت في انتظار أن ينزل بالظالمين حكم السماء الذي لا مردَّ له، وأضاف من باب الإخبار أيضا أن الصراصير هي أقل الحشرات ضررا، بل هي عند الأسرى نافعة لكونها تأكل البق والقمل والرتيلاء التي تعيث في أجسادهم ليل نهار، ونهاني عن طردها إذا ما شعرت بها ترتاد أطراف جسمي.

ازداد تقززي ونفوري. كدت أقيء في وعائي فنحيته جانبا.

عبرت لجليسي عن رغبتي في قضاء حاجتي. قوّس حاجبيه وتردد في الإجابة. ولما كررت طلبي قال إن كانت الحاجة إفراغ مثانتي فقضاؤها هيّن بترخيص من وكيل المستودع، أما إن كانت للتغوط فالأمر يتطلب إجراءات يطلعني عليها الوكيل وزبانيته. من دون أن أكثر الأسئلة، ناديت على حارس جوال وعبرت له عما بي. أخرجني من قفصي، والليل لم يحلَّ بعد، وصاحبني بعد استئذان الوكيل إلى سطح ذي ألواح صفيحية مائلة، وأراني سجناء يمشون عليها بالتناوب، وكلما انفرجت فرقوا أرجلهم بمقدار وتبرزوا واقفين. شاهدت واحدا فقد توازنه فسقط في هوة الفضلات لا يُرى قرارها.

سألني الحارس بغلظة: عزمت؟ لم يكن لي من خيار سوى أن أغامر وأجرب بهلوانيتي. استفسرني إن كنت أحب تجنيب ذاتي العطب أو الوفاة فوعظني، من دون أن ينتظر جوابي، بغض النظر عما تحتي وعن جنود وجنديات أجانب يلتقطون للمتغوط صورا من شرفات في بناية مجاورة. توفقت في هذا الامتحان الوعر المهين، وعدت إلى مستقري مقطب الوجه مكفهرا. حمد لي جلسائي الأقربون سلامتي، كما لو أني اجتزت صراطا أو حققت إنجازا أولمبيا عظيما. سألت المهنئين المعجبين عن مآل من يفشلون في ذلك التمرين اللعين، فرد واحد بأن المآل في أغلب الحالات هو السقوط في هوة رملية عميقة، وقد يحدث هذا لمن يرغب في وضع حد لحياته؛ وأضاف آخر جوابا كنت على وشك طرح سؤاله،

مفاده أن من لا يقدر على ذلك التمرين من العجزة والمرضى والمعطوبين، يتناوب إخوة متطوعون على تطهيرهم وتنظيفهم، وأجرهم على الله. طلبت من الإخوة أن أعمل ضمن هؤلاء. قالوا على الرحب والسعة، لكن ليس من دون إذن الوكيل. قصدت هذا الأخير رفقة حارس وخاطبته في الأمر، فرد عليّ من خلف قناعه بفم مخمور وصوت فظّ أجش يشي بتوحش صاحبه الطرماح البدين: ومن منعك! خذ السطل والمكنسة وقطع الخيش واقتصد في استعمال الماء... اذهب...

أقبلت على المهمة المحزنة الشاقة في أقفاص حُددت لي. أصحابها تحسبهم أحياء وما هم حقا بأحياء. انطفأت جذوة الحواس لديهم، بعضهم في شبه غيبوبة متصلة، وبعضهم، وأنت تسعفهم وتنظفهم، يبتسمون ويهمهمون بكلمات تعني الشكر والامتنان. حين أتممت عملي كنت على وشك الغثيان والإجهاش بالبكاء لولا صرف كل ذهني وملكاتي إلى قراءة اللطيف وترديد الأدعية في نفسي على الظالمين العتاة القتلة. توجهت إلى الوكيل وخاطبته بلهجة التقرير أن أغلب نزلاء هذا المستودع يلزم نقلهم إلى المشفى، فنهرني متوترا، محتقن الوجه، محمره: تعلمني شغلي يا ابن الكلب! عد إلى قفصك...

رجعت إلى مكمني مهزوما. تمددت مغمض العينين، محاولا هضم ما أرى وأسمع في قبو الصدمة والترويع هذا،

مقيسا هول بعض تخوم الشرور وأقاصي العنف الشرس والتعذيب الممض، التي يبلغها أناس في علاقتهم بأسرى عزّل يشاركونهم الانتماء إلى الآدمية والنوع البشري.

فكرت: لو لم أكن منذ صباي روضت نفسي على تحدي الفراغ ودواره، إذن لكنت الآن بذلك التمرين الشاق المهين من الهالكين. لكن هل التوفيق فيه مرة يضمن حصوله حتما في مرات لا بد قادمة؟ وهل في مستطاعي أن أنجو بصحتي وسلامة عقلي في تمارين أخرى تترصدني، كأكل الطعام الملوث، وخدمة القابعين المتقوقعين، والصبر على المكوث في القفص ساعات وساعات، وغير ذلك؟

يروم مجرمو المجمّع ومديروه تحويل الإنسان الأسير إلى حيوان غير ناطق، مقلّم الأظافر، فاسد الأسنان، مهترئ العضلات، سليب القوة الجسمية والمعنوية، لا استطاعة له إلا في الطاعة والإذعان، يزفر ويزمجر إذا شاء، ويرعد ويزبد، لكن داخل فمه وفضائه الجواني. إنما القوم هنا، وقد بلغوا حدود الصبر الأقصى وما لا يطاق، استرخصوا الموت وآثروه على حياة المذلة والهوان، فكانوا بما تبقى لهم من جهد وأنفاس يتداولون جماعيا في هذا الشهر المبارك على تلاوة آيات قرآنية ومختارات من الأمداح النبوية والأذكار، كنت فيها أدلي بدلوي وأبلي ما قدرت البلاء الحسن. وكان الحرس أحيانا يسكتوننا عما يسمونه الهرج، ملوحين بالعصي وخراطيم المياه.

ظللت زهاء شهر على ذاك الحال والمنوال. تعودت مكرها على أشياء وأخرى، منها قضاء حاجتي كما وصفت؛ والاكتفاء من الإفطار بما يسد الرمق بعد عزل الحشرات المرئية، التي يدعي موزعو الوجبات أنها تسقط في الطناجر سهوا، ومن عافها، يقولون، فعليه بالمرق؛ ومنها أيضا ترك صراصير تسرح وتمرح في أطراف جسمي باحثة فيه عن القمل قوتها المفضل، إلى ما سوى ذلك.

قبيل ليلة القدر بساعات، وافق بدءُ توعكي الصحي قدومَ حارسين إليّ فجذباني من قفصي ونقلاني من دون سابق إشعار إلى زنزانتي السابقة الذكر، ولم أتمكن من توديع الذين تعرفت عليهم في قبو الصدمة والترويع سوى بإشارات سريعة خفيفة، فيما هم يعدونني بالدعاء لي ما إن تحل ليلة هذا اليوم المباركة وتنفتح السماء للأدعية المستجابة.

[٢]

تصريف وقتي في زنزانتي

زنزانتي الفردية ١١٢!

زنزانة ضيقة، من خمسة أقدام مربعة ونيف، ذات لحافين ومرحاض مغطاة حفرتُه بياجورة لمنع خروج الجرذان منها. موقعها، ولا شك، في باطن قبو تغلب عليه النتنات وتضرب عنه الشمس. وجبتان شحيحتان في اليوم لسد الرمق، أتلقاهما عبر كوة في الباب الحديدي من حارس أرى يده دون رأسه.

هأنذا إذن «مزنزن» منذ شهور عدة وأخرى، كما ذكرت، أتكيف ما استطعت، أتبرمج بما عساه يخفف عني، ولو على توهم. يوميا بعيد اليقظة، أمضي وقتا يطول أو يقصُر، مغرغرا النظر في شقوق جدراني، الحلزونية الخطوط، المحاطة بجلطات الرطوبة والغمولة، أتلهى أحيانا بقراءتها كرسوم ذات إيحاءات وأبعاد متناسلة شتى. وحين أعيى منها وأنفر،

أتعاطى ما بات عندي رياضة أفضلها على قبول حصص التنزه ومعاشرة السجناء، إنها رياضة لِحافية: أتكربع، أقبع، أتعرّم، أتقوقع، أتركّن، أتكوّر، أتكوّم، أنكمش، أنطوي، أتقلب، أتجنب؛ وأنحت أفعالا أخرى ليتها تلج معاجم العرب من بابها الواسع: أتسحلف، أتحلزن، أتقنفذ، أترزم، أتقمص جثة الميّت فأهمد وأحبس التنفس ما قدرت، وإذن أتجثمن... وكل تلك الهيئات لا تنفي سواها، كأن أتمطط، أتربع، أتطاول، أتنطع، أتعنتر، ألاكم خصما وهميا أضحك عليه وأتجشأ، أو كأن أحاكي همسا بعض الوحوش الضارية، ثم أهرب منها مستعيذا بالزقزقات والتغريدات، لعلي بها أجلب الطير إليّ ولما أُعِدُّهُ له على الشباك الصغير العلوي من فتات أوعية ماء، وغير ذلك من الحركات والتصويتات التي أنجزها إما منبطحا أو جالسا وإما واقفا أو ماشيا.

وفي برنامجي اليومي أيضا استظهار ما بتّ أخشى نسيانه في هذا الحبس الرهيب من آي الكتاب الحكيم، مفتتحا بسورتي يس ثم الأنبياء حيث ذكر أيوب بطل الصبر والصمود، وكذلك بالأحاديث النبوية الشريفة وآداب السلف والمعاصرين؛ وطبعا في برنامجي ذاك تلك التي صارت لي هنا، شيئا فشيئا، قرة عيني: الصلاة، ولو متوضئا بما قل وشح من الماء أو بالتيمم عند اللزوم. هذا علاوة على أعمال غير منتظمة يفرضها الحرس عليّ بهذا التنبيه: السجن ليس خيرية ولا مأوى للعجزة بل مهام

وخدمات يقوم بها السجين مقابل تمتيعه بالطعام والدوش والنزهة والمبيت، ومنها إفراغ سلل الأزبال في حفر القمامة الرئيسية بظاهر البنايات على بعد نصف ميل، وأيضا تنظيف المطبخ والمطعم والأبهاء والممرات وبعض الزنازن الخاصة، وغير ذلك كثير.

كنت كلما أُمرت بمغادرة مربعي للعمل، أحاول ما استطعت وقف الكلام مع السجناء على التحية والرد بأحسن منها، حتى لقبني جيراني منهم بالدرويش أو الداخل سوق رأسه.

مع هبوط الليل وإنجابه سدول الظلام، يضمر الضوء وتنزل الحركة إلى درجتها الدنيا، تحضر وجبة العشاء مرة وتغيب مرات. لا شيء للقراءة، لا مذياع، لا تلفاز، لا أخبار عن العالم؛ يُحكم على المقيم بمراودة نوم صعب المجيء، وإن جاء فلا شيء يضمن خلوه من الكوابيس أو من مناوشات الحشرات الطائرة أو الرقطاء.

أثناء مغازلاتي لأرفيوس، ربة النعاس، أراني في تقلباتي الأفقية أنصت إلى ابتهالات أمعائي وتضرع أضلعي، أو أمر من غفوة إلى أخرى، أبصر في بعضها عجائب الفردوس، من حور وخمور وولائم على طول أميال لا تنتهي. هذا إذا لم يُفسد عليّ نومي سجين بصرخاته واستغاثاته، فيستيقظ كل نزلاء الدهليز لاغطين بالسباب والتهديد، كما حدث بالمثال لا الحصر أمس الأمس حين تفانى معتقل في الصياح والعويل لكونه معلقا

بشباك سقفه، هروبا من عقارب وثعابين تغزو زنزانته، ثم يدعي أن مربعه بُثت فيه كاميرات لمراقبته والتجسس عليه، وأنه تحديا للعيون وراءها ونكاية يسب ويبصق بل يستمني بين حين وحين... وفي ليلة أخرى يأتي دور معتقل آخر لملء الفضاء هرجا ومرجا حول هلوساته والجن المتربصين به الدوائر. أما الحرس الليلي فلا يحركون ساكنا ولا يتدخلون، كأن آذانهم مختومة بالشمع السميك أو على قلوبهم أقفال من حديد...

بعد انصرام مدة لا آلة عندي لتقديرها، تسنى لي مغادرة زنزانتي لبضع ساعات، ليس لتمكيني من نزهة أو استنشاق هواء آخر، بل قصد الخضوع لفحوص طبية جراء سعال حاد أصابني، مصحوبا بضيق في التنفس لعل سببه إقامتي السابقة في قبو الصدمة والترويع. احتجاجات جيراني ليلا، وربما اعتبارات أخرى، عجلت بنقلي إلى المستوصف حيث ناولني ممرض مهدئات في انتظار قدوم الطبيب بعد مطلع الصباح. قلَّ سعالي وخَفَّ أرقي، حتى أخذتني عيناي في نوم لم أنعم بمثله منذ حللت مكرها معتقلا في هذا المركز المجهول الغايات عندي والاسم والموقع.

في الصباح، مغمضَ العينين، تناهت إلى سمعي نتف كلام بين رجلين:

الأول: ما حققنا بعد مع هذا السجين. حاجة مصالحنا تحتاج إلى معلوماته... عالجه حتى لا يموت قبل أن نستنطقه.

الثاني: سأجري له الفحوص الضرورية، قد يقف على رجليه

اليوم ويزول سعاله إذا لم يكن مرضه السل... السل اكتشفناه بالأمس عند ثلاثة سجناء تم عزلهم...

الفحوص المجراة عليّ أظهرت أني لحد الساعة سليم من ذاك الداء، والحمد لله. إن هي إلا حساسيتي ضد الرطوبة استفاقت في زنزانتي وأثارت ضيق تنفسي وسعالي. زودني الطبيب بأقراص ومرشة، ثم نُقلت بتوصية منه إلى زنزانة في جناح حيّ آخر، أصغر من الأولى، لكنها في طابق أول من بناية معرضة للهواء الجاف وأشعة الشمس.

[٣]

في حضرة القاضي المحقق

في نزلي الجديد، الذي تبعني إليه رقمي، تحسن حالي. صرت كلما احتجت إلى ذخيرة هوائية، اعتليت كرسيا وألصقت أنفي بقضبان نافذة مفتوحة على السماء. حسب حواسي الخمس، رجحت أن تكون المنطقة التي أنا حلٌّ بها صحراوية أو متاخمة لصحراء واطئة، بعيدة في مدى البصر عن المرتفعات والبحر. أما هويتها وعنوانها فعلم ذلك عند رؤوس هذا المركز الحبسي وفطاحله وحدهم.

وأنا أتناول بعض أقراصي مع أول وجبة استلمتها من كوة بابي الجديد، خطر لي أن حيلتي في سلم ترقيتي، وربما إخلاء سبيلي، قد تكون في سعالي إذا أنا أحسنت افتعاله وتدبيره وتوقيته. وفيما ذهبت أقلّب هذه الخاطرة وأخريات أغرب منها، راشا فمي بآلتي، إذا بحارس يقتحم مكاني، يقيد يديّ إلى الخلف ويقودني عبر ساحة معبدة وممرات إلى بناية مميزة، ذات مكاتب وتجهيزات

عصرية. أمام باب في الطابق الأول أستأذن الحارس في الدخول، فتبعته إلى قاعة وسيعة، تجلس خلف منضدتها امرأة وسيمة، بين حاسوب وملفات. هرعتْ نحوي وشرعت تتحسس أطراف جسمي بفاحص إلكتروني بيديها للتأكد والتيقن. وبعد تفتيشها المنهجي ورشي بمرذاذ عطر، رافقتني إلى المكتب الثاني وهي تنحني محيية من أسمته سعادة القاضي، ثم نبهتني إلى عدم التسليم على سعادته باليد وانسحبت.

إني إذن، بعد مضي بضعة شهور على اعتقالي، في حضرة القاضي المحقق الذي، كما أُخبرتُ من قبل، ينظر في ملفات المتهمين، ويقرر في مصائرهم. أمرني، بعد أن رمقني، بانتظار نوبتي في ركن معتم، ريثما ينهي جلسته مع متهم شاب لم أر إلا ظهره. في الركن تكومت على مقعدي ما استطعت، وأخذت أسترق النظر إلى المحقق وأستمع إلى كلامه مع الظنين.

الرجل قدامي، تذكرك أبعاده الثلاثة بأثقل مصارع ياباني، تستلفتك سمنته المتطرفة الفائضة، وصلعته اللامعة المخضب تاجها بالبياض، وأذناه الضخمتان الزائغتان المستنفرتان كقرنيْ تنصتٍ والتقاط؛ يستلفتك ذقنه الغائص في عنقه المكتنز، وشكلُ عينيه الغائرتين خلف نظارة ملونة سميكة، وفمُه (كفرج دجاجة) يعلوه شارب هيتلريّ القص، زعفراني اللون... وسبحان من خلق وكور؟ وحين ينهض للبحث عن شيء، أو للهيمنة الجسدية على مستنطَقه، كما الوحش على فريسته،

يتبدى هذا الكائن المكرش المتعملق كفيل واقف على رجليه، لا ينقصه سوى الخرطوم.

بصوت مخنخن خاطب السجينَ أمامه وهو يحك قفاه:

ـ أنت إذن لم تعد تنفي التهم اللاصقة بك بل تثبتها: إيواء تكفيريين، هم اليوم في حالة فرار؛ مدُّ يد العون لعوائل المتزوجين منهم؛ التستر على هوياتهم وعناوينهم... نقطة الخلاف بيننا أنك تأبى المصادقة على صك اتهامك بأداء القسم الشرعي، وتحل لنفسك عوضه القسم تارة بالفجر وليالٍ عشر، وتارة بالتين والزيتون وطور سينين، وأخرى بالعصر، وتسوّغ بدعتك هاته بوجوب اجتناب ذكر الله وكل أسمائه الحسنى في أمكنة فاسدة نجسة، ظالمة مظلمة، منها في عرفك الجاهل أمكنتنا...صح؟

أجاب الشاب بصوت واثق رزين:

ـ ذاك ما أثمره اجتهادي ووُفقت إليه...

أزبد المحقق وزاط:

ـ ومن أباح لك الاجتهاد وولاك شأنه، يا مفتري يا كافر!

ـ ها أنت إذن تكفرني يا قاضي، ولو أني خريج جامع الزيتونة، ولا أجتهد إلا حيث لا نص...

ـ يا حرس، خذوا هذا اللعين، سلموه إلى التي تعرف كيف تباشر الكفرة وتعالجهم... ستسوي بنانك وتعيد عقلك المهزوز إلى موضعه القويم.

تمكنتُ من رؤية وجه الشاب المنسحب بين حارسين بخطى واثقة وهمة متحدية، قال وهو بسبابته ووُسطاه يرفع شارة النصر:

ـ والشمس والطارق، لا الغولة أخشى ولا زبانيتها، فهي وكلكم إلى أم قشعم، وبئس المصير.

تهالك المحقق على كرسيه، يتصبب عرقا ويزفر زفرات. ضغط على زر فمثلت أمامه فتاة محجبة. حيته وناولته حبة دواء وكأس ماء. استرد أنفاسه بلأي ملحوظ. سألها عن أم قشعم من تكون، قالت متلعثمة لا تعلم. أمرها بالذهاب عاجلا للقبض عليها في القاموس لتأتيه بها. أبدت الفتاة السمع والطاعة، وهرولت إلى الباب هلعة مرتبكة.

خيّم على المكان صمت كالرصاص بل أثقل، تلاه تململ للمحقق ونحنحاته. نادى عليّ بأخذ مقعد من سبقني، لبيت متمتما تحية، فردَّ بأخرى. خلع نظارته وهو يمسح العرق على وجهه، انكب على ملف، ولسانه يلهج بالسب والقدح في الشاب المطرود، ناعتا إياه بالزنديق وابن الكلب. وحين أنهى اطلاعه ركّب نظارته وفاجأني برمقة ملتبسة، أردفها بمساءلتي إن كنت أعرف ابن الكلب الجالس على مقعدي قبلي. أنكرت. كشر عن أنيابه وقال:

ـ هذا السجين المعاند مجاهد يعيش بكيانه كله في عصر قديم ولّى. طاغية من طينة مستعذبي العذاب وطالبي الموت

والاستشهاد. لكن الغولة سترهقه صعودا، وتقطع أصابع نصره الموهوم أصبعا أصبعا...

حدّق المحقق فيّ مبديا ابتسامة مريبة وسألني:

ـ ألست تستحلي معي، حمودة، هذا التعبير الشائقَ الرائق في جِناسه وتضاده: استعذاب العذاب؟

قوّست حاجبيّ إحجاما عن الجواب في أمر بدا لي خارجا عن السياق والمقام. نحنح وأردف:

ـ لا عليك! انسَ السؤال وعدْ بنا إليك... استخلص من ملفك، يا حمودة الوجدي، أنك رجل مسالم، قابل للعشرة. نقيطات سنبدد سوادها، ونستجلي غموضها، بحول الله وفضله، وبتعاونك الذي لاشك سيتم بالعفوية الطليقة والصدقية المبتغاة... الكذب والبهتان حرام، والمخاتلة والتمويه نقمة، وخلط أوراق الواقع والخيال فتنة، وهي لعمري أفعال مشينة يجترحها أرهاط الشعراء الهائمين ومن تبعهم من الفساق والحرافيش والمنحلين، وقانا الله شرورهم، وأبعدنا عن حلقاتهم وغيرانهم، وهدانا بنور من عنده سواءَ السبيل إلى الحق الشعشعانيِّ المبين.

لم يقطع دفقَ كلام الرجل المسجوع وبهتانه إلا نقرٌ خفيف على الباب، تلته إطلالة الفتاة المحجبة، معتذرة خجولة. أمرها بالدخول وسألها متلطفا منحنحا:

ـ ما وراءك، يا بنت؟

ـ سيدي، بحثت عنها، لم أجدها...

ـ من هي، يا بنت؟

ـ أم قشعم، سيدي...

قاطعها من دون أن يغير لهجته:

ـ هذا أمر مزعج. انْظري في معاجم الأعلام وعند ابن منظور، فإن لم تأتيني بها لأخصمن من راتبك ثلثه.

استأذنتُ في الكلام ، قلت:

ـ في لغة العرب، سيدي القاضي، أم قشعم اسم أطلقه أهل الجاهلية مرادفا أو كناية لجهنم، والله أعلم.

ـ يعطيك العافية، حمودة، لا فضَّ فوك! وأنتِ يا بنت ، بوسي رأس هذا العارف الذي أمدكِ بحبل من نور، وعلمك ما لم تعلمي... بوسة واحدة وبس.

من دون أن أحرك ساكنا، تلقيتُ من المسكينة قبلة دافئة على أمِّ رأسي، وبعدها استأذنتْ وقصدت الباب محمرةَ الخدين، متعثرة.

وجّه المحقق إليّ نظرة تعجب واستغراب، قال:

ـ أراك في حضرة السكرتيرة مش على بعضك، تخفض جفنيك ولا تراها رأي العين!

ـ أفعل ذلك (أجبت) عملا بوصية المصطفى الأمين: من نظر إلى محاسن امرأة فغض بصره في أول مرة، أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها في قلبه...

صاح الرجل طربا:

ـ الله الله على ذي الحلاوة! لك، حمودة، في العلم ضلع وفي الحفظ بضاعة!

ـ العفوَ العفو سيدي. ما أوتيت في ما تقول إلا القليل...

ـ من شيم العارف التواضع، صح!... يا ناهد أقبلي... تعالي قدامي... الآن اخلعي الحجاب، حركي شعرك ذات اليمين وذات الشمال... إيه الجمال ذا! محاسن على محاسن! يا حمودة راقبني، هل أوفق في غض البصر عن البنت ذي... بس أجرب. أحاول ثم أحاول. أغمض عيني براحتيّ، تظهر لي البنت عارية كحواء فأشتهيها أكثر... لا، وحق من خلقها وجمّلها ما فيش فايده... ذكرني بالجدع اللي قال: غضوا أبصاركم ولو عن شاة أنثى... ذكرني.

ـ أظن القائل أبا يزيد البسطامي.

ـ أكيد ذا رجل مكبوت! قد أنجح في غض البصر عن حيوان أنثى، لكن عن بشر أنثى، لا وألفِ لا، ألفِ لا... أفضل حصريا ما جاء في طبقات ابن سعد عن المصطفى الأمين أنه قال: حبّب إليّ من دنياكم الطيب والنساء... يا ناهد تحجبي واغربي عن بصري، اغربي...

مرر المحقق منديله على وجهه وصلعته مرتبكا. قال:

ـ الآن، حمودة، إلى ما كنا فيه عد بنا...

ثم حك قفاه وزِمجر بكلام كأنه يناجي نفسه:

ـ إذن ابن الكلب سب كل أعضاء مركزنا الموقر، حتى أنا لم يستثنني! ملفه ثقل أكثر، وأراه استفحل وتعوّص. ستسومه ماما غولة سوء عذاب، فيدرك الزنديق المتحيف أي منقلبٍ ينقلب، ومن منا المستحق في الدنيا قبل الآخرة أن يُلجم بلجام نار جهنم، ويُجلد بسياطها ويُغلل بسلاسلها وأصفادها. وأنت، حمودة، شهدتَ وسمعت قذف وليد أم قشعم وتشهيره في حق طواقم القيمين أجمعين، ولا ريب تكون من ثقات الشهود يوم الحكم والحسم، بعد أن أُطلعك على مبتدى قضية الزنديق وخبرها وعلى مجراها ومرساها.

خطر لي أن أعتذر عن الشهادة في قضية لا سبيل إلى معرفة الحق فيها، لكني أحجمت. وخطر لي أيضا أن أهنئه على فصاحة لغته وبيانها، ساكتا عما يكتنفها أحيانا من حذلقة وتصنع، لكني أحجمت.

بحركة بطيئة، أزاح المحقق نظارته وأشار إليّ بتقريب وجهي منه. قال بصوته المخنخن مصطنعا الشدوَ والحنوّ:

ـ ما جعلني، حمودة، أعطف عليك، ولا أفوض أمرك إلى مستنطق وعرٍ شديد، هو تشابهنا في نقطة بعينها. هل تعلمها؟

أومأت بالنفي، فأردف بالصوت نفسه:

ـ كلانا، حمودة، خريج كليتين من بلدين شقيقين. لك إجازة في الشريعة ولي مثلها، ولك أخرى في الأدب ولي صنوها، لكنْ فرقت بيننا السبل والأقدار، وسبحان الذي يسر لنا هذا اللقاء لنتعاون على إظهار الحق وإزهاق الباطل والبهتان... بالعين المجردة وحدها أتفرس الوجوه، أستطلع ما تضمر النفوس، وتبثّهُ من نوافذها العيون... موهبة وُهبتها منذ نعومة أظافري، ونمَت وترعرعت مع كرور الزمان، ومنَّ الله عليَّ بها عبر التجارب المحنِّكة والدروس والعبر العاصمة المرشدة؛ هذا مع أني لم أرق بها إلى مرتبة زرقاء اليمامة، ولله الشكر على ما أعطى وقدّر.

فجأة سكت ملقيا عليّ نظرة استدراج وتسآل. ولما لم يأته مني تأييد أو تعقيب، تابع سيل كلامه:

ـ المرحوم أبي ذبح كبش عقيقتي بتسميتي حسّان، تيمنا بشاعر الرسول محمد عليه السلام ودعوتهِ الخالدة العظمى، حسان بن ثابت، الذي هداه الله إلى الإسلام، ونجاه من وديان الشعراء الغاوين اللاغين. ومن ثمَّ، منذ صغري حتى اليوم، تراني عند مطلع شمس كل نهار أذكر أسماء الله الحسنى ما وسعني الذكر، ولا أروم في كل شيء غير الحسن. تزوجت امرأة ذات اسم على مسمى: حسناء. عاملتها بإحسان، وحين لم تخلف مني أرادت الطلاق فسرحتها بإحسان. وأنا ما زلت على نهجي

وعقيدتي، أربأ بنفسي عن العنف وإعماله، أنظر في كل الأمور وأقضي وأدفع بالتي هي أحسن. شعاري كان دائما وسيبقى: نعم للحَسن وللحُسن؛ لا ثم لا للعنف! صدّق أولا تصدق، إني أبدا ما ضربت معتقلا، ولو كان من المعاندين الصناديد، وما عذبت ولا حتى بصقت على أي وجه لذكر أو أنثى. هكذا خُلقت وتربيت... في حياتي لم أذبح حيوانا ولو كان دجاجة، فكيف أفعل هذا بإنسان! تقاليد النطع والسياف في دول الإسلام الدنيوي، كما في مجمل تاريخ النظم والأديان، يقشعر لها بدني وتشمئز منها نفسي... هذا مع أني لا أنكر إقدامي أحيانا، من باب التخيل والتوهم لاغير، على سلخ جلود بعض الأوباش المكابرين وسلقها، أو تقطيع أجسامهم قددا قددا ورميها إلى الضباع والسباع الجائعة... وأنت، حدثني عن عنفك.

استعجمت طلبه مقطبا، فاغرا فمي، فأوضح:

ـ نعم عنفك! عدا اتهامك بقتل زوج أمك، وهي قضية ننظر فيها لاحقا، هناك سابقة اعتدائك على رجل ضربا وجرحا، بدعوى أنه أهان أباك إذ سبّه وبصق عليه. لكنك تجاوزت حد القِصاص وقانون «الطاليون»، وعصيت أمر الله تعالى فيه ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٤]؛ وأمره ﴿ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾ [المائدة: ٤٥]. وإذن، في حالتك، تقضي شريعتنا العادلة العصماء: السب بالسب والبصقة بالبصقة ولو

بالمخاط الأوفر الأكثف. أما أن ترعف خصيمك، وتكدم وجهه بكدمات فادحة، نُقل على إثرها إلى المشفى، فلا ثم لا.

كلامُ الله تعالى جوّده المحقق بصوت أنكر من صوت الحمير، فيا لطيفُ يا لطيفُ يا لطيف! قلت بقصد التخفيف عنّي والتذكير:

ـ تلك، حضرة القاضي، مشادة تعود إلى فترة فتوتي واندفاعي، وهي، على أي حال طويت بالمسامحة والتراضي...

ـ عنف وعنفوان! تقول، لكنها صفحة تدل على ارتكاز التشدد والغلو في طبعك، صفحة غير نيّرة، لا تسقط بالتقادم ولو ادعيت. عقابيل العنف ورواسبه، كالنار تحت الهشيم، قابلة للاشتعال في كل آنٍ وحين. وإن دلت على معطى آخر فإنما تدل على أنك وقتَها لم تكن تصلي... صح؟

اعتصمت بصمت اسمنتيّ حتى لا أجيب، فأردف قائلا:

ـ فحشاء ومنكر هما التشدد والعنف، وفي كتابنا العزيز: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، كما في ديننا الحنيف... لكن لا علينا. اليوم في مقامك هنا وحلولك تحت الحراسة النظرية، هل تراك تصلي الصلوات الخمس؟

ـ هذا (أجبت) شأن بيني وبين خالقي...

ـ لا (قاطعني)، بل هذا شأن يهم التحقيق أيضا ويهمني، وإلا كيف أصْدقك وأصدّقك، إذا أديت اليمين عند الحاجة والطلب؟! أخال أنك إما قطعت الصلاة لتتقن التمويه وتبعد

عنك شبهات من بنات أوهامك؛ وإما تصلي متسترا، آخذًا حِذْرك، مثلك مثل مقيم صلاة الخوف... أيَّ افتراض تراه يصح عليك؟

ـ الصلاة (قلت) راودتها من قبل بنحو متقطع. وأنا الآن في ضيافتكم أؤوب إليها عليلا، خائفا، مريضا بكم، فلا أؤديها إلا بالوضوء الوهمي، معيّنا القبلة بالظن لا غير، مخفّضا سجودي، وأحيانا مستلقيا على جنبي الأيمن أو بالإيماء فقط...

ارتعدت فرائص مستنطقي وتوترت حبال رقبته، قال:

ـ كان السجناء فيما مضى يحصلون على أحجار التيمم، لكن بعضهم حولوها بين أيديهم إلى سلاح، فسحبتُها منهم ومنعتها عنهم اتقاءً للفوضى وابتغاءً لوجه النظام... من باب العطف والاستثناء، سأنظر في احتمال تزويدك بتيمومة خفيفة الوزن، ملساء. إنما رجائي ألا تغدوَ ذات يوم كسجين قديم عالجتُ ملفه، وأظنه توفى، اعترف لي أنه طوال عمره وحتى قبل اعتقاله لم يكن يقيم إلا صلاة الخوف، مقصِّرا مخفِّضا، منتعلا خُفّيه، وسبابتُه على زناد حقيقي أو وهمي. والسبب، كما فسر، أنه يعيش على الدوام في خوف من الناس وحتى من نفسه الأمارة بالسوء... والآن لنعد إلى الهام الأهم.

توقف المحقق برهة، نفث دخان غليونه تارة في الفضاء، وأخرى في وجهي، ثم أردف بلهجة لينة وهو يحدجني بنظرات متفحصة:

ـ هكذا أنظر إليك وفيك عن كثب، فأرى بذرة الخير تصارع براثين الشر، وجندَ الرحمن تنازل جن الشيطان، فاختر صفك، وفقك الله، وراهن على الفرس الفائز، والموئلِ المؤئلِ النافع... التزمتَ كثيرًا إلى حد الآن صمتَ الحكمة وحكمةَ الصمت، وحسنا فعلت كيما يأتي كلامك من بعد مزدانا بلآلئ الحقيقة ودررها، وبلاغةِ الشهادة وبيانها. نظافتك كما أشتم، وهندامك كما أرى، ليسا ما أستحسنُ وأرضى. سآمر أن تُطهر بالدوش الوفير، والصابون البلديِّ الأصيل. سآمر أن يطعموك بما يقوي جسمك ونفسك معا، حتى إذا انتعشتَ واستقمت كان لك السهر مع الأقلام الملونة، تحرر بها على الورق اللامع الصقيل مقالا موجزا عن اغتيالك زوج أمك، وآخر مستفيضا ـ وهو قطب الرحى وبيت القصيد ـ عنك وعن ابن خالتك وصحبكما، متوخيا الكشف المضيء وري الغليل. ولعمري إن هذا لنهجٌ قويم، فيه ربحٌ للوقتِ ثمين، وتعجيلٌ بتفريج الغمة والإسهام في إغاثة الأمة. وأؤكد ما أوصيك به أيضا، هداك الله، أن تجعل البيان ذا المبنى سندا للمقال ذي المعنى، واللفظَ الشائقَ الرائق مشكاةً لتجلية الخيط الراتق والحق الفائق، مصداقا لما ذهب إليه أبو عثمان بحر الجاحظ وهو، كما تعلم، أحد فحول البيان والتبيين وفطاحل الكلام المحلى والقول المصون... ذكرني بما ذهب إليه، ذكرك الله بالشهادة وقت غرغرة المنون...

غالبت شعوري الحاد بالدوار والعبث، أجبت:

ـ إن لم تخني الذاكرة، قال الجاحظ على وجه التقريب: المعاني مطروحة على قارعة الطريق... وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك...

ـ ذكرتني ذكرتني، قالها العالم النحرير في مؤلفه البخلاء...

ـ بل في البيان والتبيين وكتاب الحيوان، ويقصد بكثرة الماء كثرة ماء الصدق...

ـ سأحقق في المرجع، وإن كنتَ المصيب أهديتك ماذا؟ الشوكولاتا السويسرية أو الهولاندية... هل تحبها؟ من لا يحب الشوكولاتا؟!

انتفض المحقق نحوي وأخذني برفق من كتفي إلى الباب مبتسما نزقا، وقال وعيناه من خلف نظارته ترمشان:

ـ خذ الآن هذي الأوراق والأقلام، هدية مني إليك، واسعَ بها إلى المهمة، يا ذا الأدب والهمة. إحساسي أننا قريبا بالعقل والروية نتفاهم، وبالغمزات والذوق السليم نتلاءم. أستودعك الله، وأتركك تؤوب إلى مثواك الآمن، والسلام.

ظلت يداه ممدودتين نحوي ببضاعته، فأدرك أني مقيد اليدين. نادى على التي سلمتني إليه، سكرتيرته الأخرى. حضرت للتو

فأمرها: من هنا ورايح، الجدع ذا صاحب الإجازتين لا تُقيد يداه أبدا... بإشارة منه وضعت المأمورة الأقلام والأوراق في جيوبي ورافقتني إلى مكتبها طائعة مبشورة، وهنا بلّغت الحارس أمر الأستاذ النافذ.

[٤]

جريح على لحافي

مثوايَ الآمن!

هأنذا أُلقى فيه من جديد، دائخا بكلام المحقق المسجوع، وهدفه الغامض المعمّى. في زنزانتي هاته، الساعة تتاخم الآن الهزيع الأول من الليل. أسلمت، كالمعتاد، جوعي وهواجسي إلى أفيون نوم مرتجٍّ قهريّ؛ نوم التبست عليّ مدته ما إن أيقظني رشٌّ مائيّ غزير، يديره رجل من خرطوم على عتبة مربعي. هرعت إلى ركن فارغ، ظانا أن الفاعل من رجال المطافئ هب لإخماد نار شبت عندي أو بجواري، وتهدد بالزحف والاندلاع. لكن سرعان ما تبدد ظني لما رماني الرجل بكويرة صادعا: بأمر من فخامة المحقق، تصوبنْ وتحمّمْ عساك تنتعش وتسلم... وفجأة انقطع الرش وغاب صاحبه. خلعتُ لبسي الخفيف المبلل، تدثرتُ بملاءة لم يمسّها الماء، تكومتُ في لحافي مرتعدا، منتظرا ما سيجد ويأتي.

لم يطل انتظاري، إذ اقتحم مكاني عملاق أسود حاملا شابا تلفُّ رأسَه وجسمه أعصبة وضمادات. ألقاه على لحاف قبالتي وانصرف من دون أن ينبس ببنت شفة. قصدت الطريح متعرفا عليه. استرعاني حوَلَ عينيه وأنفُه الأفطس، رجحت أنه من رأيته في قبضة المحقق بالأمس. جسست نبضه وحبل وريده، فبدا لي أن الحياة ما زالت لها في قوامه بقية. فكرت: لا ريب أن الشاب خضع لتعذيب فظيع، شبيه بعمليات جراحية من دون تخدير. هرولت نحو بابي الحديدي، خبطت عليه بكلتا يديّ صارخا: اعتقوا الروح! الشاب يموت... كررت استغاثتي حتى كللت وبحّ صوتي ومار صدري غصصا...

عدتُ إلى تفقد المريض. استفسرت عن حاله. ندّت عنه كلمات خافتة غامضة، وسبابته مرفوعة. هل تراه يداري جراحه وأعطابه أم ينازع الموت ويُحتضر. سألت نفسي العاجزة المحزونة: ما العمل؟ كررت صيحات الاستغاثة مرفقة هذه المرة باستعمال صحن زنكي للضرب على الباب. لكني اضطررت إلى إيقافه ما إن بلغني احتجاج جيراني عليَّ وصوت يهددني بالكاشو إن لم أهدأ. والكاشو، نعوذ بالله منه، حسب العارفين وشهادة المجربين، هو العقاب بالعزل الانفرادي المظلم، يقال الداخل إليه مفقود والخارج منه مولود، تعبيرا عن طول مدته وضمور شروط الحياة فيه، من أكل وشرب وهواء؛ لذا آثرت الاستجابة والإذعان حتى لا أعوّص أمري وأزيد في طين مأساتي بلة.

قعدت إلى جنب الطريح ذي الجروح البليغة، ممضيا لحظات ملأى بالقلق والحيرة. سمعته بعدها يترجى ماءً مستلا لسانه، جرّعته ما بقي لي منه. أراد المزيد، عصرت في فمه أطراف إزار مبلل جراء ذاك الخرطوم الرشاش الذي باكروني به اليوم. أبدى بعض الرضى وهمهم بكلمات فهمت منها، وقد ألصقتُ أذني بفيه، أنه يشكرني ويستفسرني إن كنت من لمحه عند المحقق بالأمس، قلت نعم، مظهرا فرحي لنماء حشاشة روحه وعودة الوعي إليه. رجوته ألا يجهد نفسه بالكلام حتى يتماثل للعافية والشفاء، لكنه أصر على متابعة البث في مسمعي بجمل متقطعة، أخذتْ، رغم تهدج صوته، تتضح وتكشف أكثر فأكثر عن معناها. وهكذا أجبته اختصارا إلى طلبه التعرف على اسمي وظروف اعتقالي والتهم الموجهة إليّ. لم أسأله بمثلما سألني تجنبا لإرهاقه، لكنه شرع يلملم كلمات تفيد أن اسمه إلياس بوشامة، وأننا صنوان في ما أصابنا وألمّ بنا من محن وشدائد، مع فارق في مكان منبتنا ومأتانا، هو من تيزي وزو الجزائرية، وأنا من وجدة المغربية. وفجأة إذ تغلب لهاثه على صوته، طالبته أن يسكت ريثما يستريح ويسترد أنفاسه، وكذلك فعل. وفيما أخذت أمسح عرقه وأنظف ثقب أذني، التفتّ إلى بقايا الطعام الزهيد على مائدتي، فعرضتها عليه بإلحاح وترغيب، لكنه أعرض عنها، ناعتا معدته والطعام بما يشير أن الأولى تعودت على الجوع، والثانيَ آخرُ ما يأبه له ويفكر فيه.

صمتٌ يطنُّ الآذان خيم فائضا بالهواجس والتوجسات. فهذا الطريح ذو الأعراض الظاهرة والخفية، المتصدعُ السقيمُ المتحسرُ العاجز، تربطه بالحياة نفسٌ متنفسة، أخف من شعرة أو ريشة، ويصله بها جسمٌ قاب قوسين أو أدنى من تحوله إلى جثة هامدة، مثواها الإقبار والنسي؛ وهذا أنا، لا قدرة لي ولا حول على نجدته، ولو بإطلاق حبالي الصوتية صادعة مدوية... عبرات حرى بلّلت مقلتيّ، أنا القليل البكاء، لم يوقف عبورها على خدّي إلا سماعي صوت السجان يأمرني من طاقة الباب باستلام وجبتي، مؤكدا أنها لي دون رفيق زنزانتي الممنوع من الأكل ثلاثة أيام تباعا. استلمت الصحن وبه شربة موشاة بقطع خبز وبصل وبطاطا، وضعته قريبا من الرفيق الذي ململ جفنيه واستفاق سائلا: إيش اللي حدث؟

أجبته: الحدث الحق، يا أخي، أن تكف عن تجويع نفسك وتقتات بما تيسر...

قرّب أذني من فيه، قال: أنفاسي، من شدة ما عانت، ولت كلمى سقيمة؛ ثم لو أكلت، أخشى أن أضطر إلى القيء أو قضاء حاجتي في لحافي، حشاك...

أجبته متوددا مطمئنا: إذا أقبل ذلك، حملتك على ظهري إلى ركن الحفرة، وتم لك كل شيء على ما يرام.

أبدى الشاب علامات القبول والامتنان. رفعتُ رأسه تحت

مخدتي ما أمكن، شرعت للتو أجرّعه بملعقتي الخشبية محتوى الصحن وأحضه على المثابرة والصبر، إلى أن أتى عليه كاملا. هنأته وأثنيت عليه، ثم أصخت السمع لفهم كلمات يفوه بها، كانت للتعبير عن شكري والدعاء لي. فرحي مضاعف: العليل اقتات والأمل في إنقاذه ظهر بصيصه. فاللهم زد وبارك.

بطلب من رفيقي، أعدته إلى هيئته الأولى. مسحت فمه وعرقه، دثرته كيما يخلد إلى الراحة والنوم، وعدته أني سأظل قريبا منه، ساهرا على خدمته، لا يصدني عنه نعاس أو سهو. استدنى رأسي منه وقبّله، همس في أذني: هل أمرك المحقق بمثلما أمرني فعصيتُ وامتنعت،أن تحرر له مقالات في شأنك؟

أجبت: وأعطاني كذلك حزمة أوراق وأقلام لا أذكر أين وضعتها. لكني لن أفعل.

قال: بل عليك، أخي، أن تفعل... أنصحك بل أتوسل إليك أن تنفذ الأمر عاجلا، وإلا أصابك ما أصابني أو أكثر، وسلموك كما سلموني إلى المعذِبة المحترفة، الخبيرة في أساليب الإهانة والتنكيل، تعلمتْ أشرسها وأعتاها في مراكز أجنبية متخصصة، وأبدعت أخرى تتفنن وتلتذ في تجريبها على الأظناء المحبوسين، من صنفي وصنفك... عذاب القبر قياسا إلى عذابها مزحة أو لعبة صبيان... ولأني لا أريد لك السقوط بين يديّ المسماة ماما غولة، حفظك الرب من وحشيتها وجنونها، أدعوك من صميم فؤادي إلى مطاوعة المحقق، واجتناب غضباته ونقماته مقدار

اجتنابك السيدا والأمراض المعدية الفتاكة...حذارِ حذارِ، وقد أعذر من أنذر...

من فرط إجهاده في إخباري ونصحي، بلغ الإنهاك بالمتكلم منتهاه. خفتُ عليه من سكتة قلبية مفاجئة أو نزيف دماغي يعصف بحياته أو يُشله.

قلت: أستعطفك أخي، كُفَّ عن النطق رحمةً بنفسك وبي. غدا صباحا نستأنف الحديث في الشأن نفسه وشؤون أخرى...

قال: بي حاجة، حشاك، إلى التبول، أعِنّي.

حملته إلى ركن الحفرة، ساعدته على إفراغ مثانته، ثم أعدته إلى لحافه.

قال ساكبا دمعا حارا: لتكن أخي مصائبي عندك فوائد. لم تكتفِ الغولة بالإمعان في تعذيبي، بل سلطت عليّ العملاق الأسود فهتك عرضي وفعل بي الفاحشة اللوطية النكراء، عقابا لي على مقاومتي وصمودي... عِدني تحرر للمحقق المقالات، تقول فيها الحقيقة عارية خالصة، فتوفر على نفسك محنة التعذيب الممض والإهانات الفادحة...

بالعًا ريقَ هلعي وانفعالي، أغضيت عن خبر الفاحشة اللوطية النكراء واكتفيت بالقول: قاتلهم الله جميعا وخلّدهم في النار... سأفعل جهدي يا أخي، سيما أن لا شيء أبطنه وأخفيه.

أشار بالقبول وعقب: قد يأتي أجلي ليلا ولا أصبح، فاللهم اشهد أني بلّغت هذا العبد الضعيف ونصحت...

قرّب رأسي وقبل جبهتي وعيناه تدمعان. قبلت بدوري رأسه المعصوب، تمنيت له نوما مصلحا وأنا أتمدد على لحافي، مفكرا في أقوال رفيقي، مراودا بعض الراحة والاسترخاء.

[٥]

كيف حررت تقريرا في شأني؟

لا ريب كان نعاسي أثقل من الرصاص. انتزعني منه سجان دخل عليّ صائحا: انهض، الرياضة خير من النوم. نهضت للتو، فتشت عن رفيق زنزانتي في لحافه تحت ملاءته، لم أجد له أثرا. سألت عنه المداهم، لم يأبه لي. تبعته مضطرا، دائخ البال، متعثرا. حين أوصلني إلى ساحة مسيجة بأسوار عالية ذات أبراج حراسة، أمرني بالمشي مع الماشين دائريا ولزوم الصمت، نبهني أن عينه وعيون زملائه عليّ تراقبني. امتثلت للأمر، لكن كلما استطعت سألت خلسةً بعض الدانين مني عن مكان اعتقالنا وعن السجين إلياس بوشامة. لم أظفر من رفاق المحنة والحبس بغير إشارات التمنع والنفي. ولمّا أُعلن انتهاء حصة «الرياضة خير من النوم»، عاد كل واحد إلى مستقره، وكذلك أنا قدام حارسي الذي أغلق الباب عليّ وانصرف. طفقت أتابع رياضتي، أذرع مكاني خطوات، معكّرَ الخاطر، مدججا بسؤالاتي وشكوكي، مثخنا بأوجاعي وهمومي.

مكوثي في مثواي مستمر على حاله ومنواله، لا جديد فيه. جلستي مع السجين المدعو إلياس بوشامة تركت لي من علامات الاستفهام غموضها وحرقتها، ومن الأمل في تجلية المعمّى تبخُّره وامّحاؤه؛ جلسة مرت هكذا، قاسية خاطفة، وقد لا يكون لها ما بعدها... كيف حمل العتاةُ المهرة السجين المريض ونقلوه من دون أن يحتج أو يصرخ، ولا أن أسمع من أمره شيئا؟ تراهم خدروه أو خنقوا أنفاسه خنقا؟

هل عليّ الاستجابة لدعوة إلياس الملحاحة اللجوجة في تحرير مقالات عني وعن علائقي، تنفيذا لأمر المحقق بذلك؟ نعم عليَّ أن أفعل، تجنبا لنفخ ملفي بتهمة العصيان أو، على الأقل، لتزجية الوقت ومداراة ثقله على نفسي القانطة اللامطمئنة.

هكذا إذن، ببطن فارغ وذهن مشتت، سحبت أوراقي وأقلامي من تحت مخدتي، جلست للتدوين بعد إجراء حركات تنفسية وأخرى تركيزية. حررت فقرات متتالية في ما طلب مني. وبعد تشطيبات وتنقيحات استقامت المقالات على النحو التالي:

«أنا الموقع أسفله، الواقع تحت الاعتقال النظري بمكان أجهله، أشهد أني بريء من حزمة التهم الموجهة إليّ، وأنفيها جملة وتفصيلا من دون أي تلكؤ أو تحفظ، وهذا بيانه:

أنا وليد بادية مدينة وادزم الصغيرة، على بعد بضعة كيلومترات من خريبـكـة، حاضرة المغرب الفسفاطية. أرضها واطئة مفتوحة على المدى والآفاق، لكنها بما رحبت، كانت تضيق عليّ، تبدو

في ناظريَّ سجنا فسيحا من دون قضبان ومستنقعا متراميَ البقع واللزوجات الآسنة.

في جنبات القطعة الأرضية (دون الهكتار) التي كان يعمل فيها أبي كخماس، ما زلت أراني بوجه تشي قسماته بحزن مقيم؛ وأرى أبي الذي تعكس تجاعيد محياه المتكثرة هباء الجهد والكد، وهمومَ الفصول العجاف. كنا، إذ يميل النهار إلى منتهاه، نجلس حول مائدة خبز وسمن وشاي من إعداد أم صبورة رؤوم، نقتات بما تيسر، نقلّب النظر حينا بين بقرة ودواجن وجدران منزل وضيع، وأحيانا نصوّبه إلى التربة الكالحة المغمومة أو إلى الأعالي السحيقة اللامبالية. كم مرة رأيت أبي ينتفض كاتما غضبه وغيظه، يخلع عمامته، يتوسل بها إلى السماء الممعنة في صفائها الرتيب وزرقتها المملة، ويهتف مرددا: أنا اللي عليَّ عملته. نقيت الأرض وفلحتها وزرعتها. بجاه ربي ارحمينا! بجاه ربي اعتقينا... ثم يختم فورته مزمجرا: قست السماء من كثر ما عصينا... قم تسقي الماء، حمودة، وقل لأمك تسخن حريرة الأمس...

ماء البئر في البقعة جف ونضب. لا حيلة لجلبه في قربات على حمار إلا من ساقية توجد على بعد كيلومترين. وحين أُنهي المهمة، كم كنت أرفس الأرض من تحتي، أقذف تربتها وحجيراتها برجليّ، كأني أصارع الجفاف المستبد أو أقلّب

تضاعيف الحال وأستنطق المآل، بحثا عن مخرج لغمتي وقنوطي.

جفاف!

في علم المزارع وعند كل مدرك فهيم، أرض الفلح تتصدع أوصالُها وتتوجع لما يهجرها الماء أو يضن.

لا سُرَّ من رأى حقول واد زم وكل بواديها!

السنة السادسة قبل انصرام القرن العشرين، والفصل فصل البذر والفلح في انتظار الغيث، لكن مؤشرات الطقس وتوقعات الأحوال الجوية تقول بلغتها الرصدية الوصفية ما يفيد عند الفلاح: هيهات أن تعرف المنطقة ومناطق البلاد كلها هبوب ريح شتوية أو أن تتلبد السماء بغيوم كثيفة متدافعة، تأتي بروقٌ ورعود لتطلق سراحها أمطارا كافية شافية، يسميها من يعرف كنهها وفضلها: أمطار الخير والرحمة!

هيهات هيهات.. إلا أن يحدث العجب العجاب ويلطف الرحيم الوهاب بعباده وبهيمته ويحييَ بلده الميت!

وفي انتظار ما يأتي أو لا يأتي، للعين البصيرة أن تقيس عجز الإنسان بغيوم من جنس آخر، تلك التي تنفذ داكنةً هاصرة إلى حواسه وحشاياه.

وللعين البصيرة أن تنكبَّ على عينة أرضية مفردة، وتلتقطَ زحفَ الجفاف المأتمي، وتراص التربة وقحولها، واستحالةَ

لونها إلى الرمادي من شدة العطش والكلح، وبروزَ أنواع من النباتات الطفيلية والحشرات الضارة بين شقوقها...

وللعين أن تنبئ الأذن بشروخ التربة المفلوحة وكدماتها عبر دبيب تفسخها وسرطانه.

وللعين أن تُطلعَ الحواس جميعَها على تدلي ألسنة التربة وفروجِها، من شدة الظمأ والحر واستجداءً للماء والريّ.

كما للعين أيضا أن تتحول أفقيا إلى أشجار متناثرة في البقعة ذاتها، وهي من الصنف الصامد المصابر، فتستكشف ضلوع الصهد الرصاصي الثقيل في شحوب أوراقها وشح ثمارها، فلا يفزع إليها من الطير إلا من جعل كفايته في النقب القليل، وشق عليه التحليق والرحيل.

ذاك الطير المسكين، الآيلُ إلى السقوط جوعا وعطشا، رأفةً به وبعيني المحزونة عليه، وأيضا ببطني المحروم من أكل اللحم، أنشأتُ أجرب في صيده مقلاعي الذي وُهبت منذ نعومة أظافري خبرة في إعماله معتبرة. غير أن شعاري بل آيتي في ذلك كان أن أتطففَ وأتعفف، فلا غراءَ أطلي به الغصون، ولا صيدَ سوى لسد الرمق. والغاية الرِّفقية وحتى البيئية النبيلة: تجنيب الطيور اللاجئة أي إحساس غزير ما بخطرِ مداهمةٍ وطردٍ أو إبادةٍ جماعية؛ بل إني ـ والله شاهد ـ كنت، لكي أحبذ لها المقام والأوبة إلى أعشاشها بعد الطيران، أملأ ثقوب الأشجار بالحب وشتى أنواع الفتات، وتجاويفَها بحُقن الماء الشروب؛ كما يشهد تعالى أن صيدي

المتطفف المتعفف شرطتُه بتوالد الطير وتكاثره، ودونه تراني أتلهى بتصويب ضرباتي المقلاعية إلى الأرانب الضالة، فأصيب أصغرها أو أقلها سرعة ومراوغة.

شعور بالبؤس والعجز ملحاح، برز عندي منذ أربع سنوات، بُعيد سقوط أبي ميتا على المحراث في حقل مشغله ومستغل كده وعرقه، وهو فلاح صغير أجلف، تزوج من قبل مرتين ولم يخلِّف، فطلق من غير إحسان وتحيَّف. شعور تفاقم واحتد حين تزوج أمي هذا الفلاح وأسكنها في بيته الحقير ببقعته المشؤومة. فكان أن أقبل الزوج الجديد على فصلي عن الدرس، أنا ابن السابعة عشرة، ودأب على إرهاقي بالعمل الشاق والنهر المهين، كما لو أني دابة مقودة في خدمة الحقل والبيت، لقاءَ لقمة العيش وافتراش الحلفاء والتبن.

وأنا صاحب العين البصيرة واليد القصيرة، أشهد أن الكلمات عندي تعجز عن وصف إحساسي بالغمة والضيم، في أرض كلما حل فصل البذر والفلح أمست إذن في موعد مع الجفاف والجدب أو المطر الرذاذ وشح الغيث. وقتئذ يتضاعف جنون الفلاح الأجلف، ويجلجل في وجهي أن أرفد رأسي وأتدبر حالي خارج الحقل، بعيدا عنه، معللا تواتر القحط بكونه عقابا إلهيا على تكاثر العاقين والمغضوب عليهم من أمثالي وصنفي.

محيط كله ضنك وشؤم: لا الأرض تؤتي أُكلها، ولا زوج الأم يقلع عن الفوه بالوعيد والسب.

والأم الخمسونية المسكينة!

لولاها لكنت بادرت أولَ القهر إلى شق عصا الطاعة والخروج إلى هواء أيٍّ فضاء آخر. لكن الأم هي الحبل السُّري الذي أبقاني معلقا بهذه الأرض اليباب، والآصرةُ الآسرة التي ترجف عجزا، ولا ترى احتمال رحيلها عن باديتها حتى في الحلم.

تلك إذن نبذة عن سيرتي الذاتية، وكل تمطيط فيها أو نفخ عبارة عن زيادة من رأس أحمق...».

أضفت فقرات في تبرئة ذمتي من موت زوج أمي وفي رحيلي الاضطراري عن واد زم إلى وجدة...».

ضج الدهليز بأصوات من يحكون تناوبا صكوك التهم التي قادت إلى اعتقالهم في مجمع يجهلون موقعه ويطعنون في شرعيته. لم أكن أستطيع تتبع أقوالهم لرداءة أحوال البث وتقطعه، ولأني ظللت منهمكا في الكتابة بقصد التخلص من عبء تلبية أمر المحقق في أسرع وقت. وفجأة طالبني أقرب الأسرى أن أقص عليهم التهمة الملصقة بي وأرفع صوتي ما اسطعت. شكرتهم على التفاتتهم الجميلة، واكتفيت بتلاوة ما يجيب عن سؤالهم في أوراقي، قلت:

«متهم أنا بقتل زوج أمي بضربة مقلاعية ماحقة، تهمة أنفيها جملة وتفصيلا، وأعلن براءتي منها. إنما في المقابل، لا أنكر أني كنت أحيانا أحلم باغتيال ذلك الفلاح الأجلف، سيما حين

يعتدي على أمي بالذم والضرب؛ كما أن الحلم نفسه كان يراودني في غار اعتدت ارتياده للقراءة والحفظ إلى أن يهزمني النوم، أو لشيِّ عصفور وأحيانا أرنب وأكله مع شيء من الخبز والكمون والملح؛ لكن، كما لا يخفى، شتان ما بين الحلم والمرور إلى الفعل، هذا علاوة على أن القنص المقلاعي إذا ما أصاب طائرا أو أرنبا فقد لا يرديه بالضرورة قتيلا، فكيف له عن بعد يحجب الرامي أن يغتال جسم آدمي ذي عمق وطول وعرض. كدمة أو جرح هو أقصى ما يخلفه مقلاع، فأين نحن من الطلقة النارية الماحقة لمسدس صامت أو كلاشنكوف رشاش!

على ذكر الغار، الذي أمسيت أسميه غاري لِما بات لي عليه من تملك، لا ينازعني عليه متشرد أو ابن سبيل، ففي جوفه وسكونه طرحتُ على نفسي القانطة المكلومة سؤال الأسئلة، والجوابُ عنه مفتاح الأجوبة: هل حياةٌ هذي التي أحيا أم كابوس مرعب؟ وفي غاري، بعد جلسات وتمددات تأملية عديدة، استقر رأيي على أن لا حلَّ لي ولا مخرج إلا في هجر باديتي التعسة إلى فضاء مدينة أرحب وأنشط.

انتفضتُ والليل ينشر سدوله الأولى، قصدت البيت حيث ألفيت أمي على ضوء قنديل غازي تضع رأسها بين يديها، وحالة الكآبة والشرود طاغية عليها. جلست إلى جنبها أصبرها وأواسيها. وكالمعتاد سمعت منها كلاما جميلا في رضاها عليّ ودعائها لي أن يجعل الله مني «الزرع والزريعة» و«الكاينة واللي

تكون»، ويبقى سيل أدعيتها متدفقا، لا أقطعه من حين لآخر سوى بكلمات من قبيل: يا رب!... من فمك إلى السماء يا أمي!

رأيت الوقت مواتيا، فأطلقت العنان لكلامي كيما أقنع أمي أن هجرتي هي في داخل الوطن، لا إلى بلدان النصارى أو الثلث الخالي من الدنيا، وأيضا لكي تستيقن أني سأكون دوما إلى جنبها، في الشدة والعسر وضد زوجها لو طغى وتجبر.

وكانت ساعة الفراق في فجر يوم خريفي كأنه صيفي لا فرق، والحزن يهصر قلب أمي وقلبي، وكان دمعها المدرار وأدعيتها لي بالفوز والنجاح ونجاة طريقي من الأشرار وأولاد الزنى والحرام. وقبل التوجه إلى محطة الحافلات حاملا حقيبتي الوحيدة، هددت الفلاح الأجلف بجدع أنفه وكسر عظامه إن لم يتق الله في معاملة أمي. وسمعتُه يتشدق بالأمر: ازهق بالماء والشطابة حتى قاع البحر...».

أحسست أن جيراني، حتى الأقربين، سكنوا تماما وتناهى إلى سمعي شخير بعضهم. استمهلتهم قليلا لعل أحدهم يطلب من قصتي المزيد، فلا من طالب ولا فالت من قهر النوم. عندئذ استأنفت تقريري مسجلا:

«مستقري الجديد كان في وجدة، حاضرة المغرب الشرقي، القريبة من الحدود الجزائرية، وهي ملتقى طرق بين مرتفعات وسهول وأودية، دخل منها الفرنسيس لاستعمار المغرب، وسُميّت قديما مدينة الحيرة. قصدت هذه المدينة لا لأني

فضلتها على أخرى أو تيمنا ببلدة أجدادي، بل بحثا عن ملاذ آمن ومورد للعيش، ترجيت أن يوفرهما لي ابن خالتي الأوحد، المقيم هناك، وتحقق لي بعونه وفضله ما ترجيت. رجل شهم أبيٌّ معطاء، دمث الأخلاق، طيّب الأحدوثة، متعدد المزايا؛ في الأربعين من عمره، يتيم من أبويه، كوّن نفسه بنفسه، ربما تزوج من قبل ولم ينجب، مهتم بالفقراء والمعوزين من الناس، مغيثٌ لهم ما استطاع، كثير الحركة والتنقل والأسفار.

لما أتيته صفر اليدين، متبطنا قلقي وضياعي، استقبلني بالحفاوة والترحاب، آمنني وخفف عني إذ أسكنني في مكتبته التي كان على وشك إغلاقها بسبب الكساد وندرة القراء، فجعلني قيّما عليها مقابل راتب شهري قار.

أربع سنوات قضيتها في وجدة، حصلتُ أثناءها، كمرشح حر، على البكالوريا ثم في متمها على إجازة في الأدب وأخرى في الدراسات الإسلامية. ولا ريب أن السر في تفوقي ذاك يرجع أساسا إلى انكبابي شبه المتصل على القراءة والتحصيل، الذي أتاحه لي تفرغي في المكتبة بما تحويه من مؤلفات قيمة وأخرى كنت أجلبها إليها بالشراء أو التبادل. وحين أخذت تجارتي تعرف بعض الرواج، نظمت أوقات الفتح والغلق بحيث أقتصر على الزبناء الجادين، وأنقطع إلى أخذ الكتاب بقوة. وكثيرا ما كنت أسهر ثلثي الليل في انكبابي، لا أوقفه لحظات إلا للتأمل والتفكر أو لتجديد المصائد للفئران قاضمة الورق أو الضالة.

خلال تلك المدة كنت، متى تيسر لي، أزور أمي في باديتها بواد زم وأتفقد حالها، فكانت تجهد في طمأنتي والإحجام عن ذكر زوجها الآيلة صحته إلى التدهور والسوء، وتتخذ حالته هاته تعلة للبقاء إلى جنبه والتشبث ببلدتها وعاداتها. وفي نهاية كل زيارة، كانت تثقل حملي بالزاد الوفير، مشفوعا بالأدعية والتقبيل. وظللنا كذلك حتى وصلني منها لاحقا نعي زوجها بعد أن انقضت جنازته ودُفن. ولما عدتها قبل اعتقالي وجدتها أحسن حالا، كأنها تخلصت من عبءٍ مضنٍ ثقيل، تدير شأن القطعة الأرضية التي ورثتها، لا تبغي بتاتا بيعها ولا هجرها. وبعد ذاك انقطعت عني أخبارها وأخباري عنها مذ حللت بين ظهرانكم ضيفا رغم أنفي، سجينا من دون محاكمة ولا تهمة ثابتة، بينةِ القرائن والفحوى.

هذا هذا ولاشيء غيره يرد في بالي، إلا ما يكون شيطان المكان أنساني أن أذكره، والسلام».

طويت أوراقي وخبأتها في مكان قد لا يلحقه رش خرطومي محتمل، وذلك في انتظار أن يطلبها الآمر بها، القاضي المحقق، لا أراني الله وجهه. استرخيت واستسلمت لنوم ملتبس، لا لون له ولا طعم، ولا تفسير عندي لصوره ومضاته، ما خلا رؤيا ختمَته، بدت لي أمي فيها تعتب عليّ غيابي الطويل وقطع الصلة، تقول بالحرف: بطاقة واحدة منك لم تصلني... حتى لو كنت في

الثلث الخالي من الدنيا! أفرش طريقك برضاي، طمئني: البحر ما بلعك، كما يبلع هذي الأيام شبان كثيرين؟... وأجبتها يقظا، متقوقعا: بل ابتلعتني صحراء مترامية الأطراف يا أمي، وحشرتني في محبس مجهول الموقع، مفجع رهيب، طقسه إما لهيب وإما زمهرير. لا رسائل تخرج منه ولا أخرى تأتي إليه. وعليك أماه بالصبر والدعاء لي، ولا حول ولا قوة إلا بالله...

[٦]

في قبضة سكرتيرة المحقق

في ساعة لا أدريها، أيقظني صوت خشنٌ راعد: الرياضة خير من النوم... كنت قبل سماعه أجوب برؤى منامية بين واد زم ووجدة، بطلها ابن خالتي السائل عني، الحزين المتألم لغيابي المديد... انتبهت فإذا أحد الحراس الشداد يأمرني بإجراء حركات تسخينية في مربعي، كالقفز والمشي برجل واحدة و«البومبات» وملاكمة خصم وهمي؛ وفي غمرة استجابتي نهرني أن أتوقف. امتنعت بدعوى أني لم أهزم بعد غريمي بالضربة القاضية، وهذا الخصم في مخيلتي هو حضرة المحقق ولا أحد سواه، فهرع الحارس إليّ واقتادني بشدة نحو ساحة المعتقل، حيث تجري التمرينات الجماعية تحت شعار: العقل السليم في الجسم السليم.

في الساحة لم يكن معظم المتريضين يتعاطون سوى المشي دائريا وعلى نمط الصف الهندي، يبعد الواحد عن الآخر بمترين

ويزيد، ويُمنع الكلام بين المتريضين ولو همسا أو رمزا. أما الممارسون للجري الأحادي فقلة قليلة، لعلهم من الوافدين الجدد أو ممن لم يُحالوا بعد على مصلحة التعذيب.

قبيل انتهاء الحصة، لمحت عن بعد بين الدائرين رفيق زنزانتي الأسبق، المدعو إلياس بوشامة. قصدته تلقائيا لأسأله عن حاله وأطمئن على صحته، فتصدى لي حارس غاضب وهددني بالكاشو إذا أنا عاودت فعلتي ثانية، فأدبرت عائدا إلى مكاني، أنشد السلامة وحسن المآب.

وجبة الفطور في زنزانتي لبن يذكرك لونه ورائحته ببول البعير. أعرضت عنه قانعا ببلع قطع خبز يابس بعد تليينها بالماء، وذكرت بعض أقوال سادة الزهد والكفاف، جاعلا منها عسلا لي وسمنا... من جهة الجسم، لا عَرَقَ غشاه جراء الحصة الرياضية، نظرا ليسرها وبرودة الطقس وقت الصباح؛ أما النفس فلا حيلة لي إلى طمأنتها ودفع أحزانها، إلا أن ينزل إليَّ حبل من السماء مددا ونورا، فيخلصني مما أنا فيه، ولو بجذبي إلى الدار الأخرى. وفيما غلب عليّ التخمين والنظر في أمر ملء يومي بالنشاط النافع، إذا بالعملاق الأسود، السابق الظهور، يدخل علي ويجري إشارات فهمت منها أن سكرتيرة المحقق تأمرني بالمثول أمامها متأبطا تقريري، ثم لوى على معصمي ما إن سحبت أوراقي من مخبئها الآمن وسرت بحذائه، مكبا على وجهي، صامتا أو مسترقا النظر إلى مارين بزي مدني، تشي وجوههم بأنهم أجانب.

سلمني العملاق إلى حارس على باب المكتب المقصود، قام هذا بتفتيشي، قيّد يديّ خلف ظهري قبل أن يعلن عني في اتجاه رئيسته التي أمرته بخلع قيدي.

في حضرة السكرتيرة، كدت أصعق وأنا أراها تحولت من فتاة الأمس المجلببة المحجبة إلى أخرى بزي عصري جدا، على مقاس الغواية وقلة الحياء، وبوجه ذي عينين نجلاوين وأهداب وافرة كحيلة، وجهٍ زاده الماكياج جمالا على جمال، وأحاطه شعر أشقر كثيف تفنن في تشكيله حلاق ماهر. غضضت طرفي للتخفيف عني، ولبيت دعوتها بالجلوس وتسليمها تقريري.

سمعتها تقول بصوت يغلب عليه الدلال والغنج: نعم... أنا من رأيتها في هذا المكتب من قبل... كل جمعة وفي الأعياد الدينية أتحجب أو قل أتأصل، وفي ما عداها، كما ترى، أتعصرن... دين ودنيا، كما يقول حضرة القاضي المحقق... قلتَ إيه؟

ناجيت نفسي: أنتِ وقاضي الزور وكل الآخرين في هذا المركز، والله لا دين لكم ولا دنيا. كلكم إلى أم قشعم.

أعادت سؤالها: قلتَ إيه؟

أجبتها: قلتُ في التقرير ما قلت، ولا زيادة لي عليه...

استدركَت: ذكرتني... الأستاذ المحقق في مهمة. كلفني بطبع أقوالك حتى يطلع عليها وأنقل ملخصها بالفرنسية إلى ماما غولة. قلتَ إيه؟

أجبت: حسنا...

كررتُ حسنا مرات لتسويد بياض وقت ميت. وبعدها شرعتْ في القراءة بصوت مسموع تارة ومهمهم تارة. لاحظت أنها تقفز على فقرات بأكملها، وتتناول قلمها المُذهب من بين شفتيها الحمراوين لتعليم كلمات أو سطور. استوضحتني عن ألفاظ لم تفهمها، ولاشك أني أهملت تنقيطها أو خربشتُها بفعل نرفزة أو تذمر كان يصيبني أحيانا. طلبت منها السياق فقامت وتحركت نحوي بحذائها العالي وفخذيها نصف العاريتين وحوصلتها المكشوفة، ثم رددت ضاحكة كلمة السياق، وانحنت علي بصدرها الناهدِ اليانعِ المنفرج، تنعتُ لي بقلمها المُذهب كلمة فأخرى، فطفقتُ أناَ تحت محاسنها النفيسة وعطرها الناعم الأخاذ أهدّئ بهيميتي وحواسي المستنفرة، وأنقل عيني خِفية بين ساقيها والسياق، متمتما تصحيحاتي وتنقيحاتي.

خطر لي وأنا قيد تلك الحال أن أنقض على المنحنية المهيمنة علي بأنوثتها الهائجةِ المائجةِ المثيرة، فأفعل بها فعل الثور بالبقرة، حتى إذا قضيتُ وطري أقمتُ دفاعي ضد تهمة الاعتداء الجنسي على أساس اتهامي للغانية الغاوية بالتحرش الجنسي في شأني، أنا المحبوس المكبوت، كما يدل عليه ماديا هندامها الفاحش، وحركاتها المريبة، وكلامها المتغنّج المغرّر، فتكون حجتي البالغة الأمضى: الشر بالشر والبادئُ أظلم؛ لكني تمثلت يوسف الصديق قُدس ذكره، ولو أني دونه وسامة وتقوى، فأبيت

واستعصمت، لاعنا وسوسات الشيطان وشبيهات امرأة العزيز، الكثيراتِ المنتشراتِ السائبات في زماننا الفاجر المتهتك هذا.

لعل السكرتيرة شعرت باضطرامي وارتباكي، إذ عادت إلى كرسيها، ومنه وجهت لي نظرات ملتبسة، ثم تفرستْ وجهها في مرآة حقيبتها اليدوية، وجددت ماكياجها على الخدين والعينين والشفتين، كأنما فرغت من عراك غرامي.

قالت وقد مالت لهجتها إلى اللين والدفء: الدين النصيحة. عليك بشطب كلام الحشو في أوراقك، وهو كثير، وتعويضه بما يفيد التحقيق. الدين النصيحة. دشّنِ الشطب على كل جملة تُشتم فيها رائحة السؤال. دستور المركز في المادة السابعة من فصل العدميات يُلزم الظنين بعدم السؤال، ولو قصد إليه بشكل مخاتل أو غير مباشر، ويوجب عليه في المقابل الجواب على أسئلة المحقق كلها... قلتَ إيه؟

أجبت: ليس لي سيدتي...

صحّحت: مامزيل...

تابعت بلهجة حازمة متحدية: ليس لي، مامزيل، ما أحذفه أو أزيده. كلامي يؤخذ كله أو يشطب كله.

نهضتْ فجأة متوجهة نحوي، وزعقت في وجهي بصوت وقد اخشوشن وتهند: الأستاذ سيشطب من كلامك ما يريد، ويُلزمك بقول الحقيقة كلها في أمرك. أما إن جفلت وعاندت

فماما غولة ستشطبك من الوجود بجرة سكين... هل لأني امراة تستخف بي وتهينني! لكن انظر إلى يدي، إنها من حديد في قفاز من حرير.

ثم بادرتني بلكمة على خدي كادت تفقدني وعيي، وصاحت غاضبة محمرة العينين: هذي على سبيل التجريب. الآن قم وازهق.

خارج الباب، تلقفني العملاق الذي قادني إلى دورة مياه حيث أخذ ينعتها لي وينعت حجري. فهمت أنه يسمح لي بإزالة الجنابة، وذلك ما فعلت كما يفعل، ولا شك، كل رجل جالستْه وكلمته تلك السكرتيرة الغاوية، وكان له قسمة من الفحولة ونصيب.

[٧]

جريح آخر على لحافي

عودا إلى مطرحي، لاحظت لحافي وقد انتفخت ملاءته طولا وعرضا، كأنما حشوها بالتبن والحلفاء أو ما شابه. رفعتها من الأسفل فإذا بي أمام قدمين آدميين، ظننت أنهما لإلياس، فهتفت باسمه وأنا أكشف عنه من جهة الرأس. ألفيت هذا الرأس ملفوفا تماما بضمادات، فلا تُرى منه إلا عيناه المغمضتان وشارب خفيف يميزه عن إلياس أو قد يكون له حديث النبت. تمددت على اللحاف الآخر قبالته، وذهني يسرح مسترجعا صورا مما شاهدته في هذا المجمع الغريب الرهيب، الذي ما زلت أجهل موقعه، وليس لي عن وظائفه وأغراضه سوى ظنون وتخمينات. وفيما ملت إلى الغفوة، خبط خابط على بابي، استلمت منه عبر الكوة وجبة غداء، سائلا إياه إن كان رفيقي الجديد هو إلياس بوشامة، فنفى معرفته بهذا الاسم وغاب، تاركا على لساني سؤالا عما إذا كان الرفيق الجديد نصف ميت أم حيا يُحتضر، وآخر عن زنزانتي هل أمست مستودعا مفضلا لإيواء المعطوبين الكبار، المثخنين بأخطر الجراح وأنكاها...؟!

جلست أتلهى بغمس كسرات خبز في شربة باهتة الطعم، أسد بها رمقي ريثما يطرأ طارئ يجلي لي واقع الحال، ويبدد بعض توجساتي وهواجسي...

في لجة ترقبي والصمتِ المهيمن، تناهى إلى سمعي أنين متقطع صادر عن المنطرح قدامي. هرعت إليه أحمد له أوبته إلى الوعي واليقظة، لكنه ـ واعجباه!ـ شرع يصدني بكلتا يديه ويصدع بكلمات الفزع والخوف مني، لا تثنيه عن تصعيد نفوره وروعه كلماتي المطمئنة المهدئة. عندئذ عدت إلى ركني مسرعا، تكومت فيه ملتقطا ألفاظا من هذيان المذعور، مفادها أني عميل مزدوج، كلفته إدارة المركز بالتجسس عليه وتسقُّط حركاته وسكناته. رفعت عقيرتي بالأيمان المغلظة أني معه في الهم والحبس سواء، لست بمخبر ولا جاسوس. لم يبد ردا. ظننت قسمي ظل دون طبلة أذنه، فصِحت به مرتين ملء بلعومي حتى أشار إليَّ بالدنو منه. قعدت قرب رأسه. نظر إلي نظرة وعيناه مغرورقتان بالدمع، ثم كشف عن أسفل حجره المضمد وقال بلهجة مهزومة متصدعة:

ـ شف، يا أخي، ما فعله بي أولاد الزّنى! بتروا خصيتي اليمنى وهددوني بنزع الأخرى إذا لم أطِعهم وأتعاون...

متأثرا غاية التأثر، حابسا دمعي، سألت:

ـ قاتلهم الله ودمرهم في الدنيا قبل الآخرة! أيَّ تعاون يريدون منك يا أخي؟

ـ أن أكشف لهم أسماء خلية جهادية لا أعرفها، وأخبرهم عن أشخاص مطلوبين لديهم، ربطتني بأغلبهم علاقات عابرة، أهون من خيط عنكبوت، وببعضهم علاقات مودّة وتراحم... هل كان علي أن أذنب في حق من أحسن إليّ أو أورطهم حتى أتقيَ عذابا أليما، أذاقتني المسماة ماما غولة صنوفا منه؟! إني أخاف الله، أخشى لو فعلت أن أُخلّد بعد موتي في جهنم وبئس المصير. هل توافقني الرأي، أخي؟

هتفت تلقائيا:

ـ طبعا أوافقك، وأرى أنك تقتدي بنبينا الأكرم، ذي الخلق العظيم.

ـ تلك الجلادة، لما يئست مني، أحضرت شخصا مقنَّعا، قالت إنه جراح المركز المحلف، وأمرته أن يفعل بي ما رأيت... هل أنزع الضمادة عن موقع الخصي ونقط الرتق الدامية؟

بإشارة حازمة مني نهيته عن ذلك، فأذعن مكرها، ثم أطلق العنان لبكاء حار لم يخفف منه إلا بسؤال صاعق:

ـ لو كنت مكاني، أخي، ماذا تفعل؟

أبديت ارتباكي وحيرتي فأردف:

ـ أنا على باب الثلاثين، أريد تحسين ديني بالزواج الحلال. الجرّاح أقسم لي أني بخصية واحدة أستطيع أنكح وأنجب، كما حال أيٍّ شخص تكفيه عين مفردة للنظر، ورئة دون

الأخرى للتنفس، وكِلية واحدة تصفي دمه وتطهر... أنا الآن بين خيارين أحلاهما مر: إما أذهب في مقاومتي حتى النهاية، وعاقبتها المحتومة الخصي التام المبرم، وبعده أيُّ امرأة تقبلني في فراشها؟ وأيَّ سقوط واندحار في أعين الناس! وإما أخبر الغولة والمحقق عما أعرفه من الأسماء المطلوبة، وأتعاون مع فرق الجواسيس والعملاء في إلقاء القبض عليهم... أجبني أخي: لو كنت مكاني، ماذا تفعل؟

قوست حاجبيّ تعبيراً عن تحرجي من السؤال وإلزامي بخيار، فقال:

ـ من حقك التمسك بالحياد والصمت. إنما لا تعجب إن أمسيتَ ذات يوم، وأنت رهن الاعتقال، المعني المباشر بصنو سؤالي... الآن أعطني بعض القوت والماء، ثم اتركني أستريح، تكلمت أكثر مما أطيق.

لبيت طلبه على عجل. سألته قبل استسلامه للنوم عن اسمه، فقال عمر الرامي، وعن موقع اعتقالنا من البسيطة فأومأ بجهله.

تعرمت في لحافي ممعنا التفكير في حالة هذا المستضعف، المهدد باستئصال خصيته الثانية، ثم في إلياس، نزيل زنزانتي قبله، الذي بات وما أصبح. تكدست في ذهني المرهق الأسئلة والتلبيسات، كدت أغرق في متاهتها ودوارها لو لم يقتحم مكاني حارس على رأس قدميه، مشيرا إلي باتباعه، هامسا في أذني: الرياضة خير من الهم...

لا بل في هذا المركب المرعب المظلم، إنها همٌّ آخر هذي الرياضة! ولاة المركب مسخوا معناها، وقلبوا حكمتها الآنفة الذكر «العقل السليم في الجسم السليم» إلى مزحة ممجوجة وتمرين مهين.

في الساحة المعبدة الباهتة الألوان، الطقوس والمحرمات هي ذاتها. الجديد المشاهد هذه المرة هي حلقة مساجين مقيدي الأيدي والأرجل، ببذلات ذات بياض متسخ، يدورون بعيدا عن حلقتنا، بين ممرات ذات أسلاك شائكة وتحت مراقبة حراس بالسلاح مدججين. سألت همسا عن هويتهم سجينا قدامي فلم يجب، وعن واحد اسمه إلياس بوشامة فهز كتفيه، وحدث لي الأمر نفسه مع السجين خلفي.

أدركت أن لا أمل في استراق الكلام مع رهط السجناء، فطفت معهم لا أخاطر ولا أزيغ، جاعلا كفايتي في التزود بالصبر على المكاره، وتنشق بعض الهواء خارج جدران الزنزانة وأضجارها.

دوت صفارة انتهاء حصة الرياضة، فاقتيد أصحاب البذلات الزرق إلى مطعم جماعي. مررت بصحني كغيري أمام موزع الوجبات، ثم جلست حول طاولة عريضة عُينت لي مع أربعة أشخاص، لكل واحد صحن حساء ببعض القطاني وقطع لحم، وله خبزة كاملة وموزة وإجاصتان. هل هذي وجبة ليوم عيد لا أدري ما هو؟

الصمت سيد المقام، لا تشوش عليه إلا تصويتات الملاعق والتجرعات وحركات أيدٍ مشبوهة تحت الطاولة. أحببت الإسهام في التشويش، فسألت عن مبرز هذي الوليمة، ولا من مجيب. ذهب واحد يملأ وعاءه مجددا ، فاغتنم جاري الأقرب مني غيابه ونصحني بالكف عن الكلام بدعوى وجود سجناء مخبرين. استفسرته عن أصحاب البذلات البيض المكبلين، أجاب همسا: إنهم المؤبدون، من مات منهم يكفن ويدفن بلباسه الأبيض المتسخ؛ ثم سألته عن إلياس بوشامة وعمر الرامي إن كان يعرفهما، فهز كتفيه وسكت ما إن عاد المتغيب إلى مقعده. انكببت على صحني ألتهم ما فيه، وحين أرمق العائد أراه يحدجني بنظرات شزراء متفحصة... هكذا إذن هي العلاقات بين نزلاء هذا المعتقل الشاذ المتوحش: منسوجة بخيوط التباس الأدوار، وغلبة التوجس والخيفة بين الأفراد، وتجارة موازية ذات علامات سرية وكودات.

حين إيابي إلى مستقري، لحظت أن رفيقي الجديد، عمر الرامي، تبخر بدوره ولم يترك بطاقة ولا أدنى أثر. تمددت تعبا، أترقب انسدال الظلام، وأستنزل بالدعاء رحمة السماء لتفريج كربتي وإسعافي بالفهم لما يحلُّ بي ويجري كل يوم من حولي.

[٨]

جلستي بين المحقق وكاتبته ناهد بوسني

في الغد أيقظني حارس عن بكرة أبي. اقتادني إلى جناح الإدارة حيث أوقفني عند باب وقال: بأمر من سعادة المحقق، ادخلْ هذا الحمام، اغتسلْ جيدا، أزل لحيتك، نظف أسنانك، تعطر، البس بذلة زرقاء جديدة فوق قميص جديد وضعْ ربطة العنق المواتية. تجد كل هذا في الداخل. عشرون دقيقة وأعود إليك.

غلَّق الباب دوني بمفتاح وانصرف. لحظة أمضيتها أسترط ذهولي ودهشتي، ثم شرعت أسابق الوقت لقضاء ما طُلب مني. الماء الدافئ يغمر جسدي ويهزم أوساخي بعون الصابون السائل وكيس الحك والدلك الناجع. حين استوفيت حصتي من الغسل، جففت أطرافي بفوطة لينة عريضة، نظفت أسناني بفرشاة عذراء ومعجون زكي، قصصت لحيتي على طريقة أهل السنة، تعطرت ما استطعت قبل أن أرتدي لباسي الجديد. شيء واحد نسوه: حذاء يناسب البذلة ويواتيها! انتعلت زوج خفي

المطاطي، اقتعدت كرسيا وقد استبد بذهني خوف من أن يكون هذا الكرم التطهيري طريقة القيمين مع سجناء على عتبة تنفيذ الإعدام فيهم، أي غسلا قبليا لجثثهم الموعودة للدفن.

لم أجد من حيلة لمداراة رهبتي والتشويش عليها إلا في الإكثار من تنظيف أسناني وتمشيط شعري إلى الخلف. ولما فاجأني الحارس بدخوله، بلعت ما علق بفمي من المعجون، ثم عبرت له عن شكري وأهبتي، واستأذنته في حمل بذلتي القديمة وشيئا من لوازم النظافة، قال: كل ذلك لك، وبذلتك الوسخة ارمها في سلة المهملات أمامك وضع ربطة العنق. هيا...

حشوت اللوازم في جيوبي متثاقلا. فهم الرجل أني لا أحسن عقد الربطة، فبادر إلى مساعدتي قبل أن يصحبني إلى مكتب سعادة القاضي المحقق.

استقبلتني شابة مبتسمة نشطة. نعتت لي كرسيا وقالت بصوت رخيم دافئ: ناهد بوسني في خدمتك. سعادة الأستاذ على الهاتف...

لا... السكرتيرة التي جالستها في هذا المكان من قبل غير هذي الفتاة المهذبة اللطيفة! تسنّى لي إدراك وجوه الاختلاف بين المرأتين في قامة هاته المعتدلة وقامة تلك المفرطة، كما في قسمات المحيا، ولو أن الأناقة والحسن يطبعهما معا. وحتى الهندام فهو عند السكرتيرة الجديدة، بخلاف الأخرى، أقرب

إلى الحياء والحشمة، لا يقلل منهما حجابُها الموسليني الشفيف على شعرها المبوْكل.

رن الإنترفون. رافقتني السكرتيرة إلى مكتب المحقق الذي لقيني بوجه بشوش وهنأني على ميل وشي وهندامي إلى الأحسن، ثم دعاني إلى الجلوس قبالته بعد أن طلب من ناهد أن تحضر لي شيئا. خيرتني قائلة: شاي أو أهوة؟ أمرها المترنح على كرسيه الجلدي الوثير خلف منضدته الضخمة: أعطه قهوة مضبوطة. وحين غابت أردف مبتسما، ملامسا شاربه المقصوص:

عرفتُ من قبل مغربية من فاس تنطق القاف ألفا، وهذي الفتاة تزيد عليها في قلب الراء غينا، وأعوص منها عراقية كانت في الخدمة، سامحها الله، تفعل بالكاف والجيم ما لا يطاق، إذ تقول أحشي بدل أحكي، وأدهى منه الياي عوض الجيم، فإذا عزّت في موت أحد قالت لأقربائه الذكور، كل على حدة: عظّم الله أيرك، وتقصد أجرك، كما لا شك فهمت. ولله في خلقه ما يشاء! لكن سكرتيرتي في الرقن تلتزم بجادة الحروف ولا تحيد عن مخارجها... وظفت هذي اليتيمة لأنها متدينة، تخاف الخالق، تحفظ كتابه العزيز، تتقيه في مقابلة النزلاء المستنطَقين. يلقبها الزملاء والزميلات بينزير، نظرا لشبهها الخِلقي وحتى في الهندام والحجاب الموسليني بالست بينزير بوتو، أبقاها الله للنسوة أسوة حسنة في الدنيا قبل الآخرة.

وسكرتيرتي هاته معجبة أيما إعجاب بالست بوتو، ولو أنها لا تقرب السياسة ولا تلامسها.

أتتني الفتاة بفنجان قهوة ومعه قطع شوكولاتا.

سألها المحقق نزقا: في السياسة، لا ناقة لك ولاجمل، يا ذات الأناقة والجَمال! أليس كذلك؟ وأردف وهو ينعتني: قولي بلى لهذا البلاء المسلط حتى لا يضبطك في حالة مخالفة خطيرة لأصول لغة الضاد وقواعدها. قولي بلى.

أجابت المسكينة: بلى! ثم طالبها أن تتلوَ أقصر سورة في الذكر الحكيم ولا تتعداها، فقالت محتشمة وهي تروم الانسحاب: [إنا أعطيناك الكوثغ. فصلِّ لغبك وانحغ. إن شانئكَ هوَ الأبتغ]؛ ثم خرجت وهي تغني: يا من يأول لي أهوى/ أسقيه بيدي أهوى...

صاح القاضي مبتسما:

ـ اذهبي عسى الله يغفر لك قراءتك القسرية، كما سيغفر لأصحاب القراءات السبع... أما جمانة السكرتيرة السابقة، المحالة على جناح النساء فقط، فلا غفر المولى لها تعنيفها لمن قابلتهم من النزلاء، وأفسدت على تقاتهم وضوءهم بتبرجها وغنجها، وهام في حبها والهُتافِ باسمها ضعفةُ الألباب، الزائغون عن ربقة الدين والأعراف... قل لي... هل أثناء غيبتي حصل لك معها مكروه؟

سكتُّ مطرقا. كشر عن أنيابه وصرخ حانقا:

ـ اللعينة اللعينة! عاهرة ولعينة! أوصيتها بك خيرا وعصتني. هل ضربتك؟ والجنابة هل...

ـ اللعينة! تذكّرني هاته بأخرى هي الألعن، عاشت في الجاهلية، ولو لم يعشقها شاعر عظيم من جيلها وبني عمومتها، ولو لم يخلِّد اسمها في معلقته العصماء لكانت لا شيء، هباءً منثورا، نسيا منسيا. هل أدركت من إليها أشير؟

أومأت بالنفي، فحنحن وتمختر في قعدته كأنه يهيئني لإلقاء قولٍ ثقيلٍ عليّ:

ـ تلك العاقة المتعجرفة المنتفخة المتغطرسة كالطاووس، التي قال فيها شاعرنا المولّه بها بيتين ليس لهما والله نظير في آداب الدنيا كلها... ذكرني بهما... ولقد ذكرتكِ والرماحُ نواهلٌ... أكمل حمودة، أكمل...

استجبت مكرها:

ـ منّي وبيضُ الهندِ تقطرُ من دمي.

ـ الله الله! فودِدتُ تقبيلَ السيوفِ لأنها... أكمل حمودة...

ـ لمعتْ كبارقِ ثغركِ المتبسّمِ...

يقول عنترة بن شداد العبسي مثل هذا الشعر العُلويِّ الفائقِ البليغ، ولا تنفعل به عبلة اللعينة ولا يخفق له قلبها، بل تلقى

بالنفور والصدود مبدعه الأسـودَ البشرة، الأبيض الصدر والسريرة! ألا ترى معي أن عبلة هاته لعينة، بل شرموطة وعنصرية مقيتة؟

صمتُّ خافضا طرفي.

ـ شبه ما لك مع شاعر عبس المفلق، مع وجود الفارق الشاسع بينكما، فهو جرّاء حرقته وخيبته في حب عبلة خلف لنا شعرا عظيما خالدا، وأنت في علاقتك بالسكرتيرة السابقة جمانة يصح عليك المثل: ربَّ نقمة في طيها نعمة. أنت إذن تأكدت أن فحولتك ما زالت بخير. احمدِ الله وأكثر له الشكر...

أشعل المحقق غليونه. خيرني بين سيجارة أو سيجار، اعتذرت. علّق مصطنعا حياءً لا يناسبه:

في علمي المتواضع، خلافا للخمر، لم ينزل نص في تحريم التبغ. لكني في هذا وذاك أتوخى الوسطية ولا أحيد عنها. أما أنت فالراجح أنك تجتنب بنت الكروم وتضيف إليها بالقياس الدخان والأفيون. أليس كذلك؟

ـ بلى (أجبت). الصحة كنز الأحياء، والوقاية خير من العلاج.

ـ صح... والله صح! لكن زماننا هذا مليء بالتوترات والمنغصات، ومواجهته تحتاج إلى شيء من المهدّئات...

تململ المحقق في قعدته نافثا في وجهي دخانه. قال بصوت لا يخلو من تضايق ونرفزة:

ـ كنتُ من قبل أستقبل الأظناء بأوساخهم وكريه روائحهم، أصبر عليهم لوجه الحقيقة وطمعا في الكشف عنها ونيل رضى الله. وبعد رجوعي من مهمات في الخارج، أمرت لا يدخلنَّ أحدٌ عليّ منهم من اليوم فصاعدا إلا وقد تطهر وتعطر. وأنت الآن أول المطهرين المعطرين المزينين على نحو لن يحوشه غيرك... ما جعلني أعطف عليك ولا أفوض أمرك إلى مستنطق وعر شديد هو تشابهنا في نقطة بعينها. هل تعلمها؟

أجبت على مضض:

ـ سبق لك، حضرة القاضي، أن أنبأتني بها: كلانا خريج كليتين من بلدين شقيقين، لك إجازة في الشريعة ولي مثلها، ولك أخرى في الأدب ولي صنوها...

ـ إيه... صحيح! لكن فرقت بيننا الأقدار والسبل، وسبحان الذي يسر لنا هذا اللقاء لنتعاون على إظهار الحق وإزهاق الباطل...

صمت الرجل لحظة مصوّبا إليّ نظرة حادة مستفسرة. سألت مرتبكا:

ـ أي حق سيدي وأي باطل؟ في أي نقطة من الدنيا أوجد؟ لماذا بالحبس التعسفي والتعذيب الممض تستنزفون صحتي؟ هل تريدني أبكي وأتضرع كيما ترفعوا أيديكم عن جسمي الآخذ في الضمور والانهدام؟

صاح الرجل ملء حنجرته مقاطعا، محتقن الوجه، خابطا بيده على المنضدة:

ـ عدم التفوه بالسؤال عليك واجب... يا ناهد أقبلي... يا ناهد اقرئي على هذا المعاند المادة العاشرة من فصل العدميات...

تناولت الفتاة سجلا من الرف وتلت: تنص المادة العاشغة من الآنون الداخلي...

فجأة خطف المرعد المزبد السجل وتابع: السؤال من اختصاصات المحقق وصلاحياته، إنه وحده المفوض والمؤهل قانونيا لصوغ السؤال وطرحه. أما المتهم فيجب عليه عدم الخوض في ذلك إلا بطلب من المحقق وترخيصه، على أن هذا الأخير ليس ملزما بتسجيل السؤال ولا بالإجابة عليه، انتهى.

ظل القاضي يدخن غليونه بعصبية، ثم قال:

ـ هلا أتيتني يا الوجدي بنكتة لعلها تعيد إلى التوازن منسوب السكر في دمي؟

صمتُّ وقد غشيني التحير والاضطراب، فصفعتني السكرتيرة منبهة: الأستاذ يسألك!... بصوت خفيض يروم التهدئة، قال الأستاذ:

ـ لا للعنف يا ناهد، لا للعنف. يشهد الله أني حتى في تحقيقاتي مع الصناديد الأشداء، الكارهين لقول الحق، ما عذبت أحدا قط وما ضربت وما بصقت. العنف، هكذا خلقت، يفسد عليّ مزاجي

بل وضوئي وصلاتي...هذا الوغد الجالس أمامي يستعديني عليه ويبخل عليّ بنكتة! لا بأس... أحكي لنفسي واحدة علها تسوي أبخرتي، فما حك جلدك مثل ظفرك. اسمعيها يا ناهد إن شئت قبل أن تذهبي: شيخ من بني خفاجة/ له إذا جنَّ الليلُ حاجة/ كحاجةِ الديكِ إلى الدجاجة...الأهم من هذا أن شيخنا تنافس أصحابه في اتهامه بخلط شعبان برمضان، فاستفحش تهمتهم وأنكرها، وقال إذا كنتم تستحلون اتهامي بشيء فاتهموني بما فيَّ وأُقِرُّه. قالوا: ما هو؟ قال: خلط شعبان برمضان ليس ما أتقنه، بل خلط شوال بذات القعدة. فضحك الصحاب لذلك شهرا ونيف...

هربت ناهد موحوحة متحرجة، فيما القاضي يطبطب على بطنه مقهقها:

- جوزيتَ خيرا يا شيخ، ونُعِّمتْ قبيلةُ بني خفاجة! حسّنتَ مزاجي إذ أضحكتني أضحك الله سنك يوم الحشر، وأعطاك من خيراته جنتين... والآن يا الوجدي، لنرجع من الهزل إلى الجد... أنت معي كمن يصوم عن الكلام شهرا ويفطر على بصلة بل زبلة؛ تقريرك إنشاء سخيف بل لغو. ماذا يهمني، أنا المحقق، من أمر أرض وجفافها، وحبك لأمك وكرهك لزوجها، وغير ذلك من الترهات والحشويات، التي كدتَ تذهب بها إلى إخباري عن يوم ختانك وأول مرة استمنيت أو نِكت امرأة أو بقرة. في كلامك نأيٌ سافر عن البيان والبلاغة اللذين أوصيتك بهما خيرا، فلم تستجب ولم تلبِّ. فوّتَّ على

نفسك فرصة ذهبية في استبدال الكلمات والتعابير السوقية الشائعة بتلك الأخرى العالية القدر، الرفيعة المعنى والذوق، منها على سبيل المثال لا الحصر: الرمس والجدث والحِمام والردى والديجور والديجوج وركب الوعثاء وافرنقع وابذعرّ وتطنبل واخلولق ولو ترما والكرور... مصيبة زبّاء وجريمة نكراء أن نترك قاموسنا العربي العظيم الثراء تعبث به أيادي الإهمال والنسيان، وتنهشه نيوب الجهل والنكران...

توقف الرجل برهة يسترد أنفاسه، مهمهما بنوع من التلذذ: لو ترما، الكرور! ثم أردف بنبرة فظة:

كأني بك لإجازتك في الأدب حامل زور، اختلستها أو ربما اشتريتها في زمان الرداءة هذا وهبوط المستوى. أنت إنما قصدتَ تبريز براءتك من تهمة قتل زوج أمك، وتلميعَ صورتك كإنسان مسالم متخلق. هذي التهمة ودونها أخرى أعلمها، أسقطُها عنك، رغم حوم كل الشبهات حولك، والشرط أن تفيد وتجيد في إخباري بالشاذة والفاذة عن ابن خالتك، الحسين المصمودي، وأسراره وتحركاته وعلاقاته الخفية الخطيرة. طوق نجاتك بين يديك. أريد كل شيء عن ذي الاسم الميداني أَبي البشائر، ودع عنك أي ذكر لفضله عليك وإحسانه إليك، فهذا أعرفه، وهو ما جعل مصالحي تلقي القبض عليك وتضعك رهن الاعتقال النظري. فكرْ في الأمر جيدا وحرر لي فيه تقريرا بليغا هادفا تنجُ بجلدك، فتريحنا منك وتستريح...

رن الهاتف. أمرني المحقق: حلِّ بالشوكولاتا... تناولَ السماعة: احتراماتي سيدي الكولونيل... نعم...أعضاء بارزون في التنظيم الإرهابي الذي تذكرونه اعترفوا وأعطوا معلومات في غاية الإفادة والدقة... نعم... عددهم سبعة... ستة وقّعوا على طلب العفو والتوبة، وواحد مات بسكتة قلبية في كهف ماما غولة... نعم... تقول هي إنها عذبته بعد أن عذبها بعناده ومقاومته... نعم حضرة الكولونيل، الشر بالشر والبادئ أظلم... نعم أنا على الخط أسمع وأطيع...

أشار لي بيده أن أذهب فلبيت. وحين جزتُ السكرتيرة ناهد، بدا لي أن أتحامق قليلا فغمزتها غمزات بليغة، وملء فمي الشوكولاتا. ندت عنها وحوحة خافتة وعيرتني: أنت شِغِّيغ وكمان عديم التّأوى والأدب. قلت لها شُكغا شُكغا، مرفقا شكري هذا ببوسة هوائية، ثم خرجت للقاء حارسي بوجه مرح ونظرات جذلى. قريبا من الباب، كان حارسان يعدان سجينا مقيد اليدين والرجلين للمثول أمام المحقق، لا ريب أنه من الخطرين... هل أصير يوما من هؤلاء إذا ما صمدت في موقف الممانعة وعدم الخنوع والعمالة؟

في ممرات العودة، بنية صادقة في إجراء شيء من التعارف والتواصل، سألت حارسي عن صحته وأحواله المهنية والعائلية، أجابني بكلمة واحدة: بخير. وحين أردت إغناء النقاش ردعني بترجيتي ألا أعرِّضه ورزقَه للخطر. خرست.

وقبل أن يغلق دوني باب زنزانتي أنبأني أن المقرر في برنامج يوم الغد إجراء مقابلة في كرة القدم بين فريقين من السجناء، ونصحني بالاستعداد والخلود المبكر للنوم.

في فراشي كما في أركان فضائي، فتشت وفحصت باحثا عن دخيل آخر أو جثة. تبين لي أني وحدي لا يزاحمني في توحدي آدميّ حيا أو ميتا. لحظت أن بعض القوت ما زال عالقا بصحني، فأتيت عليه. تذكرت غنيمة هذا الصباح المالئة جيوبي، فأخفيت قوارير العطر والصابون تحت وسادتي، ونظفت أسناني بالفرشاة والمعجون كما يلزم، ثم أجريت تمارين تسخينية قبل أن أتمدد مراودا نوما أَجَّلهُ إلى ساعة متأخرة من الليل إدماني على التفكير المتوتر، مرة في ناهد بوسني، ومرات في شخصية المحقق الملتبسة الخبيثة وما غمرني به من ترغيب وترهيب، ومن كلام يروم كسر معنويتي وهمتي وإن بالمخاتلات والتمويهات وشيء لا يستهان به من البلاغة المتكلفة المتفنقة.

[٩]

ماتش المساجين

في الغد عند حمّارة القيظ واشتداد العطش، كان موعدي مع مقابلة كرة القدم بملعب رملي خلف بنايات المركز. الفريقان معا من السجناء، حسبما ذكر وأُعلن من بوق معلق في نافذة. استرعى انتباهي أن فريقي كله، وسموه الأسود الضارية، من الحفاة أو بنعال مطاطية مثلي، وأكثرهم مهزولون ضعاف؛ بينما عناصر الفريق الخصم، وسموه الحُمُر الوحشية، ينتعلون أحذية احترافية، ويشبهون لاعبي الروگبي الشداد الأصحاء. سألت همسا أقرب حلفائي عن سر تلك الفوارق الخارقة، أجابني وهو يتريض: ستفهم. الصمت الآن أحسن.

بعد عمليات تسخينية، نادت على اللاعبين جميعا بصفارتها حَكَمَة ذات زي أسود، وهي بالذات والصفات ماما غولة، السيئة الذكر والصيت، فخاطبتنا بفرنسيتها المحبوبة ولهجة الحاكمة العسكرية التي لا يشق لأوامرها غبار. قال الترجمان:

ـ لعبة كرة القدم عندنا ليست ما علمتم وعهدتم. نحن هنا فيها، كما في كل شيء، نبتكر الجديد ونبدع الأصيل. المقابلة تجري في شوط واحد متصل لا ثانيَ بعده، لا أشواط إضافية، لا استراحة؛ شوط واحد أحد تُحتسب فيه الأهداف، لكن النصر لا يعود إلا للفريق الذي يظل يصبر ويقاوم، ولا يعلن انهزامه ولا ينسحب... والآن توكلوا على الله حتى تكون الغلبة للأقوى.

بعد كلامها الغريب ذاك، أجرت الغولة قرعة افتتاح الماتش، فكان من نصيب فريقي، ثم ذهبت تتفحص الشباكين، وتتحدث مع بعض الحرس الواقفين على خطوط التماس مع كلابهم البوليسية. عندئذ بادر فريق الحُمُر الوحشية إلى إطلاق الأعنة للقذف والسب في حق فريقي بعبارات بذيئة منكرة، مصحوبة بإشارات التهديد والوعيد، ورد بعض صحابي على شرهم بشر أهون، فحدث تراشق بالبصاق واللطمات، ولم يوقفوا خرقهم للأدب الرياضي إلا حين عادت الحَكمة إلينا معلنة بصفارتها بداية المقابلة.

وقتٌ أقدره بنصف ساعة مضى على البداية، والبالون لا يفارق أرجل فريقي، واعجباه! وقتٌ سجلنا خلاله تباعا حصة ثقيلة من أحد عشر هدفا، كان نصيبي منها أربعة، وذلك من دون أن نلقى من الخصوم اعتراضات جدية ولا مقاومة تذكر. حتى حارسهم كان كلما رأى مهاجمينا يزحفون نحو شباكه، تكوم

داخله مبديا ارتباكه ورعبه أو فر خارج خط التماس صارخا مستغيثا، فيما أصحابه يتضاحكون ويقهقهون.

بدءا من الهدف السابع، شعرت أن مؤامرة ما تحاك ضد فريقي، فأنشأتُ أنبههم إلى ذلك عند تسجيل أي هدف إضافي، صار أغلبهم، وهم في غمرة التعانق والتباوس، يتهمونني بالتخاذل والتشاؤم، ويدعون أن فريقنا ينطبق عليه اسمه «الأسود الضارية» عن استحقاق وجدارة. لكنهم مالوا إلى موافقتي الرأي حينها دبّ العياء في أوصالهم واستفحل من شدة التهافت على شباك الخصم، وكثرة الأهداف والتصويبات الخاطئة، فأمسوا يجرجرون أرجلهم داخل مربع الدفاع، لا يتخطونه، وإذا غامر أحدهم خارجه فلكي يمشيَ متنزها، كما لو أنه في ملعب الگولف أو حديقة عمومية.

بعد انصرام الوقت المذكور بدقائق معدودات، تغير وضعنا تماما وساء، بل تطور من سيئ إلى أسوأ، ذلك أن خصومنا ما إن شبعوا من فصل الهزل والمسخرة حتى عقدوا أحزمة الجد وشحذوا أسلحة الهجوم والثأر، فأظهروا واستعرضوا عضلاتهم ولياقتهم البدنية القاهرة، إذ حولوا الملعب إلى ساحة حرب هجومية ضارية، وغارات عنيفة متوالية. ولمّا حشرونا في نصف الملعب ثم في خطنا الدفاعي المهزوز، أجهزوا بالضرب المبرّح على من منا أمسك بقدمه البالون، أو فقط وقف بجواره؛ إجهاز أفضى بالتدريج إلى تساقط

متوعكين بكدمات وكسور وجروح، نُقل فاقدو الوعي منهم إلى المستوصف، وظل آخرون منطرحين على الرمل ينزفون ويئنون، ومنهم ذاك الذي سألته من قبل عن الفوارق الخارقة بين الفريقين. انحنيت عليه مواسيا، قال لي لاهثا: أظنك الآن فهمت... الفريق المتغلب بالعنف والضرب هو من السجناء العملاء التائبين، ومن هؤلاء الاحتياطيين الملتحقين بفريقنا لتعويض جرحانا... ستراهم سالمين معافين عند نهاية لعبة البطش هاته، إن لم يصبك من قبل أذى.

وفعلا شاهدت هـؤلاء، ومعظمهم من ذوي البطون المنتفخة، أبدًا لا يجْرون، بل يمشون الهوينا، يختالون، يتمخترون مدخنين، مترشفين البيرة. وإذا جاءت الكرة إلى قدم أحدهم أو اصطدمت به عرضا، بادر إلى تضييعها أو ـ وهذا في الغالب ـ إلى تمريرها للخصوم بشكل لافتٍ مفضوح؛ وأيضا كان بعضهم يقبعون في جوار مرمى الخصم، حتى إذا قُدمّ لهم البالون على طبق من ذهب، تلاعبوا به حينا ثم أتلفوه بعيدا عن الشباك. هذا فيما صوت مراسل في بوق، لم يكن يُسمع جيدا من قبل، صار يهذي بكلام تُفهم كلاماتُه، لكن والله ليس له أيُّ صلة بوصف المباراة لا من قريب ولا من بعيد.

متصببا عرقا بفعل الحر والانفعال، هرولت نحو الحَكمة، بنتِ الكلب، وقد تهادت على جنبات الملعب، متسكعة مدخنة، متبرجة بمؤخرتها المهولة، كأنما نسيت دورها وفقدت

صفارتها أو سرَطتها. نبهتُها إلى تجاوزات الفريق الخصم وخروقاته العنيفة، فلوت على ربطة عنقي التي نسيتُ التخلص منها، وعاجلتني بضربة رأسية متبوعة بأمر حاد، فهمتُ من فرنسيته أن عليَّ إبعاد نتانتي عنها وتعويضَ حارسنا النائم داخل المرمى، وإلا رفعت ضدي تقريرا شديد اللهجة في إثبات عصياني وزيغي عن قواعد اللعبة.

قصدت للتو شباك فريقي لمحاولة وقف نزيف الإصابات البالغة الثلاثين على أقل تقدير. تأكدت من أن سلفي حارسِ المرمى ما زال على قيد الحياة، ثم تموقعت بين العارضتين متعبئا مستنفرا، فتوفقتُ في حماية شباكي من هدفين خطيرين، ولو بفقدان نعليّ الممزقين، لكن الهدف الثالث، المسجل بقذفة صاروخية على بعد بضعة أمتار فقط، ارتطم معه البالون بوجهي، فهويت على الأرض دائخا مدهدها بعض الوقت، أقدم خلاله لاعبون، متهكمين مستهترين، على إدخال الكرة بضربات بهلوانية من مؤخراتهم أو حجورهم.

غالبت حالي بشق الأنفس، تموقعت من جديد حافيَ القدمين، شاهدت بعض صحابي الصابرين، إذا مرر أحدهم الكرة فإنه يُمنع من المرور ويُسقط. وفي هذه المرة زحف نحوي خصم وقد تمكن بشدة من البالون، توقف أمامي على بعد متر وهددني قائلا: بهذه الإصابة أنيكك، يا دين أمك... تفرست وجهه وصحت: إلياس! أنت والله إلياس... كيف

حالك يا صديقي؟ فرد: بل عباس ابن فرناس. وقام بمراوغة بهلوانية مكنته من تمرير الكرة بين رجليّ لإذلالي، غير أني إنقاذا لماء الوجه، تراميت عليها جنبيا ومنعتها من الهدف، ثم استقمت واقفا لاويا عليها. آنئذ لكمني خصمي لكمة أسقطتني أرضا، وجرفني مع الكرة داخل الشباك، حيث انهال عليَّ بركلات عنيفة أفقدتني في آخر الدوار وعيي.

[١٠]

ليلة تعذيبي الأفظع

زنزانتي المشمسة!

هأنذا مرميٌّ فيها، بعد أن خضعتُ لحصة ضرب وتعذيب أثناء مقابلة كرة القدم المزيفة تيك. تمددت على لحافي أداري جروحي وندوبي، أقتات من بقايا طعام شحيح على مائدتي، أُغرق النظر في ما حل بي وفي احتمالات مآلي. ظللت على تلك الحال حتى أخذتني عيناي إلى نوم مستفز قاهر.

فجأة أيقظني وقع خطوات صادع. هلعت. تراءى لي السجان العملاق موجها نحوي مشعله المتأجج. جذبني من تمددي واقتادني خارج مربعي. أردت من باب المجادلة الحسنة استخباره عن وجهتنا وتنبيهه إلى أن الطقس جميل هذا اليوم، لكني ما إن فهتُ ببضع كلمات حتى سلَّ لسانه المقطوع نصفه وأشار بالنفي إلى أذنيه، تعبيرا عن بكمه وصممه. وحين صار الهواء رطبا عفنا، افترضت أن المكان قد يكون قبوا أُعِدَّ لقضاء

مهام غامضة قذرة. تأكد شعوري حين أقعدني حارس في ركن قبالة نفر من الجالسين على الأرض. عندئذ تلقيت مصعوقا ما لا يُتحمل: مشهد تلك الغولة التي سمعت عن قسوتها وبطشها من قبل، ورأيتها في ملعب كرة القدم رأي العين؛ غولة نصف عارية أراها هذه المرة، تتصبب عرقا، منهمكة في تعذيب رجل معلق من قدميه؛ وحشةً عدوانية تتشدق بألفاظ بذيئة في وجهه المعكوس المتدلي، ألفاظ السب المبرّح والقذف الغليظ، تطعمها ببصقات مخاطية وتمشط جلده بآلة نحاسية حادة تُنهك جسم المعذب النازف دما.

خلفها كان يقف ثلاثة حراس مسلحين في حالة استنفار قصوى. سؤالها المدوي المكرور: أريد، يا ابن الهزازة، أسماء خليتك النائمة... اقترب منها حارس وبث كلمات في أذنها، فأصابتها نوبة غضبية، وصاحت بكلمات أجنبية مفادها:

كلهم من وحل واحد هؤلاء الجبناء! ما إن تأتي إلى الأمور الجدية حتى يُغمى عليهم. أعيدوا هذي الحثالة إلى قفصه، وغدا، وحق الوليات القديسات الصالحات، سأجعله يتكلم...

أشارت إلى العملاق بتنفيذ الأمر، ثم هوت على كرسيها، منهكة لاهثة.

لحظات كالرصاص فرضت عليّ ترقبا مشحونا بالذعر والقلق، سيما وأن أصداء توجعات معذبين وصرخاتهم،

مصحوبة بنباح كلاب، كانت من غرف مجاورة تخرق أذنيّ وآذان كل المنتظرين مثلي؛ وبعد أن خفت، صاحت الغولة المعبأة المستنفرة بصوت خشن حاد: «Au suivant!»؛ كلمة ذكرتني بصنوها في أغنية لجاك بريل، تنادي بها مومسٌ زبناءها المصطفين في قاعة الانتظار؛ أما في فم الغولة فالكلمة تعيِّن المرشح للتعذيب. نعتني حارس بسبابته، ثم سارع إلى تقريب قصعة مني، زاخرة بأخلاط من العصيدة والقطاني الممرقة وقطع نقانق ولحم حيواني ملتبس الهوية. أكلة إبليسية ما أنزل الله بها من سلطان! مهددا، أمرني الرجل بالسجود واحتساء محتوى القصعة من دون إبطاء. وسببه، كما فسر، أن الرايسة لن تقْدم على مباشرتي إلا إذا امتلأ بطني عن آخره. لم يكن لي خيار سوى الإذعان، متجرئا على إتباع لقمتي الأخيرة بسؤال عن طبيعة اللحم الذي فرغت من بلعه. ندت عن الحارسِ ضحكة باهتة وقال:

- خنزير مثلك لا نطعمه إلا قطع الخنزير، مغلاة بماء البحرالمالح. وفي المرة القادمة، إذا عاندت نحشوك بقطع مغلاة ببول سماحة المدير العام ومساعدته العظمى التي تتشرف بالمثول بين يديها...

- لكن الخنزير (أجبت مقاطعا) يحرّمه عليَّ ديني!

- دينك! يلعن دين أمك... لو كان لك دين، ما شفنا هنا وجهك الوسخ. والآن كفى من اللغط! انهض، الرايسة تريدك.

حركت بعض أصابعي داخل حنجرتي رغبة في التقيؤ، لم

أتوفق. عندئذ استقمت واقفا ودنوت من المرأة، حدجتها بنظرة شزراء تحفظ لي ماء وجهي، قلت:

ـ ما تفعلينه، سيدتي، قبيح جدا!

جذبتني إلى حضنها مقهقهة، حشرتني بقوة بين ساعديها الموشومين وصدرها الضخم، كما تفعل أم برضيعها. بلغ ذهولي منتهاه بفعل وضعي الإجباري المحتك احتكاكا شنيعا مقززا بدمامتها القصوى، ونظرتها الحولاء المشتتة، وعرَقها المتصبب ممزوجا بعطرها السيئ الصنع. سمعتها، بنبرة متشكية متأسفة، تهمس في أذنيّ بكلمات مخلّطة اللغة، هارقةً على وجهي دموعا سوداء بفعل كُحلها، ومفادها أن ذاك المعلَّق الذي رأيته رجل شرير، أنانيّ أجلف، يخفي عنها لعبه، ينفرد بحقيقته دونها، بينما هي تحتاج إلى أن يفتح لها صدره، ويقاسمها أسراره، وإلا تسببَ في بطالتها وخراب حياتها. ثم بصوت يصطنع الشهوانية والغنج، تابعت كلامها بفرنسيتها الأثيرة، لكني، هذه المرة، أومأت بعدم الفهم، فأخذت، بقدرة قادر، تستعمل لغة الضاد، ولو بلكنة طبيعية أو مصطنعة.

ـ هذا النهد، شيري، ليس الآخر بالبانسمان، كيف تراه؟ هل يعجبك؟ قل الحقيقة، وهو لك... سترضع منه، تبوسه، لكن إذا عضضته، كما فعل كلب قبلك، أخصيتك بلا رحمة... أتمنى أنك ما زلت تُمني...

بيد حشتْ مقدمة ثديها في فمي، وبأخرى أمسكت عضوي

الحميمي، كما لو أنه قطعة عجين، فحصته وعصرته كأنها تقيسه وتزنه. ندت عني أنات أولتْها على طريقتها الشاذة وبمعيارها الخبيث، فصرّحتْ: لا بأس، لا بأس. وفجأة مالت إلى الصرامة والتهديد وأردفت:

ـ لكن إذا أجريت معي لعبة الإغماء ، وحق حرمة أمي أطعمك خراءك... إذن إلى أي خلية عاملة أو نائمة تنتمي؟

هلعا محتارا أجبت:

ـ لا أنتمي إلى أي واحدة...

ـ كذا! لكنك اعترفت للقّاط الأكاذيب بانخراطك في خلية عاملة.

ـ لا أبدا، إنه يكذب...

ـ لقاط الأكاذيب ويكذب! يخرب بيتك...

ـ أو لربما كذبتُ رغم أنفي، تحت التهديد...

ـ إذن وأنت معي، في حضني، قل لي الحقيقة عارية... في أذني إن أحببت... خليتك، ما هي؟

ـ إيه! الآن تذكرت... في زمن مضى، كنت في فرقة صغيرة تسمي نفسها فرقة اليقظين أو شيئا من هذا القبيل...

ـ خلية يقظة! برافو حبيب قلبي! ونشاطها إيش هو؟

ـ الحضرة، مدام...

ـ الحضرة؟!

ـ صنف من الرقص أو الجذبة، حيث العضو يزجّ بجسمه في سباق محموم نحو الإنهاك أو الغيبة عما سوى المعبود.

ـ كلامك ملغوز! قل لي على إيش يتحدث الأعضاء؟

ـ لا شيء، مدام، خلا ترديد كلمة واحدة لا شريك لها...

ـ والكلمة ما هي؟

ـ الله حي! الله حي! كلمة تصدر بالتنفس من الأعماق، حتى يفنى الذاكرعن المحسوس ويبقى حيّا في ملكوت المذكور...

قاطعتني متذمرة:

ـ الله حي! هل هذا كود؟ كلمة سر؟

ـ لا، حاشا! هي كلمة في توحيد الخالق وذكره، بطرد الغفلة والنسيان وإيقاظ الفكر في حضرة الرحمن.

صاحت وقد تقنبت حبال صوتها واحتقن وجهها واحمرّ:

ـ شرابيا كل هذا! شرابيا!... واسم الزعيم؟

لفقت اسما مجهولا بمحض الصدفة:

موسى بن زليخة، سيدتي، إذا صحت ذاكرتي، لكن الرجل مات منذ زمن بعيد.

أمرتني المستنطقة بالتعرف على أسماء أخذت تتلوها ببطء

وعصبية. ولما لم تحصل مني إلا على لاءات، تارة خافتة وتارة مزمجرة، فجرت في وجهي سخطتها واستفسرتني مستفزة:

ـ وإلياس، هذا الخنثى، رفيق محبسك سابقا...

قاطعتها سائلا:

ـ إلياس بوشامة! كيف هو؟ أين اختفى؟

ـ أنا التي أسأل لا أنت... باطار...

ـ بل أنا ابن شرعي. لا أسمح أن تسبي أمي...

ـ إلياس، كم مرة نمت معه، أقصد نكته؟

اقشعر بدني تذمرا ونفورا. صرخت ملء بلعومي:

ـ أبدا... أبدا...

قوست الغولة حاجبيها الذكوريين وصرخت:

ـ أبدا! ولو ملامسات؟ ولو بوسات؟

ـ أبدا. ديني يحرّم اللوطية.

ـ هذي كلمتك الأخيرة؟

ـ نعم... الأخيرة مدام...

ـ مامزيل يا حمار...

من باب مجاملة جليستي وتليين الجو، لا غير، قلت:

ـ مامزيل! ولا مرة واحدة مامزيل؟

ـ تعني إيه؟

ـ أنتِ ما زلت جميلة وشهية. أتصور أن أحدا اغتصبك ذات مرة أو ضاجعك بالحسنى...

ـ الحياة الخاصة مقدسة، كاناي، مقدسة!

ثم صدعت آمرة: سيجارة...

أشعل الحارس واحدة ووضعها بين شفتيها. من دون أن تنهي احتضانها لي أو تخفف من قبضتها عليّ، شرعت تدخن بنرفزة مفتعلة وتلقي رماد سيجارتها في ثقب أذني. متلطفا نبهتها أن أذني ليست منفضة. وبغتة أبدت تضايقها مني فأطفأت عقبها على صدري ورمتني أمامها، غير عابئة بصرخة توجعي.

تمالكت نفسي وأعصابي. خطر لي، طمعا في الاستفادة من الظروف المخففة واستدرارا لعطفها، أن أتحامق وأتغابى بدعوتها إلى فض نزاعنا بالملاكمة على سُنة اللعبة وقواعدها. تعجبتُ لكونها قبلت مقهقهة، ثم أخبرت بذلك أعوانها، فقهقهوا بدورهم، ونمى الخبر إلى آذان الماثلين للاستنطاق والتعذيب، فندت عن بعضهم ضحكات مخنوقة.

أعلم يقينا أن ميزان القوى ليس لصالحي، إذ الغولة من الوزن الثقيل جدا، وأنا من وزن الذبابة أو البعوضة؛ لكني، ذهنيا، وضعتُ في كفتي إيماني ببراءتي، ووجوبَ انتفاض المظلوم لحقه، وغريزةَ تشبثي بأهداب الحياة الكريمة؛ وعززت الكفة

معنويا بأمثال استنهاضية رافعة، طفقتُ أرددها على مسمع الجميع أثناء حركات تسخينية، من قبيل: إن البعوضةَ تدمي مقلةَ الأسدِ ؛ يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر، وغير ذلك.

نهرتني الغولة أن أوقف ترهاتي، عينت سجينا حكما زودته بصفارة، أشهدت جمهور السجناء الصغير على أنني مقترح المقابلة دونها، وصاحبُ الفكرة بلا منازع. قربني الحكَم وإياها، ذكّرنا بالمحرمات في رياضة الملاكمة من خمش وعض وضرب على أم الرأس وفي العضو التناسلي، ثم صفر إعلانا عن بدء الجولة الأولى بعد أن لففت يديّ بقطع كتّان، وأخذ موافقة الرايسة على ذلك.

مقررا الدفاع عن نفسي والذود عن حرمتي، مددت يديّ معقودتين، ملقيا على غريمتي نظرات ثاقبة مهددة ثم، اقتداء ببطل الملاكمة الأمريكي المسلم محمد علي، شفاه الله من مرض بركينسون وأمدَّ في عمره، أخذت أطبق نهج الزنبور في اللسع الانتهازي الموجع، مقرونا بتقنية الرقص الكثير الحركة والمراوغة، المتجنب لأي تماس أو احتكاك جسدي. وهكذا أضحت ماما غولة تتلقى مني لكمات مؤلمة على وجهها وصدرها وبطنها، تحت موجة تصفيقات من الحرس، متبوعين برهط السجناء. لكن ما إن دنت الجولة من نهايتها حتى أبدت خصيمتي ـ واعجباه! ـ خوفها وهرعت إلى الاحتماء بأعوانها المتبارين في إطلاق ضحكات مدوية متقطعة. أردت إيصال تمردي إلى مداه، زحفتُ نحوها بخطوات ثابتة جريئة، أمرتها

متحديا أن تترك مخبئها وتبرز لي: اخرجي إليّ إن كنت حقا امرأة حديدية! هيا إلى الجولة الفاصلة حتى أهزمك بالكاوو!

بصعوبة متناهية حملَ المرؤوسون رئيستهم إلى الحلبة وأوقفوها على رجليها. أشار الحكَم مصفرا إلى استئناف الجولة، والغولة بادية العياء والانهيار، فاغتنمتها فرصة لتصويب ضربة الرحمة إلى صدغها الأيسر، فهوت مغمى عليها. وبينما الحكَم يعد الأرقام العشرة القانونية لإيقاف الماتش، والحرس يتنافسون مقهقهين في تهويتها ورشها، اقتربتُ من جماعة المتفرجين الرافعين شارة النصر، الهاتفين احتفاءً بي: الزنبور الزنبور/ بالباين هو المنصور...

منتشيا بإنجازي، عانقت المعجبين المهنئين واحدا واحدا، بما فيهم سجينة محجبة، ثم رجعت إلى المهزومة المنطرحة على الأرض، درت حولها دورات منتفخا مختالا كالطاووس، رخّصتُ للحكم أن يعد أرقاما عشرة إضافية أو أكثر، فصاح معترضا: لا ثم لا! القانون هو القانون... وفيما أنا أمهد لانصرافي مظفرا، باغتتني المرأة بالانقضاض عليَّ من الخلف كلبؤة، وصلبتني على الأرض بحركة بهلوانية، لا يحسنها إلا مصارع محترف من الكاتيغوريا الأولى.

الآن فقط أفهم لِمَ كان الأعوان أثناء المقابلة لا يفترون عن إطلاق الضحكات. ماما غولة كانت إنما تهزأ بي وتحوّل عراكي معها إلى أضحوكة ومهزلة. أخطأتُ حين ظننت أن

حصة الملاكمة معها ستجري حسب القواعد المتعارف عليها دوليا؛ وأخطأتُ أكثر لما توهمت أني في مصارعة جسدية، ولو على الطريقة الرومانية أو اليابانية، مع خصم من الجنس النسوي لابد تفضي بي، ولو بجهد جهيد، إلى الغلبة أو في الأسوأ إلى التعادل. لكن، وأنا الآن أرزح تحت ثقل الغولة المتوحشة، أتألم من الاختناق، وأعجز عن المقاومة والحراك، عليّ أن أرتاب جديا في أحكامي الذكورية المسبقة. هل أواسي النفس بالقول: ربَّ نقمة في طيها نعمة، من باب أن انحماقي قد يقنع الغولة بعتَهٍ مّا في عقلي وببهلوليتي، فترأف بي وتعاملني على قد حالي وبعنف أقل؟

كم حمدتُ الله حين فكت الجاثمة عليّ ارتباطها بي وتركتني طريحا، أتنفس واسعا ملء جوفي. أما هي فقد قصدت زاوية وتهاوت على كرسيها أمام منضدة مليئة بالملفات وأجهزة الهاتف والسندوتشات وقنينات النبيذ والبيرة، وأشياء أخرى لم أرها نظرا لوضعي المتمدد الذي أمرني الأعوان بالإبقاء عليه، مع أن هذا لم يمنعني من رمق المنتصرة عليّ وهي تأكل وتشرب بشره شديد، متشدقة بكلمات فرنسية نابية، وبأخرى متقززة مشمئزة من صنف «إيخ» و«أتفو»، كما لو أنها تعرب عن إهانة لحقت بها جراء تكليفها بمعالجة سجين مثلي، هشٍّ المتن والبنية، ضعيف الأهمية والرتبة. وفعلا، سرعان ما أطلقتِ العنان للشهقات والزفرات، وصاحت فائرةً مزبدة بما معناه:

هذي مهانة! هذا ظلم! أُكلف بالحثالات والبهاليل، أكثرهم يغيبون عن وعيهم عند بدء التعذيب، ويختص الجنرال وحاشيته بأباطرة المخدرات ورؤوس الإرهاب والجريمة المنظمة، ولهم في شغلهم ما يشاؤون من خيرات وأموال، وما يشتهون من غلمان وفروج... المساواة بين الرجل والمرأة: mon cul وألف مرة mon cul...

لم تكتف المرأة بتعيير المساواة بين الجنسين ولمزها شفويا، بل ركعت وعرت مؤخرتها الضخمة، وصارت على هيئتها هاته تطوف في أرجاء القاعة، مرددة باللحن كلمات بالعربية خليعة منكرة، عجزت عن عصم أذنيَّ منها، وأنقلها مكرها، عذري في ذلك أن حاكيَ الفحش ليس بفاحش:

المساواة المساواة!

يلعن سُوَّتها المساواة!

المساواة المساواة!

يا عين طيزي على المساواة...

هذا فيما الأعـوان، مصفقين راقصين، يتعقبون الراكعة الراقصة المنشدة بهذه اللازمة: هذي كاينه... ثم أمرني هؤلاء كما أمروا السجناء الآخرين باتباعهم في ما هم عليه وترديد اللازمة نفسها: هذي كاينه. وما كان لأحد من المأمورين أن يستنكر أو يعصى.

هل أنا في سجن اعتقال أم في دار للمجانين والحمقى؟

الظاهر أن الفارق بينهما في هذا المكان أضعف من خيط عنكبوت، والمرور بين الفضاءين لا إشارات ولا شفرات تنظمه وتديره؛ والدليل عليه أن الراكعة الراقصة المنشدة، الكاشفة عن عورتها، ما إن استقامت منهكة عرقانة حتى نعتتني بلسان مخمور، فهب الحارس نحو مربعي لجري إليها ووضعي في قبضتها. عندئذ آليت على نفسي إتعابهم بالجري خلفي، ومتعتها (نفسي) بشتى المراوغات والفلتات البهلوانية. لكن بعون الغولة والعملاق الراجع من إحدى مهامه، توفق المطاردون في إمساكي وربط يديَّ خلف ظهري، ثم وضعوا قنينة بين رجليّ وعادوا إلى مكانهم المعهود.

أمرتني الغولة بلهجة فظة عنيفة:

ـ اجلس عليها...

إنه امتحان فم القنينة! بهذا ناجيت نفسي... مفتعلا عدم الفهم سألت:

ـ أجلس عليها؟ على ماذا؟

صاحت آمرتي بعد أن أفرغت زجاجة خمر في جوفها:

ـ نعم عليها حتى تُدخل فمها في سوتك، يا دين أمك!

ـ لا تسبي أمي، أرجوك... استعيذي بالله ورسوله من كلام الفحش والسلوك الساقط...

كررت المرأة أمرها الخبيث بلهجة التحذير الأخير. أجبت متمالكا أعصابي:

ـ أن أجلس نعم، لكن على كرسي، كما يليق، مامزيل!

أطلق الحراس ضحكات مدوية، شاركهم إياها العملاق بفعل العدوى، وحتى أنا ساهمتُ في تسخين جو الجوقة الضاحكة، لا عن سذاجة بل استخفافا وتهجينا. لكن سرعان ما راجعتُ نفسي وتحليت بالجد والهمة، ثم سألت بصوت جنّبته ما استطعت نبرة الهوان والاستعطاف:

ـ لماذا تفانيكم في الإساءة إليّ؟

لاهية وملء فمها علك تلوكه، غمزت الغولة حارسا، فأجابني ككائن آلي:

ـ لا شيء... هكذا... لقتل الوقت، أو لأن وجهك الوسخ لا يعجب الرايسة... اجلس على القنينة.

صرختُ محتجا:

ـ أبدا... ديني يحرم عليّ ذلك.

ردت عليّ الغولة بسب فادح في دين أمي، لم أسمع مثيله من قبل؛ ثم هرع الأعوان نحوي، والضحك لا يفارقهم، علقوني من رجل واحدة إلى حبل متدل من السقف. هيئتي المنقلبة لا تبشر بأي خير، لكونها تذكر بهيئة كبش مذبوح، مُعدّ للسلخ. اقتربت الغولة مني، سيجارة بين شفتيها وملامحُها صلبة مستنفرة.

أخذت تكوي بتبغها المتقد أخمص قدميّ فردفيّ وظهري وإبطي بالرغم من صبري الأيوبي على أوجاعي، ندت عني صرخات مخنوقة؛ ثم أقدمت الغولة على تفريق فخذيَّ واسعا وحشت بعنف شديد رأس القنينة في سوتي، عنف جعلني هذه المرة أملأ المكان بصرخات ألمٍ حادة متصاعدة، فاهتبلتْها معذبتي فرصة لتضييق الخناق عليّ بأسئلتها المكرورة عن ابن خالتي أبي البشائر وجماعته، وعن انخراطي في ما تسميه الخلية النائمة. وحين لم تحصل مني على شيء يهمها، انحنت على أذني وترجتني متضرعة، وللمرة الأخيرة كما نبهت، أن أقول لها الحقيقة وأمدَّ لها يد المساعدة، بدعوى أنها أرملة وربة أسرة تعولها، وتوسلتْ إليّ أن أرحم طفلتها المقعدة وأولادها، وأُيسّر تلبية حاجاتهم وضمان مستقبلهم. ولما لم تنل منّي ما تريد، كشفت لي عن خنيجرها، وطفقت تفحص أطراف جسمي، متعجبة مستنكرة، وزمجرت بفرنسيتها الرعناء بما مفاده: لا شيء للنقب! هذي النعجة لا لحم لها. جلد رهيف على عظام خربة...

كم هنأت نفسي على نحول هيكلي البليغ وحمدته كثيرًا! وهكذا اكتفت معذبتي بخدش ردفيّ وفخذيّ، ثم أخضعتني للفلقة بضربات عصا على أخمص قدميّ المربوطتين، المبللتين بالماء البارد. وبعد أن أتعبها الضرب وأنهكني، أجرت حصة التدوير والأرجوحة، السيئة الذكر والذكرى حتى عند أشجع المعذبين وأشدهم بأسا، وكمُنت، وأنا على هيئتي الكبشية،

في تدويري عموديا حول قطبي ثم أرجحتي بخبطات عنيفة جنونية، تارة على مؤخرتي وطورا على بطني أو حوصلتي.

لو تعلق الأمر بهدهدتي على نحو متزن متلطف، يذكرني بأحاسيسَ طفولية قديمة، لما أبيت أو تذمرت؛ لكن أن يُجْروا لي ذلك بشكل وحشي، يشرخ جسمي ويدميه عند كل اصطدام بحائط ذي نتوءات متعددة حادة، فلا عقل يبيح هذا الفعل الشنيع ولا شرع.

من آثار مخضي المنهك المضني أن انفصلت القنينة عن سوتي، وأصيبت معدتي المرهقة بأوجاع مروعة تسببت لي في اضطرامات وقلاقل باطنية؛ أما رأسي الذي شق عليه تحمل الدوار والصدمات العنيفة المتتابعة، فقد آل، ولو تدريجيا، إلى التأرجح بين وعي متآكل وفك الارتباط الحسي بحالي وبما حولي. وبالرغم من ذلك، ثابرتْ الجلادة في إشباعي بالركلات المسعورة المتقطعة، مع اتهامي بقساوة قلبي إزاءها، ومتوسلة إليّ بإصرار غريب أن أكف عن تعذيبها وأزودها بما من شأنه إعانتها على حفظ منصبها والرفق بذريتها.

فجأة، أوقفت فعلها بي وثبتتني، ثم ترجتني أن أوقع لها ورقة، مرفقة رجاءها بقبلات آلية، خشنةٍ حادة، كادت تعصف بشفتيَّ وأسناني المتصدعة. في غمار دواري هذيت: لا اعتراض لي على امرأة تقبلني في الفم، لكن ليس من غولة همجية، ذات أنفاس نتنة وأسنان معدنية قاطعة.

لما يئست معذبتي من جدوى طرائقها ومني، أعادتني إلى فلك الأرجوحة بعنف أشرس وتفانٍ أدهى. وفي هذه المرة، أخذت مواد الوجبة الرديئة المتخِمة تحدث في معدتي وأمعائي حالة فوران ودوران مستعرة، فاغتنمتها فرصة لأخذ بعض الثأر من المرأة الماردة الشمطاء، إذ كلما مررت طائشا بحذائها رفعتُ رأسي، وبكل ما بقي لي من طاقة قذفت صفحة وجهها بوابل من القيء الكثيف المتخثر، مؤملا من ذلك أن تُنزل بحشاشة وعيي الضربة القاضية. وفعلا لم تتأخر الغولة المُهانة عن استهداف ظهري بآلة كهربائية صادمة، أتبعتها بلكمة عنيفة على أم رأسي، ثم سمعت رهط السجناء المنتظرين نوبتهم يصرخون رعبا وهلعا، والفتاة تولول وتستغيث حتى الإغماء؛ وسمعت الغولة من عمق انحطامي تستعجل أعوانها في تشميمي البصل ورشي بالماء البارد، وتأمرني أنا بالبقاء على قيد اليقظة. لكن سرعان ما اختلط كل ما حولي وتخبل، وانقلب المكان ومن فيه رأسا على عقب. نظري المتضائل لم يعد يدرك سوى أشكال غائمة، متبخرة، وأخرى شبحية متحركة، ثم ما لبثت جميعها أن انعدمت في هوة مدلهمةٍ سحيقة.

[١١]

هذي أضراري وبعدها حلقوا شعري

في صباح الغد، استيقظت على أثر آلام فظيعة، متعددة، محددة الموضع أو في كل الجسم شائعة. بشق الأنفس، استويت جالسا. لمست ضمادة حول رأسي، ثم أسناني وقد استفحل تداعيها: ثلاثة أنياب لا يربطها بالفكين سوى خيط لحمي رهيف، فبادرت إلى تخليص فمي منها! تذكرت مرآتي المخبوءة تحت لحافي، أخرجتها لمعاينة الأضرار بوجهي وجسمي، فيا لهولها في مدى بصري العاجز المفجوع: رضوض وكدمات في كل الأعضاء والأطراف! جراح وندوب وتورمات! أنف محشو بعقد مخاطية ترغمني على الاستعانة بفمي لطلب الهواء...

مضطرا إلى التبول، بذلت جهدا جهيدا للوقوف على رجليّ وتقصد المرحاض. لاحظت بالمناسبة أن خطوي شبيه بخطو طفل حديث الختان. وبعدما فرغت، ذرعت زنزانتي طولا وعرضا، مرددا بلا انقطاع: معنويتي ليست في الوحل. لابد أن

أتفادى السقوط والوهن. لن ينالوا أبدا من عزتي وأنفتي، ولو كسروا أضلعي وأنفي... هوذا التمرين الذي ألزمت به نفسي مدة بضع دقائق. وحين أنهكني التعب، تهالكتُ على لحافي، سائلا بعناد وصوتٍ ضعيفٍ مكلوم عن اليوم الذي أنا فيه...

في وضعي السريري المتمدد، ماذا يملك العليل مثلي فعله سوى إطالة التفكير في شروط الحال واحتمالات المآل، ثم التعريج، عند عياء الفكر واحتقانه، على استيهامات ومضية وأخرى ثابتة ملحاحة. ضمن الأولى تتجلى لي نساء ونساء، أكثرهن إطلالة وبروزا السكرتيرة ناهد، ذات الاسم على مسمى والصيت المستحق؛ أما الثانية ففيها أراني أحفر بيديّ وبما أوتيت من أدوات خندقَ هروبي من سجنيَ المدمِّر هذا إلى قاعدة اختطافي، حيث أختفي زمنا عن الأنظار وأرمم جسمي ونفسي في ظل رعاية أمي المحِبة الرؤوم. اعترضتني في طريق خلاصي مثبطات وعوائق، لكن كنت أتوفق في مراوغتها أو القفز عليها، تحدوني إرادتي الصلبة ورغبتي العارمة في إنقاذ حياتي من حلبة العبث القاتل ومخالب الفناء الداهم.

تتكدس الاستيهامات وتتناسل، ثم بغتةً ينقطع سيلها ويجف بفعل هبوطي الاضطراري إلى مكان لا أغمضَ منه ولا أفسد، كالذي أنا فيه، واقعا تحت وطأة أباطرته وزبانيته، ممن قابلت بعضهم ولم أر بعضهم الآخرين.

كانت لي من قبل جلسات إدمانية مع الاستيهام والتفكير.

وفي كل مرة، تنصرم حبالها إما على إثر صدمات العجز والانسحاق، يتلقاها وعيي وجوارحي، وإما جراء اقتحام مربعي من طرف حارس يأتيني بقوت أو سجان يقودني إلى قاعات الاستنطاق والتعذيب.

في هذه المرة كان العنصر المشوش الصارم أصداء هرج ومرج تناهت إليّ من ممرات الزنازن المجاورة، وتبينتُ سببها لما هجم عليّ ثلاثة رجال شداد، واحد حامل آلة رش غباري، باشر بها زنزانتي طولا وعرضا وأرضا وسقفا، ثم وجَّهها إلى جسمي مركّزا على رأسي وإبطي وعانتي. سألتُ ما الخبر، قال أحدهم إنها، بأمر من الدوائر العليا، حملة إبادة الحشرات المتكاثرة في هذا الفصل الصيفي بجنبات المركز كلها، وأردف أن الأمر من الدوائر ذاتها أن تُحلق رؤوس كل السجناء ولحيهم، وتُحشى شعورهم في أكياس معدة للحرق. نصحني الحلاق أن أمد له رأسي من دون احتجاج صارخ أدّى بغيري إلى حلق حواجبهم وأنصاف لحيهم وشواربهم، عقابا لهم على عنادهم وتعصبهم. أقعدني على إسكملة تحت حراسة صاحبيه، وأخذ يُعمل مقصا ضخما في حش الشعر الطويل حيثما وجده، كأنه يحصد بالمنجل السنابل أو الأعشاب الطفيلية؛ وبعدها شرع في تبليل رأسي وصدغيّ وذقني بالماء الراغي، أعقبه بتمرير موسى مستأصلا ما تبقى من الشعر كله. وقبل أن ينصرف الرجال إلى متابعة عملهم، خاطبني أحدهم: ها قد خلصناك من القمل والبعوض والصراصير، فكن من الشاكرين.

هأنذا أمام مرآتي، وقد سحبتها من مخبئها، أنظر إلى وجهي وأكاد لا أتعرف عليه. كل ما كان الشعر يخفيه من ندوب وتورمات وبقع برص تعرى، وكل انفراج للشفتين بفعل التبسم أو التألم يكشف عن غياب معظم أسناني الأمامية. فاللهمَّ عوّضني عن شعري المحروق بشعر أوفر وأزكى، وارزقني لحية أخرى آنس بها وأسهر معها في ليالي أرقي وتجهدي. أما أعداؤك، يا ألله، وأعداء البشر المستضعفين في هذا المجمّع فأرسل عليهم الطوفان والقمل والضفادع والدم، كما أرسلتها آياتٍ مفصلات على آل فرعون المجرمين الطغاة.

في الغد، كسر حارس نومي بدعوة ضاجة إلى إفطار جماعي. رافقته مترنحا إلى قاعة السجناء المعهودة. حين رأيتهم جميعا حليقي اللحي والـرؤوس، تذكرت أني على شاكلتهم منذ الأمس. صار التعرف على الوجوه صعبا والكلام معهم أصعب، خصوصا على من هو مثلي لا صديق له بينهم. في الطاولة التي عُينت لي لحظت سجينين بلا حاجبين، أدرت نظري فلمحت آخرين أمثالهم، فطنت إلى أنهم عوقبوا بذلك على مقاومتهم لعملية الحلق واستنكارهم.

في ظل سيادة التوجس والحذر بين المجتمعين حول الطاولات، نظرا لاختلاط السجناء المزيفين بالحقيقيين، كانت تصويتات الملاعق والاحتساء والنحنحات هي الغالبة والمهوِّنة من فشو صمت الألسنة، علاوة على حركات بالأيدي مريبة في جنبات الطاولات أو تحتها.

أخذت، بعد الإتيان على شربتي وقهوتي، أسترق النظر إلى جلسائي، راغبا في تمييز السجين الحق عن السجين المزور. بعضهم كانوا مصابين مثلي بالزكام والسيلان الأنفي والهزال، وبعضهم يبدون معافين أصحاء، ومع أن آلة حلق الرؤوس واللحى لم تخطئ أحدا من الفئتين، فإن فئة هؤلاء غدوا يشبهون عناصر سكين هاد الصناديد الصعاليك؛ أما أولئك فقد انكشفت كل عيوب وأعطاب وجوههم وجماجمهم. أين تنتهي حدود الحقيقة وتبدأ متاهات الخدعة والتمويه؟ سؤال غلى في ذهني واعتاص، سيما حين انتفض واحد من الفئة الثانية واعتلى طاولة مثيرا انتباه البعض، ثم أنزل سرواله صائحا وقد التفت إليه الجمع مدهوشين أو مقهقهين:

حلقوا لحيتي ورأسي، لكن طز عليهم. ذكوريتي ما زالت ثابتة وفحولتي قائمة. ومن يشك في حجتي فلينظر إلى أيري المنتصب بين يديّ...

هرع الحراس إلى الرجل، لاحقوه وهو يقفز من طاولة إلى أخرى ثم يجري بين الكراسي مهددا مراوغا، كبهلوان ماهر عفريت. عمت فوضى عارمة وجلبة، وتعالت أصوات هاتفة: النصر لمن حجته بين يديه! النصر النصر النصر... وأخرى: يعيش فحل الفحول! يعيش يعيش يعيش...

[١٢]

مع المحقق وكاتبته الجديدة

اغتنمت حالة الانفلات الأمني تلك، فتسللت من باب المطبخ إلى جناح الإدارة فمكتب المحقق. تذرعت للحارس بخبر خطير أريد نقله إلى سعادة القاضي عاجلا. عارضتُ صدوده بتحذيره من عاقبة موقفه وسوء التبعات. دخل يستشير السكرتيرة، فتبعتُه خلسة وصحت ملء فمي بما قلته للحارس، فيما المرأة تهددني بالعقاب الشديد وتأمر بإخراجي. وفجأة هدأت جراء مكالمة هاتفية قالت بعدها للحارس اذهب ولي أنا اقعد.

قعدت قبالة المرأة المتفهمة الآمرة، أستحلي نجاح اقتحامي وانتزاع مقابلة مع المحقق من دون موعد. قعدت أسترق النظر إلى السكرتيرة الجديدة المنهمكة في عملها بين الحاسوب والملفات وأشياء أخرى. إنها يقينا غير سالفتها ناهد بوسني والأخرى التي اسمها جمانة. وسيمة متجردة، عينان نجلاوان فاتران، شعرها أسودُ حريري، لباسها عصري محتشم، ماكياجها

خفيف ناعم، قسمات وجهها لا تشي بأي قساوة أو تعهر؛ وكلها شارات تبعثني، كما أحس، على نوع من الطمأنينة والانشراح، حتى إشعار آخر.

حاجتي إلى مكالمتها قويت، ولو أن انشغالها بالهاتف كان يعيقني. اغتنمت لحظة انقطاعها إلى الرقن، فسألتها: حضرتك من أي بلد؟ لم تجبني بل سألتني عن موضوع الزيارة. قلت متغابيا:

ـ موضوع الزيارة؟ إيـه... موضوع الزيارة! الآن في حضرتك، مامزيل، الموضوع هجرني وغاب... لربّما يرجع إليّ بعد حين.

ـ تريد الإخبار عن أحداث المطعم؟ سعادة القاضي يعلمها بالتفصيل...

لم أجرؤ على مساءلتها إن كانت لسعادته كاميرا خفية تطلعه عبر شاشة خاصة عما يحدث يوميا في المطعم والملعب وساحة الرياضة والممرات والزنازن وكل فضاءات المركّب الأخرى؛ ولعله يعرف الشاذة والفاذة عن حركاتي وسكناتي وكل الوقائع أثناء إقامتي في مستودع الصدمة والترويع وفي زنزانتي الأولى ثم الثانية؛ ويعلم كذلك ما قاسيته من سوء معاملة وتعنيف في مقابلة كرة القدم الزائفة، ومن صنوف التعذيب في قبو الغولة، دمرها الله في الدنيا قبل الآخرة.

كون المحقق علم أحداث المطعم إبان وقوعها: هذي معلومة نافعة نفيسة فلتت سهوا أو ربما قصدا من فم الحسناء الوديعة، التي أتشرف بمجالستها لوقت ليته يطول ويتجدد حتى أستمتع، ولو عن بعد، بأنوثتها، وآنسُ بصوتها العندليبي الرخيم.

أتاني صوتها هذا قائلا:

ـ هل عاد إليك؟

ـ ماذا؟ صوابي؟ عقلي؟

ـ بل الموضوع...

حككت رأسي الحليق مفكرا، قلت:

ـ ليس بعد... إنما ريثما يعود، هلا تعارفنا ودردشنا قليلا قليلا... أرجوك... أبوس يدك...

أزاحت شعرها عن نصف وجهها وغمرتني بنظرة مشفقة حنون، قالت:

ـ أنا أعرف عنك كل شيء. وأنت لن تعرف عني إلا ما يسمح به حضرة القاضي...

افترضت أن تمنُّعها قد يفسره كون حضرته يشاهد مقابلتي معها على إحدى شاشاته الخفية. لذا أحجمتُ عن اللج والإلحاح. بعيدئذ انبعث صوته من آلة على المنضدة آمرا

بإدخالي. هبّت المأمورة نحوي مفتشة أطرافي، فأسديت لها يد المساعدة إذ تعريت إلا من مئزري، وتلقيت شاكرا ممتنا من مرشتها زخات عطرية شملت حتى رأسي ووجهي، ثم استعجلتني في ارتداء بذلتي وقادتني إلى ركن معتم من مكتب المحقق المنشغل بمكالمة هاتفية. دعتني إلى الجلوس والهدوء قبل أن تُحَيِّيَ رئيسها وتنسحب.

المحقق منكب على مهاتفات شتى، فيما ذهني يتأرجح بين محاولة التقاط بعض معانيها والتفكير في السكرتيرة الجميلة اللطيفة الليبية، التي توسّمتُ فيها الخير وبصيصَ أمل في ليل هذا المجمّع البهيم، وارتاحَ إليها حدسي وفؤادي.

من كلام المحقق المتقطع على الهاتف:

نعم معالي المدير العام... حقا ما تقولون. ما قام به السجين ٦٧ في المطعم فحش ومنكر. تباهى بفحولته أمام الملأ وتبرج... لا بد يُعاقب ويُزجر، لكن ليس بالخصي الذي عبرت لمعاليكم من قبل عن تحفظاتي عليه: سوء التبعات وحدوث ما ليس في الحسبان... صحيح... الخصيان وجدوا على مر العصور... صحيح... عمليات الإخصاء الفاشلة حالات شاذة، والشاذ لا يقاس عليه... إذن لكم في هذا الأمر اليد العليا وواسع النظر... وهو كذلك... تحياتي واحتراماتي...

بعد انتهاء المكالمة (ولا أدري هل هي فعلية أم مفتعلة)، ظل المحقق يناجي نفسه بكلمات وصلني منها: سلفي في

المنصب، القاضي فيصل الحاوي، شرّع عقوبة الإخصاء، وبرر إجراءها بسوابق لا يشفع لها إلا حصولها بالتحكم والقسر، أسندها إلى حجج رأى أنها قطعية، وهي عندي ظنية. تقليد إخصاء خدم الحريم وعينة من الرقيق يعود إلى عهد ولّى وأدبر، وإقدام أتراك الجيش العباسي وعبيده على خصْيِ خليفة يوم وليلة، ابن المعتز، حجة عليهم يوم الحساب، لا لهم... وفي الجملة إني لست على مذهب ذلك القاضي ولا في ركابه أسير...

قطع الرجل مناجاته المسموعة، سألني بغتة من دون أن ينظر إليّ:

ـ وأنت، ما رأيك في عقوبة الخصي؟

بادرت بالرد:

ـ باطلة عقلا وشرعا. بدعة تنتهك حقوق الإنسان، والآمر بها مثواه النار وبئسَ المصير!

ـ أحسنت! أنت إذن على مذهبي توافقني الرأي وتقف موقفي... يا نعيمة، أقبلي...

قدمت المنادى عليها حاملة ماعون غسل، شرعت تصب ماء من إبريق على يديْ رئيسها، وهو يفركهما بصابون فوق طست. وحين انتهى نشفتهما بفوطة، وناولته قارورة أخذ يرش بها رقبته وصلعته وقفاه، ثم انسحبت بماعونها عجلى متعثرة.

انتبه المحقق إلـيّ مستغربا وجـودي، أمرني بالتقدم والجلوس، صاح:

ـ عجبا! حمودة ذا؟! مش معقول! حمودة نيو لوك! سبحان مبدل الأحوالِ والوجوه! ماذا أتى بك إلى هنا؟ لكن بدءًا كيف كانت مباراة كرة القدم الأخيرة في ملعب المركز؟ قيل إن نجمك سطع فيها وتألق!

أجبت بنبرة ساخرة غير خفية:

ـ فريقي، حضرة القاضي، تمتع بلياقة بدنية عالية، سجل ما شاء الله من الأهداف بتمريرات ذكية وقذفات صاروخية. لكننا في آخر المطاف هُزمنا بالضربة القاضية... تمزق نعلاي وأُشبعت تعنيفا وضربا. وهأنذا أمثل بين يديك بجسم منهك وقدمين حافيتين، ولا غالب إلا الله...

مبديا أسفه، أجاب:

ـ حذاء النايك الرفيع سيصلك مني هدية، تليه أقراص فيتامين تنعشك وتقويك. يا نعيمة عودي... شاي أم قهوة؟

أومأتُ بالإعراض عنهما معا. حضرت المدعوة خفيفة الوطء، مبتسمة. نعتها المحقق وقال:

ـ نعيمة ذي، والله نِعمة! لا لكنةَ في لسانها ولا تحريف في تخريجها الحروف... عرفتَ من قبل، يا حمودة، سكرتيرتين، واحدة وعرة شرسة، وأخرى وديعة سلِسة. وفي الفتاة ذي

وجدتُ أخيرا واسطة العقد والوسط المبتغى... الوسطية عقيدتي ومذهبي، لا إفراطَ ولا تفريط، لا تشددَ ولا وهن، لا تهور ولا جبن، لا تبذير ولا بخل، ثم ـ والكلام، حمودة، يعنيك ـ لا ثرثرة ولا صمت...

أوقف المحقق سيل لغوه، وانشغل بإعداد غليونه. استرقت النظر إلى الفتاة، فإذا بأهدابها السبلاء تنطبق، وبخديها الأسيلين يحمران من فرط الحرج أو الحياء. لم يثنني عن الاستمتاع باستراق النظر إلى نعيمة إلا عودة الرجل مدخنا إلى إغداق الجمل وتفجيرها في اتجاهات شتى، لا يعلم أحد سواه خيطها الرابط ومنطقها اللاحم:

إيه... لا يلزم أن أنسى: الفتاة ذي وأنت، حمودة، مواطنان شقيقان من المغرب الأقصى الشقيق، نشيدها الوطني لو طلبته منها لأدته حالا بالتحية العسكرية وحماس منقطع النظير؛ فتاة تحفظ عن ظهر قلب أسماء مئات النجوم في دنيا الرقص والغناء، عربيا وعالميا، لكنها، وهي المؤمنة، لا تعلق في عنقها صورهم ولا أيَّ تمائم. الوقت يزاحمنا وإلا لأذنت لها بسرد سيَر عينة منهم...

توقف المحقق لحظة يملأ غليونه ثم استأنف هذره مدخنا:

ـ ونعيمة ذات حس وطني متوهج، مستنفر. كلما ناوشتها بالقول: مصر أم الدنيا إلا وردت عليّ توّا: والمغرب أبوها، فلا أحاججها ولا أشاكسها. أنا اليوم مصري بالعرض، عربي

قومي بالجوهر. مصر كانت أم الدنيا أيام زمان. لكن اليوم، يا خسارة! الأرض اللي صارت تعج بالناس الغلبانين والبطالين والحرافيش، تكون أم الدنيا! الأرض اللي تطلّع جماعات التكفير والهجرة وإخوان كذا وإخوان كيت ودولة على قدها ما شاء الله عليها، تكون أم الدنيا! البلد اللي عجز عن أن يكون في التنمية الشاملة القاطرة وفي الديمقراطية المثال والقدوة، نقول عنه أم الدنيا! لا لا، أحسن لي أسكت... يكفي أقول مصر لم أعد أدخلها آمنا... أرجع إلى المغرب الشقيق، بلد ـ سبحان المنشئ المكور! ـ يوجد على مرمى مدفع من جنوب أوروبا، وجذوره في إفريقيا؛ بلد الأصالة والمعاصرة، أرض توافق الأضداد وتناغم المغرَّبات... هذي الآنسة، مثلا، تنطق بالشهادتين، تصلي الصلوات الخمس، ولو بجمعها وتأخيرها، تصوم رمضان موزعا على مدار السنة بسبب الضرورة المهنية والعادة الشهرية، لا تزكي لقصر يدها، ولم تحجَّ لانتفاء الاستطاعة. لكن نعيمة، مع ذلك كله، لم تجد حرجا ولا غضاضة في طلب نصيبها من الدنيا، فاشتغلت من قبل في بعض وكالات الإشهار، ورقصت في أعراس وحفلات، وزينت سيرتها الذاتية بتربعها على عرش ملكة جمال حَبّ الملوك بمدينة... ذكريني باسمها، يا نعيمة...

لربما كانت المسؤولة تفور، مثلي، تضايقا وامتعاضا، أجابت:

ـ مدينة صفرو، حضرة القاضي، توجد، حسبما أتذكره في مدار فاس من جهة الجنوب ـ الشرقي.

ـ آه! صَفرو ـ بفتح الصاد لا بكسره ـ صدقتِ يا ميس صَفرو! الآن، قبل أن تعودي إلى شغلك، اسمحي لابن بلدك بوضع بوسة على حنكك، تهنئةً منه على فوزك بتاج حب الملوك. قم يا محظوظ بما أحلّله لك. القبلة الأخوية بين ذكور القطر الواحد وإناثه، وهم أشقاء، سُنة محمودة، لم ينزل نص بتحريمها... قم وبُسها، يا بختك! لكن إياك ثم إياك أن تزيغ وتغمس خارجَ الخد.

قمت لِما أُمرت به. وضعت على حنك الفاتنة المرتبكة قبلة خفيفة خاطفة، تجنبا لجنابة جبرية لا سلطان لي عليها. وما إن خرجت الأخت المغربية عجلى متعثرة حتى بادر المحقق إلى تسآلي:

ـ هل كل شيء بخير؟ عرفتُ أثناء أداء مهماتي رجالا سريعي الدمع والإمناء. تُرى هل تكون منهم؟ هل أطمئن؟ أم تتلو عليّ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ ﴾ [المائدة: ١٠١]؟ خلاص فهمت...

أجبت بلهجة لا تخلو من حدة وحزم:

ـ من هذي الجهة اطمئن، حضرة القاضي. ما تسللتُ إلى هنا لسماع كلام عن الخصي وموقفك منه، وعن مصر هل هي

أم الدنيا وعن المغربية وخصالها الحميدة... بل جئتك في شأن واحد لا شريك له، وقد طفح الكيل معه وبلغ صبري مداه. إنه المتعلق بالمسماة الغولة أو ماما غولة. هذي المتوحشة خصّتني مرة أولى بمعاملة سيئة مهينة، لكني صبرت وتجلدت؛ أما في المرة الثانية فقد عذبتني على نحو وحشي فظيع، وهأنذا أرفع شكايتي بها إليك، حضرة القاضي، وأسجلها لديك على ضوء فقدي لأسناني الأمامية وآثار الجراح والرضوض على أطراف جسمي...

حك القاضي صلعته وقفاه، نفث دخانه مرات كأنه متحرج من أفعال معذبتي أو برِمٌ بكلامي. حدجته بنظرة مستفسرة، قال:

ـ هل صدرك حر؟ إذن فهو للسر قبر. أسرُّ إليك بموقفي من هذي الغولة، وهو صنو موقفي من الخصي: الإعراض والنفي. كان يجب معاقبتها ليس على ما فعلته بك فحسب، وإنما أيضا لكونها في الدمامة كما في السلوك الذميم لا تُبارى، وفي الترويع والعنف لا يُشق لها غبار. لكن ما ذنبي وحيلتي وقد أعطاها شيكا على بياض العم سام. اليانكيز مكنوها من ضوء أخضر جدا، بل لا أخضر منه ولا أينع. وإن استعجمتَ مفهوميْ اليانكيز والعم سام، فاعلم أنهما يعنيان الأمركان...

رن الهاتف. رد مستنطقي فيه بكلمات متقطعة قصار، معظمها في الموافقة والتأييد. مسح بمنديل عرق جبهته، قال:

ـ عد بنا إلى ما كنا فيه... وغلاوة نعيمة عندي وعندك، لك خيارات ثلاثة، لا رابع لها، يا حمودة: إما تفتح للغولة صدرك وتكشف عن أسرار تخص ابن خالتك أبي البشائر؛ وإما عوضا عنها تفعل الشيء نفسه هنا معي؛ وإما تدأب على تحدي الغولة وتتحامق في حضرتها، كما فعلت من قبل، فتتخيلها هذي المرة بقرة، وتطوفَ حولها مرددا كلمات مستنفرة مهددة، من صنف: أنا ثور ابنُ ثور، على الغولة إني أثور... الخيار الأول سليم، والثاني أسلم، كلاهما يوصلك إلى بر النجاة؛ فيما الثالث أراه غيرَ آمن ولا مضمون العواقب.

رماني الرجل بنظرة محققة فاحصة. شددت لأمري حزامه، قلت:

ـ ما أعلمه، سيدي القاضي، عن ابن خالتي هو عين ما قررته في مقالي المرفوع إلى مقامك العالي، لا زيادة لي فيه ولا بهتان، إلا أن يحملني التعذيب على البوح بأشياء من وحي الشيطان.

قاطعني المحقق مغمضَ العينين، هاتفا:

ـ الله الله على الكلام المرصّع بالسجع المسكوك والبيان المسبوك! دعني أستحليه، لا آبه إلى موطن الزلفى فيه، ولا إلى بعده عن الحق ومناحيه...

بدوري قلت مقاطعا:

ـ سيدي، إن كان كلامي كما حكمت، فالسجع فيه آتٍ عفو

الخاطر، لا بالتكلف والإرغام. أما التزلف فلم أقصده البتة، وأما الحق فلم أقل سواه.

حدّق المحقق فيَّ من خلف نظارته بعينين جاحظتين لوامتين، وقال مبرطما:

ـ كل من عرفتهم من المعتقلين، ماضيا وحاضرا، يكررون الأسطوانة المشروخة ذاتها؛ كلهم، ولو كانوا من أصحاب السوابق، يدّعون قولَ الحق صافيا لا غبار عليه، والبراءةَ الطاهرة من التهم اللاصقة بهم؛ كلهم يتظاهرون كما ولدتهم أمهاتهم: بيضُ الأفعال والنوايا والسرائر. وبعد التحقيق المثابر الصبور معهم، بالتي هي أحسن أو ـ عند الضرورة الماسة ـ بالتي هي أقسى وأوعر، ينتهون إلى الإقرار بخطاياهم، طالبين لقاء ذلك أحكاما مخففة بل، كما عند معظمهم، الاندماج في الأسلاك الأمنية والمصالح المخابراتية. وغالبا ما تُلبى طلباتهم بعد نجاحهم في اختبارات نفسية وأخرى طبية. فإن كنتَ تؤثر الانتماء إلى هذه الفئة الناجية، فاسعَ إليها كما يحسن وينبغي، ولا ترجع إليّ هنا إلا وقد أخذتَ بالحل الأصح الأصوب، فتريحنا وتريح نفسك... والآن عد أدراجك، وتدبر أمرك وفكر. لكن قبل التفكير والتدبر، تخلص من أمثال تضر وضعك أو لا تنفع، من صنف: أنفك منك ولو كان أجدع، ويدك منك ولو كانت جذماء؛ بل دع عنك أحاديث نبوية مفصولة عن مناطها، أشهرها: «انصر أخاك ظالما كان أو مظلوما... الحديث»، ومن

ستر مسلما ستره الله يوم القيامة، إلخ. وحتى الآيات القرآنية، لا تقربها في مقامك، فإنها كلها حجج على من تتسترُ عليه، ابن خالتك، الراكبِ هواه، المغرقِ في القبض دون البسط، وفي التطرف والتعصب دون وسطية الإسلام السمح؛ المطوّحِ عرض الحائط بنهي الله ورسوله عن الغلو في الدين، المتبعِ حذو النعل بالنعل سبيل الخوارج والصابئة والبرغواطيين، وغيرهم من أطياف الجانحين المتشددين. هذا من باب النصح، فلا تكن من الغافلين أوالجاحدين. وعليه إياك ثم إياك من النطق كفرا بعدما صَمَتَّ دهرا، أو أن تشربَ بولا بعد أن صُمْتَ حولا...

مغالبا ضجري من سماع هذر المحقق المهيمن عليّ، قاطعته مستأذنا:

- على ذكر البول، سيدي القاضي...

- هل لك في البول مقال؟

- لا! فقط لي حاجة، حاشاك، إلى التبول. أخاف نفاد صبري عليه مذ مثلت بين يديك، فأبول رغما عنيّ في سروالي، وهذا لا يليق بهذا المقام العالي...

- قف إذن وازهق. لا تنس أن الغولة، لو عاندتَ وتكتَّمت، قادرة على أن تسوي بنانك...

نعتُّ السماء بسبابتي، قلت مقاطعا قبل أن أنسحب:

ـ وحدَه الله تعالى خلقني وسوّى بناني...

تنمر المحقق مكشرا عن نيوبه، صاح فيما هاتفه المحمول يرن:

ـ الغولة ستسوي بنانك بالأرض. ازهق...

في مكتب السكرتيرة، دست مامزيل نعيمة وريقة في جيبي، ثم سلمتني خلف بابها إلى الحارس الذي بادر إلى تقييد معصمي بمعصمه، مرعدا مزبدا، مقسما بالأيمان المغلظة أن لا مشي لي معه مستقبلا إلا كما فعل. لم أعبأ بلغطه، إذ انصرفت بيدي الطليقة إلى تحسس الوريقة في جيبي، متشوقا إلى افتضاضها وقراءتها ما إن أخلو إلى نفسي.

[١٣]

الرسالة النبراس ومشاهدتي لإعدامات

في زنزانتي، فتّشت الأرض والسقف وكل الزوايا بحثا عن عدسة كاميرا خفية أو لقاطٍ صوتيّ مدسوس، فقطعت الشك باليقين أن لا شيء من كل هذا يبدو للعين المجردة أو لليد اللماسة. ورغم ذلك ارتأيت أن أتدثر كليا بإزاري الشفيف وأطلع متكوما على الوريقة الرهيفة وما فيها.

فوا عجباه ويا نعمتاه مما قرأت!

«عزيزي حمودة،

شممت فيك رائحة بلادي ممزوجة ببراءتك من تهم تتعداك ولا قِبل لك بها... لا وقتَ ولا حاجة لأحكي لك قصتي. قصتك أولى بالذكر، لأنها الأمضّ والأدمى. خذ حِذْرك! كل استماتة منك في المقاومة والصبر على التعذيب ترشحك لما يريدون: أن تصير عميلا مزدوجا لاختراق جماعات مصنفة أمريكيا وعند وكالات مخابرات غربية في قوائم التطرف والإرهاب. كل خبراء

المجمّع ورؤوسِه المتعددي الجنسيات يرومون خلق العميل المتعاون وبرمجته، ثم اغتياله بسلاح القتلة الأجراء لو هو زاغ عن السكة وتمرد. لا يهم أن تجهر لهم بما تسره وتتستر عليه، فهذا مجرد معبر لدخولك بيت الطاعة، وأدائِك مُؤمِنا مسيّرا الخدمات محدّدة مرسومة، تورطك في دوامة ضاغطة مكبِّلة، لا منجاة منها إلا بالموت. كاتبة هذي السطور، بالمعاناة والتجربة، تعي ما تقول. دخلتُ في الخدمة مضطرة ـ قبح الله العوز والبطالة! ـ ولا حيلة لي في الخروج منها حية...

عزيزي حمودة،

إذا شق عليك أن تصير ما يبغون، خديم أعتابهم وخططهم الجهنمية، عليك بمراودة حل قد ينجيك لو أتقنته: أن تتحامق وتتمارض. دوّخْ مستنطقيك بأعتى كلام الحمقى والمجانين، هدد معذبيك بسعالك وعدوى مرضك، لعل وعسى أن ييأسوا منك، فيعيدوك إلى موطنك أو قريبا منه، مخدرا بأفيون، تصحو منه وأنت مراقب بدمليج إلكتروني ومستهدف برصاصة في الرأس، تصيبك ولا تخطئ، إذا ما رويت قصتك من حولك أو رفعت في شأنها شكاية ضد مجهول.

الوقت ضيق والخطر داهم!

إياك أن تبحث عني أو تسأل. وإن قُدّر لك أن تمثل أمام المحقق مجددا وكنتُ ما زلت في خدمته، فتحمّلني صابرا صامتا إذا اضطررتُ إلى نهرك وتعنيفك.

بطاقتي إليك بمثابة حياتي في ذمتك. والله لو وقعتْ بين أيديهم لمزقوني إِرَبًا إربًا. فاحفظْها حيث لا عين، أو أتلفْها تماما. دعائي لك بالخلاص وحسن المنقلب...».

دعوت للمرسلة الحنون، بنت بلدي، بخير دعاء. قمت أبحث لبطاقتها عن مكمن آمنٍ مطمور. وفيما أنا أعاين وأقيس، نادى عليّ حارس لاستلام وجبتي. قطّعت البطاقة جزيئات وحشوتها في لهاتي وتحت لساني، ثم ما إن تلقيت حسائي حتى أفرغته في معدتي مزدانا بما زخر به فمي.

بطاقتك الآن، يا نعيمة، نعمة!

نعمة منكِ استبطنتُها، فلا تخشيْ ظهورها وذيوعها، واقتتُّ بها حتى أتقوى على هدي إشاراتها وتنبيهاتها وأتنور.

المتاهة التي أنا غائصٌ فيها، دائخٌ بين شعابها ومناكبها، بدأتْ بعض خيوطها الرئيسة تنجلي لفهمي، بفضل البطاقة النعمة، الثاوية روحا ومعنى بين أضلعي وخلايا دماغي.

وسوسة عبرت ذهني مرة واحدة، تسم البطاقة بالمغرِرة تارة، وبالمفخَّخة تارة. وسوسة شيطانية، ولاشك، سارعتُ إلى شطبها بل إبادتها في تصاعد إيماني بالتي خاطرت بمنصبها وربما بنفسها لمد يد العون إليّ، وبدتْ لي سلوكًا وكتابةً قوية الصدق، قمينة بالثقة والرهان القيِّم.

هذا هـذا، وإن ظهـر عكسـه، فلا أمـل لي بعده في الخلق

ولا شيءَ آخر أخسره سوى حياةٍ هباء هي والموت على حد سواء.

نعيمة في باطني وكياني، هي النبراس إذن والسند؛ والسبيل إلى خلاصي يكون بحول الله من صنع عقلي وقدرته على انتحال حيله الماكرة عبر التقية والخدعة والتورية والتمويه والتضليل، وهلمَّ جرا مما سيظل الصدر واللوح مفتوحين له، حسب طبيعة الظرف ودقة الموقف، وعلى ضوء إملاءات الروية والعقل، وحدوس البديهة والقلب.

بعض خيوط المتاهة انجلت إذن، وعليَّ، متدرجا، برفع الغطاء عن أخرى ما زالت دامسة أو ملتبسة. لكن المعطى الثابت الذي لا ريب فيه عندي ولا مراء أن هذا الحبس السريّ المجهول الموقع، تديره جهات أجنبية خفية بأيد متعددة الجنسيات (عاينت منها عن كثب عربا)، وأني فيه مبرمج لاجتياز محن وامتحانات، عناوينها التعذيب وسوء المعاملة وغسل الدماغ، حتى إذا ما تفوقتُ فيها بالجلد والصبر على المكاره، رُشحت لإحدى الوظائف القذرة المطلوبة من وكالات استخباراتيةٍ مهيمنةٍ وازنة، منها وظيفة العميل المخترق لجماعات معادية مستهدَفة، ووظيفة البصاص الجمّاع لأخبار مفيدة، ووظيفة القاتل المأجور، وغيرها مما بطن ولا أعرفه أو لا أتصوره.

يعوّل مهندسو ذاك المخطط الجهنمي، ولا شك، على جيش احتياطي ملاييني، يتضخم عدديا مع الوقت، ويقوى

بطوابير العاطلين وطالبي لقمة عيش. بؤس هؤلاء نعمة أولئك، ومصائب أقوام عند قوم أسمدة وسموم لتدجين دولٍ وترويع شعوب.

إني إذن أمام ضلع مرئي من أضلاع شبكة دنيوية، هرمية التنظيم، أخطبوطية الأشكال والامتدادات، يمسك بحبالها طواغيت، ويسيّرها كلاب من عدة صنوف واختصاصات...

بغتةً، وعلى ذكر الكلاب، قفزت إلى ذهني قصيدة «في المعتقل»، كتبها أواخر ستينيات القرن الماضي فؤاد نجم في سجن القلعة، لا يحضرني منها الآن إلا بعضها الذي رددته في نفسي ثم صدعت به بين جدراني وقضباني:

في المعتقل يا سلام سلِّمْ

موتْ واتْألمْ

لكن لمين راح تتظلّمْ

والكلّ كلاب

كلاب حراسه

وكلاب صيد

واقفين بالقيد

يكتِّفوا عنتر وأبو زيد...

للكلاب ـ حشاك يا نعيمة ـ وأربابِهم خطتهم الشيطانية في

تسخير أشقياء الأرض واستعبادهم طوع جبروتهم وشهواتهم، ولي أنا، عبد ربه ولا ربّ لي سواه، خطتي في تعطيل برمجتهم لي، والاستعصاءِ على هندستهم وحساباتهم، وشقِّ عصا الطاعة بالتحامق والتمارض معا. نعم أنا ـ وأعوذ بالله من قول أنا ـ الذرة الفرد، الضعيف بحجمي وجسمي، القوي بإيماني، المؤمن برهاني الذي لا أعظمَ منه في مقامي هذا، ولا أقومَ ولا أخلص: إما أن أنجوَ بروحي من هلاك محْدقٍ داهم إلى بر أمان؛ وإما أن ألتحق بالرفيق الأعلى شاهدا وشهيدا؛ وفي كلا الموئلين، يا نعيمة، شارةَ نصرٍ سأُبعث، نقطةَ ضوء واعتبار، تنضاف إلى مثيلاتها في سجلات الثائرين المنتفضين ضد الطغاة العتاة، وأيضا ضد عبابيد الخنوع والاستسلام...

فكرتُ في تناول قلمي وبقية أوراقي كيما أوثق حلمي وخواطري، ثم أخفيها حيث مرآتي تحت تراب لحافي، لكني أجّلت ذلك بعد أن اقتحم مكاني حارس مقنع، فقيّد يديّ خلف ظهري واقتادني بين ممرات وردهات حافلة بحركة حراس وسجناء غير عادية؛ ولما أفضى بي إلى ساحة خلفية لا أعرفها أوقفني بين جمهور، قال إنهم هنا للتفرج على تنفيذ حكم الإعدام في خمسة زعماء إرهابيين، اعترفوا بكل تهم القتل والجريمة المنظمة المنسوبة إليهم. فتحت فمي للسؤال فأمرني بسده.

الجمهور مكون من جماعات متناثرة، يمنع الحراس

المختلطون بهم، كالمعتاد، أي كلام بين أفرادها. الوقت قريب من منتصف النهار، حسب موقع الشمس في كبد السماء. انتظار أثقل من الإسمنت لا تشوبه إلا نحنحات وخشخشات وحركات؛ وفجأة انبعثت من أبواق، يُرى بعضها على أبراج الحراسة، قرعات طبولية ضاجة، رافقها خروج خمسة رجال مقيدي الأيدي والأرجل من باب حديدي لمبنى أمام الجمع، يتبعهم جنديان مقنعان، مصوبين سلاحهما، وبأمر منهما وقف الرجال مديرين ظهورهم إلى حائط عال متآكل، كل واحد على بعد قدمين من الآخر.

كنت في موقع يمكّنني من رصد وجوه الماثلين للإعدام. لم تكن عليهم أمارات الهلع والاضطراب. قلت هكذا يكون الزعماء البواسلُ الأشداء وإلا فلا، مسترخصين حياتهم في سبيل نضالهم، لا يأخذهم أمام الموت رجفة ولا خوف. وفي تدقيق رصدي وتغلغله، عجبا لبصري الثاقب الحاد ولما رآه: إلياس بوشامة بالذات والصفات، يقف في أقصى يسار أولئك الزعماء، عاليَ الهمة، وضّاحَ الوجه، باسمَ الثغر. وأُقسمُ بما يؤثر إلياس القسمَ به في هذا السجن: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ① وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين: ١، ٢] إنه هو هو. صحت باسمه عاليا، وأردفت ملء حنجرتي: لك الله يا إلياس! تموت في سبيل الحق، وتُبعث في الجنة مع الصديقين والشهداء...

أسكتني الحارس خلفي بضربة على صدغي عقابا لي،

ونبهني إلى ماما غولة وقد اقتحمت الميدان في ما يشبه الجولة التفقدية. كانت ترتدي لباسا قاتما، وتحمل في يدها حزمة أكياس بلاستيكية سوداء. لم يكن يصحبها العملاق الأسود ولا أيُّ غوريلا. بجسمها الضخم الفائض لحما وشحما ودمامتها المهولة الخارقة للعادة، كانت وحيدة تمشي، متمايعة مختالة كالطاووس تارة، متغطرسةً متوحشة كاللبؤة تارة. قصدتْ جمهور المتفرجين، تفرست وجوها بنظرات شزراء مزدرية، وهي تلوك علكها وتحرك ردفيها وصدرها على نحو ينفر حتى قدماء الكبت الجنسي بين المعتقلين. ترقبتُ أن تخصني بالتفاتة أو نظرة كيما أباغتها بغمزة مستفزة أو إشارة بذيئة منكرة، لعلها تفهم أني أتحداها وألعن نشأتها وما يجيء منها، أو تدرك أن حمقي قد ازداد رقيا واستفحالا؛ لكن العاهرة الشمطاء تجاهلتني وغضّت الطرف عني. وفجأة برز وسط الميدان سجين بدائي القوام والصورة، فركض كالفرس نحوها صائحا: حيَّ على الجهاد، حيَّ على القِصاص. الله أكبر، لا غالب إلا هو... لكن ما إن اقترب من هدفه حتى أرداه جندي قتيلا، فكبر شهودٌ التكبيرات الأربع، فيما القاتل يغيّب الجثة عن الأنظار.

بعد أن أتمت الغولة جولتها الاستعراضية غير عابئة بما حدث، يممتْ وجهة الزعماء الخمسة، فأجرت أمامهم الجولة نفسها ثم، صحبة رجل بهيئة فقيه برزَ كجنّ، أخذت تتوقف قريبا من كل زعيم على حدة، تحدثه كأنها تعرض عليه صفقة أو تساومه في شيء، وبعد ذاك، بحركة عنيفة تُلبس رأسَه كيسا

أسود، بينما الفقيه يناجيه بما أفترض أنه طلبُ الشهادتين أو دعاء بالغفران أو بهما معا. وكذلك فعلت الغولة مع الآخرين وفعل الفقيـه، حتى إذا وصـلت إلى الأخير في الصف، إلياس بوشامة، لقيتْ منه إعراضا عن التقنع بالكيس، توّجَهُ بالانقضاض على أذنها يعضها ويدميها، فأطلقت صرخات ألم وتوجع، وفرَّ الفقيه خائفا مستغيثا، فيما هب الجنود إلى فك أسر رئيستهموإسعافها.

من موقعي، متحديا قبضة حارسي وتهديداته، صحتُ بكلمات مناصرة لإلياس وتأييد، أعقبتْها هنا وهناك بين الحضور هيعة مبهمة، ما فتئت أن استحالت إلى جلبة استنكار وتنديد، وذلك جراءَ شروع الجنود في إفراغ ذخيرتهم الحية في أجسام الزعماء، تنفيذا لأمر الغولة المنسحبة تحت رعاية ممرضيْن. وعلت الجلبة واحتدت لما قام حراس بإلقاء الجثث في حاوية شاحنة على أهبة الانطلاق؛ لكن سرعان ما سُمع أزيز البنادق الرشاشة في الهواء صادرا من بعض الأبراج، آنئذٍ عمَّ الساحة سكون أشسع من سكون المقابر وأوغل.

في جو مأتمي مكفهر، اقتيدَ السجناء إلى المطعم الجماعي تحت حراسة مشددة، وفي الجو نفسه جلسوا لتناول وجبة، دلتني مكوناتها المكرورة أنها وجبة غداء.

ليس رغبة في كسر صمت الجلساء وخنوعهم، بل لأداء فريضة دينية واجبة، اعتليتُ مقعدي وخاطبت الجمع:

رجالٌ شدادٌ تقاة، أحلامهم كالجبال، ماتوا أمام أعينكم يا قوم، فلا أقل من أن نقوم جميعا ونستقبل القِبلة، نصلي عليهم صلاة الغائب وندعو لهم... التكبيرات الأربع، يا إخوة، التكبيرات الأربع...

لم يبد أحد استجابة ولا حراكا، بل دبَّ في بعض الطاولات هدير ضحكات طليقة أو متقطعة، ثم تحولت إلى قهقهات ساخرة انتقلت عدواها إلى مقتعدي طاولات أخرى. استغربتُ الأمر واستفحشته، وكيف لا أفعل؟! كيف لا؟! وحين عاد المطعم إلى حاله الاعتيادي، تناهى إلى سمعي من إحدى جنباته صوت في اتجاهي: البكاء على الميت خسارة، يا وليَّ الله، وكثرة الهم تضحك...

لم أعبأ بالتعليق بل كبّرت وحدي مرة فأخرى، وفي الثالثة والرابعة رافقتني أصوات مهلهلة متعبة. وبعدها قعدت عابسا متذمرا. مال عليّ جاري هامسا في أذني: لي عندك الحل، حلّ الحلول وحبل النجاة، يقلب المرَّ حلاوة، والضيق سعَة، والشقاء نعمة. يريك الغولة نعجة بل هريرة، والمدير ديكا، والمحقق حمارا. ليس الخمر الحرام أعرضه عليك، بل حبات الإكستازي أو، إن شئت، القرقوبي المشتق من الحشيش الصافي. وكله بثمن مناسب. خذ حلّي بالسلف أو مقابل خدمة... آش قلنا؟

رميت مخاطبي بنظرة تمنّع ورفض، وذهبت أعيد صينيتي

إلى موضعها وأبحث عن حارسي المقنع لاستئذانه في تقصد زنزانتي. أجابني، وقد عثرت عليه، أن المجمّع ليس خيرية لإطعام المساكين وأبناء السبيل، وأن عليّ المشاركة في غسل الأوانـي وكنس المطعم وتنظيف أثاثه وجدرانه. وكذلك فعلت صحبة رهط لا أدري هل هم من المعتقلين الحقيقيين أو المخترقين. وبعد إنهاء عملي طلبتُ الرجوع إلى مربعي، فرافقني حارسي إليه سائلا إياي لأول مرة إن كنت أريد شراء أشياء بأثمنة السوق السوداء، وعدّدها: سجائر أمريكية، نبيذ فرنسي، راديو ياباني، سواك حجازي، عطر هندي، حشيش مغربي، صابون بلدي، معجون أسنان وعِلك بلا هوية... قاطعته بالإعراض عنها كلها.

[١٤]

حصة تعذيب أخرى

عودا إلى زنزانتي، استرعى انتباهي ازديان لحافي بحذاء نايك وسجادة وتيمومة وكتاب مجلد خلته نسخة من القرآن الكريم، وكذلك صحف ومجلات (عربية وغربية) شُطبت تواريخُها وانتزعت بعض مقالاتها، ورجحت أنها ترجع إلى بضع سنوات خلت. جلست توّا أتصفح الجرائد وأطالع بعض عناوينها الأولى والداخلية. استوقفتني قليلا عيّنة منها: انفجارات إرهابية بالجملة في بغداد تخلف عشرات القتلى والجرحى/ المغاربيات ضحايا الاسترقاق والاستغلال الجنسي في بلدان الخليج/ خليجي ينقل السيدا إلى خليلته التونسية عمدا بطنجة/ فيروس السيدا يهدد القارة السمراء/ شبكات تهجير «فنانات» مغاربيات إلى مواخير الخليج والشرق العربي/ اغتصاب الأطفال في المدارس وخارجها كابوس مجتمعات عربية/ مقتل وجرح عشرات الأشخاص

في انفجارات إرهابية بالجزائر العاصمة/ أسرة في مراكش تسلط على خطيبة ابنها الكلاب والثعابين لإجهاضها/ إسبانيا تراقب أصوليين مغاربيين عملوا في جيشها... أما المجلات، وكلها من الصنف البرنوغرافي الخليع، فرميتها في ركن معتم، معتصما بحجاب الحياء والتقوى...

مقال متعلق بتصريحات متوعدة نارية ضد المقاومة العربية لكبار أركان الكيان الصهيوني قرأته بأتمه. تأكد لي ما أعلمه وتعلمه كل الشعوب المستضعفة وأحرار العالم: جبروت إسرائيل المستقوي بدعم أمريكا الشامل اللامشروط، تعززه معظم دول أوروبا وحتى أنظمة عربية وازنة. المقاومة الفلسطينية واللبنانية تناضل نيابة عن كل العرب والمسلمين ليس ضد إسرائيل وحدها وإنما ضد جميع تلك القوى المتجبرة الجائرة... وفي هذا السياق قرأت مقالة نزلت علي فقراتها دفئا وسلاما، فسطرت على بعضها وتمنيت لو تعرفت على هوية صاحبها.

قمت أغسل يديّ بقطرات الماء الشحيح حتى أمس نسخة القرآن الكريم، ولو مطهرا بمقدار يسير، فهالني، إذ قلبت غلافه الفاخر القشيب، أن قرأت عنوانه: الروض العاطر في نزهة الخاطر للشيخ محمد النفزاوي. ارتعدت فرائصي واقشعر بدني لما في هذا الإرسال من استفزاز سافر واستهتار ممجوج.

هذي الإكراميات، تُراها مِن عند مَن أتتني؟

لو لم تكن مخلوطة بهدايا ملوثة لمال ظني إلى نعيمة التي في قلبي وخاطري. أما وأنها كذلك، فلا ريب أن مرسلها هو القاضي المحقق، عربونا على مصالحة معي يريدها لقضاء حاجة ما في نفسه اللئيمة الشريرة. لكن وحق فاطر السماوات والأرض، وباسم خطتي في الممانعة والتصدي، لن يصيدني المحقق الخائض في المياه العكرة، ولن ينال مني ما يبتغي وينوي. الصلاة على سجادته ـ هكذا قررت ـ فاسدة لا تصح، والتوضؤ بتيمومته نقيض لا يطهر، وقراءة الروض العاطر في مقامي هذا أنقض وأفسد. كل هذه الأشياء وحتى الجرائد ـ ما عدا حذاء النايك الذي ما أحوجني إليه! ـ ألحقتها رميا في الركن المعتم بمجلات الدعارة والمجون والعري.

في صبيحة الغد، بعد قيامي بعمل تنظيف وكنس في المطعم مع رهط من السجناء، اقتادني حارس مقنّع إلى غرفة سرية في قبو، لم أرها من قبل. قيّد يديّ إلى الخلف وأجلسني على مقعد أمام طاولة وكراسي. بعد انصرام لحظات انتظار زاخرة بالرهبة والقلق، دخل رجل مقنع، قوي البنية والعضلات، لا شك أنه أحد غوريلات المجمّع، وتوقف مع الحارس ورائي قريبا من ظهري؛ ثم أعقبته الغولة، متبوعة ـ وافرحتاه! ـ بنعيمة. والمرأتان خُلقا وخِلقة على طرفي نقيض، كالغزال المسالم والوحش الضاري، شتان ما بينهما. الغولة موغلة في قبحها القياسي وهمجيتها الهوجاء؛ ونعيمة رافلة في حسنها الأخّاذ ونعومتها الفائقة.

بأمر من رئيستها، قامت نعيمة بتصويب مسلاط ضوئي إلى وجهي، اهتبلتها فرصة لإظهار انحماقي، تطبيقا لفصل من فصول خطتي الآنفة الذكر، إذ جاهرتُ نعيمتي منشدا، من دون ذكر اسمها أو إشارة إلى بطاقتها الشيقة: نورتني يا خيرَ زائرةٍ/ أما خشيتِ من الحراسِ في الطرقِ؟ عوضا عن إجابة منها، أتتني من الغوريلا صفعة على قفاي أخرستني، مرفقة بتحذير كأنه صادر بلسان كائن آلي: ممنوع السؤال، ممنوع التحرش الجنسي... وبعدها تحول إلى جانب الغولة المنهمكة في استهلاك *الشندوتشات* وقنينات البيرة تباعا، وذلك بشره قلّ عند الآدميين نظيرُه. وبين الفينة والأخرى، أخذت بفمها المليان تبث في أذن الغوريلا كلاما، فينقله إليّ في صيغٍ استنطاقية وجيزة صارمة، صاح بصوته الآلي:

ـ الرايسة تسألك عما تسترتَ عنه من قبل ولم تقله...

بعينين رامشتين دامعتين من شدة الضوء الصناعي المسلط على وجهي، أجبت متحديا:

ـ ما في جعبتي قلته، ولا تُعاد إلا الصلاة على النبي.

ردّ عليّ الغوريلا مهددا:

ـ فرغتَ يا ابن الكلب جعبة وتكتّمت على جعب. أفرغها كلها وإلا أفرغت عروقك من دمها... في مدينتك وجدة، عدا انكبابك على الكتب، كنت تنكبّ على أشياء أخرى... مثلا على امرأة اسمها فاطمة اللوزي، أسكنتَها في مكتبتك، وتريد الرايسة معرفة علاقتك بها...

أجبت على الفور بما أعلم:

ـ فاطمة هاته أرملة معدمة، وحيدة لم تخلف. ذاقت من مرارة العيش ما لا يطاق. آويتها وساعدتها قدر جهدي مقابل تنظيفها المكتبة والنيابة عنّي أحيانا في تسييرها...

قاطعني مفتول العضلات:

ـ الرايسة تسألك إن كنت تزني معها...

ـ لا، معاذ الله (صحت). المرأة أختي من الرضاعة، تحرم عليّ...

أطلقت الغولة ضحكات صاخبة، مرددةً بلكنة طبيعية أو مصطنعة:

ـ أختك من الرضاعة، يا ولد الزنى... رضاعة اللبن! mon cul... وفين هي اليوم؟

ـ لا أعلم (أجبت)... اختفت شهرين قبل اختفائي...

ـ بل قل، يا كلب، أخذت الماكي في الجبال مع أخيها الآخر من الرضاعة، ابن خالتك الحسين المصمودي...

عاد الغوريلا إلى استنطاقي بعدما فرغ من التقاط همسات رئيسته إليه:

ـ في جلسات التحقيق السابقة، تسترت على فاطمة اللوزي ولم تذكرها أبدا، لماذا؟

ـ لأن الكلام فيها لا يفيد التحقيق...

ـ بل يفيد... الرايسة تسألك عن توجهك الجنسي.

ـ توجهي الجنسي! لا أفهم...

قاطعني مستغربا:

ـ هل في العلاقة الجنسية تميل إلى المرأة أم إلى الرجل؟

ـ طبعا إلى المرأة لأني رجل. لكن ليس أي امرأة. الفتاة أمامي لو استطعت الزواج بها على سنة الله ورسوله لما تأخرت. أما معذبتي تلك، الموت أفضل لي من العيش معها، والجنس اللطيف براء منها...

انتفضت الغولة واقفة، قذفت وجهي بما في فمها من أخلاط أكلها، ثم جلست تطفئ غضبتها باحتساء بيرتها.

استأنف المستنطق هجمته عليّ قائلا:

ـ علاقتك بفاطمة اللوزي تفيد التحقيق، وتفيد تهمة الزنى الثابتة عليك بالحجة المادية الدامغة وبحكم الشرع... تسترتَ على هذا، كما تسترت على ما هو أدهى وأخطر: المتاجرة في البنزين المهرب بين الحدود المغربية الجزائرية بقربات وبدونات، كنتَ في البداية تنقلها بدراجة نارية ثم بسيارة تتحرك بغاز البوتان، قابلة للتفجير وقتل الأبرياء... لماذا تسترت على كل ذلك وأخفيته؟

غالبت حرجي وأجبت بحزم وتؤدة:

ـ هذي معلومات لو سئلت فيها لقلت كالتالي: نعم، هرّبت البنزين بمقادير يسيرة من قرى جزائرية إلى وجدة ونواحيها، لكن سرعان ما عدلت عن ذلك لغلبة المخاطر على الأرباح وتكاثر «البِدونيين»، سمّيَ هؤلاء كذلك لأنهم بدون عمل عدا طرابندو بيدونات البنزين... أما تحريك سيارتي بالغاز فبسبب اعتدال ثمنه ورحمته بطاقتي الشرائية الهشة، لا غير.

بإشارة من الغولة، كثفت نعيمة ضوء المسلاط حتى أقصاه، فبدا لي مَنْ وراءه أشباحا وخيالات لشد ما أصاب بصري من ضعف واضطراب. أدرت نظري إلى الخلف للتخفيف عني، فلاحظت غياب الحارس. أمرتني المستنطقة بإرساء رأسي صوب الأمام. ولما استقمت ضج صوت الغوريلا:

ـ ترى الرايسة أن كلامك كله زبل وزفت. الآن للمرة الأخيرة، تسألك أين يختفي ابن خالتك المكنى بأبي البشائر، أو حتى بعض رجاله. تعاون بجد معها تسقطْ عنك تهم الزنى والتهريب واستعمال سيارة مفخخة، وزد في السلة تهمة اغتيال زوج أمك... قلتَ إيه؟

دعوت ربّي في نفسي أن يقوّيَ صبري على ما ينتظرني من مساءات التعنيف والتعذيب، جراء الجواب الأوحد الذي عندي على سؤال الغولة المهدّد المتوعِّد: قلتَ إيه؟ بإشارة منها تقدمت نحوي نعيمة، فكررتْ في وجهي المضاء جدا السؤال نفسه بصوت خشن غير ناعم. قلت:

ـ نورتني يا خير زائرةٍ/ أما خشيتِ من الحراس في الطرقِ...
إني، وحـق من خلقَك في أحسن تقويم وزيّن بنانك، لا أعلم شيئا عن أحوال ابن خالتي ولا عن مكان وجوده ولا عن أصحابه.

بادرتني نعيمة بصفعة على خدي استحليتها، فمددت لها خديَ الآخر طلبا لحلاوة مزيدة، فصفعته بشدة لا تخلو من نعومة. رغبت لو أن صفعاتها طالت وتجددت حتى تنسيني الغرفة ومن فيها، وأتخيلَ صافعتي يصدق عليها المثل: من أحب عاتب وقيلَ عاقب. لكنَّ رغبتي سرعان ما أجهضها فائضُ البنية والعضلات، إذ جذبني إلى دائرة معتمة، مددني على ظهري قرب جفنة ماء، حشا فمي بقطع صوف وورق المرحاض، شمّعه بلصقة مقواة ثم بث في أذني: الآن، يا ولد القحبة، ستبصق الحقيقة بالخنق الدافئ.

الخنق الدافئ!

أقبلت عليَّ الغولة وجلست القرفصاء فوق وجهي، شعرت أنها تطْبق إحدى ثقبها الحميمية على أنفي، فتحبس الهواء عنّي وتحشرني في شم غازاتها وروائح لحمها الكريهة، فلا ترفع قليلا طوقها الملوَّث عنيّ إلا لتسألني هل أقبلُ التعاون، ثم تعود إلى فرضه عليّ بعد تأكدها من نفوري وصدودي. رنَّ هاتفها النقال، أجابت بما معناه: نعم سيدي، الكلب يوجد تحت السيطرة، ولا بدّ يتكلم... نعم سيدي... ولما شعرَتْ بضمور تنفسي وتضاؤل حركات رجليّ المقيدتين، قامت

وعادت إلى موقعها تتابع أكلها وشربها، وظللت أنا طريح الأرض أئن وأكح.

بإذن من معذبتي ـ أو ربما من تلقاء نفسها ـ خلصت نعيمة فمي مما فيه وحررت رجليّ. سعلتُ مثلما لم أسعل من قبل، وتقيأت مرارتي ملء جوفي، معتذرا لمسعفتي، التي بللتْ فوطة بماء الجفنة وانحنت عليّ تنظف وجهي وعنقي. هدأتُ شيئا فشيئا بفضل عناية فتاتي الرحيمة الرؤوم وقربِ أنفاسها الزكية مني.

بعيد لحظات أقبلت الغولة، جسّت حبل وريدي ونبضي، ثم أومأت إلى الغوريلا فجرني وأجلسني القرفصاء حذاء جفنة الماء، وهو يصيح: الغطسَ الغطس! إما الاعتراف أو الحتف...

إنها إذن عملية غطس الرأس في الماء، السيئة الذكر والصيت. يقال إن المعذب بها يعاين موته بحبس الأوكسجين عنه مرةً بعد أخرى إلى أن يذعن إلى الاعتراف والتعاون أو يهلك دونهما. وهكذا فعلت بي الرايسة بوحشية متناهية، حتى إذا جاعت وظمئت أو رنّ هاتفها أنابت عنها نعيمة، التي أخذت في أدائها تقصّر مدد الغطس وتتعمد عدم الإتقان وتكثر الغش. تنبه إلى ذلك مفتول العضلات، فوشى بها إلى الغولة المنشغلة بتغذيتها وهاتفها، فما إن فرغت حتى هجمت على نائبتها بصفعة مدوية أفقدتها وعيها، لاعنة سوء كفاءة المتدربات

الشابات وضعفَ حنكتهن ومعارفهن، ثم أمرت مساعدها بحمل المغمى عليها إلى المستوصف وتأديبها، وبعدها تولتني بالغطس، فلا تخرج رأسي من الماء إلا لإطلاق لسانها النتن بسب والديّ وديني، أو لتهددني مجددا بالموت غرقا إن لم أفتح لها صدري بالكشف عن أسراري. وبينا أنا أتملى وجه نعيمة تحت الماء، مستعينا بذكر الله وذكرها للصبر على قطع تنفسي ما استطعت، إذا بي أحس أن وهْنا ما أصاب الغولة في النطق بسبابها ووعيدها، كما في مخض رأسي بين الغطس والهواء. ناجيت نفسي: هذا من آثار السكر حتى الثمالة عليها، وقد يكون لي به مخرجُ انعتاق، إن شاء الله. وصدق ظني، إذ ما لبث أن دخل الحارس مضطربا، فأعان رئيسته على الوقوف وتقصدِ أريكتها، وهي تهذي بكلمات متقطعة غامضة، ثم رجع إليّ، فأخرجني من الغرفة، واضطر إلى حملي على كتفه باتجاه المستوصف رحمة بي أو اتقاءً لموتي بين يديه، لِما رآني عليه من سوء حال وعجز عن المشي المتزن. هنا في غرفة انتظار أجلسني حاملي على كرسيّ ثابت، قيّد إحدى يديّ به وانصرف على عجل لحاجة يقضيها.

بقيت وحدي أنتظر انفتاح بابٍ قربي؛ وحين احتد الصمت وغلا تناهت إلى سمعي من خلفه أنات حسبتها لجريح قيد العلاج، لكن ظني تبدد لما مكنني فضولي من استراق النظر من ثقب القفل، فرأيت ما كاد يسقطني على أم رأسي: طبيبة بصدريتها البيضاء منكبة على نعيمة، تحضنها، تلامس نهديها

العاريين، تترشف من فمها قبلات عميقة، كما يفعل رجل مع امرأة. استعذت بالله في نفسي واسعا، ثم عدت إلى هيئتي السابقة على إثر سماعي لوقع خطوات في الردهة المجاورة.

أقبل عليّ الحارس، أزال قيدي وسلمني إلى الطبيبة بعد استئذانها. لم يكن لنعيمة أي أثر! أحجمت عن أي استغراب أو سؤال.

امرأة في متوسط العمر، أجنبية المظهر، نحيفة، واطئة الصدر، قصيرة الشعر، لا لمسة ماكياج على وجهها ذي الملامح الذكورية اللافتة... استقبلتني مبشورة مطمْئنة، أجرت عليّ بعناية فائقة فحوصات متنوعة عديدة. ركزت على صدري وجهازي التنفسي يدويا فإشعاعيا، وتوجت عملها المشكور باستخلاص حقن من دمي في قارورة لأجل التحليل، ثم بثت في أذني كلمات مفادها أن نعيمة أوصتها خيرا بي. سلمتني مرذاذين وأقراصا مرفقة ببطاقة استعمالها، وكذلك علبيات بلاستيكية فارغة قالت إنها هبة من الفتاة. سألتها توّا عن حال نعيمة، أومأت بما يشير أنها بخير، وعن موعدنا القادم فصالبت سبابتها بشفتيها هامسة: إذا بصقت الدم... وأخيرا شيعتني إلى الباب حيث كان الحارس في انتظاري.

[١٥]
من دهليز المعتوهين
إلى مرأب «المتمرنين ليوم الحشر»

هل حقا حُملت إلى لحافي نائما ومر يومان ولم أفق، كما يصدع بذلك صوت منبعث من زنزانة مجاورة لي؟

بصعوبة متناهية وقفت على رجليّ، لحظت تورمات متقيحة في قدميّ؛ بخطى متعثرة عرجاء قصدت بابي، أدركت أني أقيم في زنزانة غير التي كنت فيها. الدليل: الباب ذو القضبان الحديدية، أرى من خلالها ممرا مظلما وحائطا مبرقعا بالثقوب وجلطات الرطوبة المتكثرة. مددت رأسي شمالا: دهليز معتم لا تدرك العين مؤداه؛ أدرته يمينا فإذا بي على بعد مترين وجها لوجه أمام رجل بدائي شبيه بإنسان الكهوف، يعرض عليّ بواسطة عكازه كيسا مشحونا، ويقول بلهجة المستنكر الآمر:

ـ صاحب السعادة ينعم بنوم هادئ عميق، فيما أنا أشقى مع

مرحاضي المخنوق. خذ الكيس، أفرغه في حفرتك وأرجعه لي بعد غسله، ولا بد...

ترددت في تلبية طلبه، فاستعجلني مستعطفا:

ـ خذه يُرحم أبوك... ذخيرة أسبوع كامل، هذا كثير! الجار للجار رحمة... ارعَ الجار ولو جار...

قصدت بالشيء مرحاضي مترنّحا، مقللا تنفسي، لم أجد في عقر الزنزانة سوى حفرة ضيقة القطر، مغطاة بياجورة، وصنبور ماء شحيح. قررت أن المهمة مستحيلة نظرا لحجم الكيس الوازن ومخاطرتي، لو أنجزتها، أن أزيد في إفساد هواء مأواي وأجعله وبالا عليّ. كومت لحافي على ما وجدته من الماعون، اعتليته بنية إفراغ الكيس من كوة محاذية للسقف، لكنه فلت من يدي المرتعدة ليسقط في فراغ مبهم.

عدت إلى أرض محلي أرتب ما كومته، ثم استلقيت مستردا أنفاسي، مغالبا أبخرتي الرديئة والتباس العناصر والخيوط في ذهني. ركزت نظري على الكوة، والنهار يزحف إلى متمه، تذكرت أني قبل نومي العميق خضعت لحصة تعذيب قاسية مكثفة، أجرتها الغولة بمساعدة الغوريلا ذي العضلات. عاودني طيف نعيمة اللطيف أثناء الحصة وفي غرفة بالمستوصف، والطبيبة النصرانية تخضعها لكشوفات أؤثر الآن اعتبارها تقنيات فحصية خصوصية عوض إساءة الظن بها، سيما وأني ما تلقيت من صاحبتها إلا الخير والمعاملة الحسنة.

على نحو آلي فتشت في جيوبي فأخرجت منها مرذاذين مكتوب عليهما الفونطولين للمصابين بالربو، زودتني بهما حينذاك الطبيبة، رفقة علييات بلاستيكية فارغة قالت إنها هبة من نعيمة إليّ. وفيما شرعت أفكر في دلالة هذي الهبة ومغزاها إذا بجاري يناديني أن أعيد إليه كيسه. أخبرته بما حدث، فأخذ يصرخ ويضرب الأرض والقضبان بعكازيه ويعدني بالويل والثبور؛ ثم علت أصوات كثيرة من زنازن مجاورة على طول الدهليز، بعضها يطالبني بتمكين الثائر المسكين من كيسه، وتعده ليوم غد بكيس آخر أنظف وأرفع؛ وبعضها يترجاه أن يسكن وينام ويفوّض أمري إلى يوم الحساب. وفي لجة الهرج واللغط تضاعفت هستيرية جاري، فادَّعى أني تملكت متاعه وحرمته منه لحاجة خبيثة في نفسي أريد قضاءها، ورفع عقيرته بأدعية عليّ، لا أسوأ منها ولا أفدح، ومع كل دعاء يعم أرجاء القبو هدير السجناء بقول آمين. واستمر ذلك متواترا فمتقطعا حتى الهزيع الثاني من الليل.

سوط عذاب من صنف آخر سُلط عليّ في هذا الدهليز الذي لا مراء أنه للحمقى والمعتوهين، حُشرت فيه عمدا أو ربما، كما أرجو وأتمنى، عن طريق الخطأ والسهو لا غير.

في ما تبقى من الليل لم يرقد لي جفن. أرقٌ على أرق، ونباح كلاب مستعر، وبقٌّ يستبيح دمي باللسع والمص، لا أتلهى عنه

إلا بالتفكير الساهم في نعيمتي ولغز هديتها، كما في الطبيبة وهمستها الأخيرة لي: إذا بصقتَ الدم...

عجبا لقلبي كيف يستميت في التشبث بالحياة والنبض، بالرغم من كل ما عانيته من تعذيب وخنق. لا ريب أن ما زاد في تقويتي على الصبر رسالة نعيمة إليّ، وعلامات عطفها الخفيّ عليّ.

مع انبلاج الصباح، جلست متربصا حارسا يقصدني بشيء من الطعام أو يمر خلف قضباني. لا بد أن أبلغ عني وأنبّه القيمين أني هنا لست في مكاني... أحكُّ جلدي، أغالب أمارات ربوي، أسحق البق الضال أو العالق بجسمي، أرشُّ فمي بمرذاذي وأنتظر.

لم يخب أملي: قبيل انتصاف الصباح، سمعت أصوات حراس قريبا من زنزانة جاري، هرعت حبوا إلى بابي واستعنت بقضبانه للوقوف. كانوا ملثمين في الممر يلفون الجار في إزار أبيض ويجهزونه على محمل، فيما السجناء يكبرون أربعا ويدعون للميت. شاركتهم فعلهم الشرعي ما استطعت. ولما هدأوا نبّهت إليّ حارسا قريبا أني هنا عن طريق الخطأ، ورجوته أن يعيدني إلى زنزانتي ١١٢. قوس في البدء حاجبيه استخفافا أو استغرابا، ثم بقدرة قادر فرقع مفتاحه في القفل وأمرني باتباعه بعد أن مكنني من عكازيْ الجار المتوفى. هكذا عكزت رفقته خلف حاملي النعش الثلاثة، بينما أيدي السجناء

تمتد نحوي مهددة على طول الدهليز وأصواتهم تغدق كلمات السب والدعاء عليّ، يردد بعضها: قتلتَ نفسا بغير حق وتسير في جنازتها. قاتلك الله وخلدك في النار...

عند بهو وسيع في ملتقى ممرات، أوقفني مرافقي بغتة. سألني كيف جيء بي إلى عنبرية «المزنزنين»، رويت له ما أعلم. وعن حكاية اتهامي من طرفهم بقتل جاري استفسرني، فقصصت له قصة الكيس وما فيها. أسهم مفكرا وعلق:

ـ وأمر إجماعهم، ماذا أفعل به؟

ـ سيدي الضابط (أجبت)، أنا لم أدخل زنزانة الميت قط، وإجماع الحمقى المزنزنين لا يصح في الشرع.

حك قفاه مفكرا. أمر مساعديه بتسليم الجثة إلى حفار القبور واقتادني إلى باب في دهليز شاحب الإنارة وأغلقه دوني بعد أن نصحني بانتظاره مع من سماهم «المتدربين ليوم الحشر»، وذلك حتى يحقق في قضيتي وعلاقتها بقصة الكيس.

المرأب الذي وجدت نفسي فيه عنوةً عبارة عن محشر ذي سقف صفيحيّ عالٍ، تسنده أعمدة خشبية مركوزة في أرض رملية. مرأب يعج بالبشر من شباب وكهول وعجزة، أغلبهم واقفون وقوف الساق على الساق، والباقي جلوس وهم من المعوّقين وأصحاب العاهات. ظللت قريبا جدا من الباب، مترقبا عودة الضابط. أراد عجوز أن أجلس مكانه، شكرته

مظهرا اتكائي على عكازيّ وارتياحي إليهما. سألته عن حاله وحال هذا الحشد الغفير من عباد الله، فتناوب على إجابتي بعض الواقفين:

قال واحد: الناس، يا أخي في الله، هم كما تراهم منذ ما يقرب من شهر. ضعافهم يقتعدون الأرض، ومرضاهم يتكومون عليها...

وقال ثانٍ: مرة في اليوم يرموننا من ترعات السقف بالخبز والتمر وقناني ماء، فنقتات بما تيسر وننتظر الفرج ممّن لا غالب إلا هو.

وقال ثالث: أما من أراد قضاء حاجته فعليه باختراق الصفوف إلى ذلك المرفق المسيج بالألواح الخشبية وأزرة الخيش، لا وضوء إلا بالأحجار، ولا صلاة لمن استطاع إلا صلاة الخوف أو التقصير. الطغاة القتلة يدعون ظلما وبهتانا أننا غلاة مكفرون، ويذهبون في تعذيبنا مذاهب شتى، منها تدريبنا على يوم الحشر، حسب تعبيرهم المقيت وخيالهم المعتلّ...

وأضاف رابع: لكننا هنا صابرون على بلوى المحنة، حتى نجتازها أحياء أو نبعث بعدها شهداء...

انطلق صوت، لم أتبين صاحبه، رافعا عقيرته بالتجويد ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتُۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٣ ـ ١٥٦]. رددت أصوات كثيرة من حولي، وأنا معها، الآية الأخيرة؛ ثم إن صمتا ساد بغتةً بعد تهاطل سيل أكياس صغيرة وقناني بلاستيكية، تلقيت نصيبي منها عن موزع، فإذا هو خبز وتمر وماء شروب. ظل الصمت مهيمنا وقت الاقتيات وسد الرمق. وبعد الفراغ منه شعشع صوت جهوري قوي:

عباد الله: حالَ الطواغيت بيننا وبين الوضوء والصلاة، فلنُجبْهم بالأذكار والأوراد، تطهرنا وتعصمنا من الضعف والهوان. قال نبينا الأكرم، صلى الله عليه وسلم: إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة. وقال ما أصاب عبدا همٌّ ولا حَزَنٌ فدعا بهذا الدعاء إلا أذهب الله همَّهُ وحزَنَهُ وأبدلهُ مكانَه فرحا... عباد الله، ادعوا الله معي بأسمائه الحسنى: هو الله الذي لا إله إلا هو. الرحمنُ. الرحيمُ. الملكُ. القدوسُ. السلامُ. المؤمنُ. المهيمنُ. العزيزُ. الجبارُ...

وصاحب الصوتَ كل من في المحشر من العرب ومن عليهم سموت العجم، فكان مشهد أعناقهم المشرئبة وحناجرهم المنشدة المتشوقة مما تقشعر له الأبدان وتهيج به الأفئدة.

حين خلص الجمع من ذكرهم ذاك، الذي شاركتُهم فيه قدر الإمكان، عاد الصوت الجهوري إلى البروز:

عباد الله، قال سيد الأنام: من سبّح اللهَ في دُبُرَ كلِّ صلاةٍ ثلاثا وثلاثين، وحمِدَ الله ثلاثا وثلاثين، وكبّر ثلاثا وثلاثين وقال تمام المائة: لا إله إلا الله وحدهُ لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، غُفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر.

وما إن توقف الصوت، الذي لا شك أنه لإمام فذٍّ نحرير، حتى هاجت الأفواه وتسابقت في طلب المغفرة بالتسبيح والحمد والتكبير والتوحيد عددَ ما ذكره الإمام. وبعد ذلك تناوب الجمع فرقةً فرقة على رفع عقائرهم بالأمداح النبوية، تعرفت منها على فقرات من بردة الإمام البوصيري وأحزاب من دلائل الخيرات للإمام الجزولي؛ ثم أعقبها بعضهم بالإنشاد الصوفي ورقص الحضرة، وذلك كله في حفل روحاني مَهيب.

توالت فصول ذلك الحفل متدفقةً، دافئةً، متجددة، انصهرتُ فيها بذهني ووجداني دون جسمي التعب من اتصال وقوفه على عكازين أمسيا جزءا مني. خشيتي من أن يعود الضابط إليّ ولا يجدني جعلتني ألازم مكاني قرب الباب، لا أحيد عنه، ولو أن حاجتي إلى الحركة والتبول بدأت تبرز وتلح.

أخذت فرقة دانية مني تردد نشيد الأنصار الشهير في استقبال المصطفى الأمين وصحبه بالمدينة المنورة:

طلـــعَ البـــدرُ علينا   مـــن ثنيـاتِ الـــوداع
وجـبَ الشـكرُ عــلينا   مرحبــا يـا خـــيرَ داع

فانتقلت إلى فرق أخرى عدوى حماسهم الإنشادي فإلى الجمهور الحاشد كله. ولم ينل من جذوتهم المتأججة إلا انهمار سيول مائية باردة من ترعات السقف، مصحوبة بصوت رعدي صادر من بوق لامرئي يردّدُ هذا الشعار: النظافة من الإيمان. اغتسلوا جيدا بالمجان... لم يفلت أحد، ولو بمقادير متفاوتة، من البلل الذي أدى بالناس هنا وهناك إلى نوبات عطس وكحة وسيلان أنفي، وأصابني أنا برعشات متصلة اصطكت على إثرها أسناني ثم بسعال حاد استعصى على إعمال مرذاذي.

وحين انقطعت التساقطات المائية، عاد الجمع إلى ما كانوا عليه من أذكار وأوراد، مع تكاثر راقصي الجذبة الذين أخالهم يُعيدون بها الحرارة الحيوية إلى أجسادهم المبللة الكازة. وفجأة ضجت من ترعات السقف موسيقى التكنو الصاخبة، فحاول المنشدون والراقصون مِلء حناجرهم وحبالهم الصوتية مغالبتها والتغطية عليها، لكن الإنهاك أخذ شيئا فشيئا يدبُّ في أوصالهم، ناشرا بالتدريج سرطان سكون قاهرٍ قسريّ.

اقتعد الأرضَ معظمُ أعضاء الجمع متزاحمين متضاغطين. انصرمت قطع التكنو تماما، وبعدها تعالت أصوات مكبّرةً للإعلان عن سقوط موتى. انتبهت إلى العجوز حذاء قدميّ، استيقنت أنه بات في عِداد هؤلاء بعد أن جسست وريده وأغمضت جفنيه. كبّرت أربعا رفقة الدانين مني، ثم رأيت

الباب يُفتح وطابورا من الحراس المسلحين يقتحمون المحشر ويشرعون في إخراج الموتى على محامل مطاطية. ولما قصد اثنان منهم المتوفى بجواري ووضعاه على نقالة، تهاويت فوقه حابسا أنفاسي، فاضطرا إلى حملي معه، ظنا منهم أني في قبضة عزرائيل، وتوجها بي على هذا النحو إلى المقبرة، وأذناي تطنان بأزيز طلقات نارية وبصياح الإمام: الثباتَ الثبات على الموقف يا عباد الله!...

كان الوقت فجرا. اكتفى الحراس بتصفيف الجثث على مقربة من خندق وسيع غميق، وذهبوا في مهمة مّا أو لاستكمال نومهم. آنئذ، متلحفا ببقايا سدول الظلام، زحفت كتمساح جريح بعيدا عن الخندق المعدّ للدّفن الجماعيّ الأعمى، حتى إذا لحقتُ بكدية معشوشبة تنفستُ الصعداء واسترحت، خانقا سعالي براحتيّ، مفرغا مثانتي من بولها الذي كددت في حبسه وأنا فوق العجوز الميت.

الشمس البازغة الصاعدة لا ترحم المختفي في هذي الصحراء العارية الجرداء، ولو تكوم وتضاءل، بل تكشفه، تفضحه، تنعته لأي حارس متجول أو رقيب من برج عال. من زاوية انبطاحي، قريبا من عينيّ، أبصرت حذاء جندي. رفعت رأسي نحو صاحبه فتلقيت تهديده وأمره بالنهوض. تبيّن له أني عاجز عن طاعته. سألني إن كنت في حالة فرار، أجبت لا، وعن رقمي السجني فعددته مهتاجا ثم على مهل. حملني فرِحا على كتفه، كما لو أني فريسة صيد، وسار بي وهو يصيح بالقول:

البحث عنك على قدم وساق... أنت غنيمتي هذا الصباح... ادع الله لي أن تكون في سلم الأجور سبب ترقيتي.

حكيت لرافدي قصة ضياعي في عنبرية المعتوهين ثم في مرأب المتمرنين ليوم الحشر، لكنه كان منصرفا عني تماما إلى ترديد كلماته ومطالبتي بالدعاء له. وقبل أن يلقيَ بي في زنزانتي ويقفل دوني بابها، حدّث عني في الطريق إليها جنودا وحراسا يفوقون العدد الشرعي، وأشهدهم على أنه السباق إلى اكتشاف جحري وإلقاء القبض عليّ.

[١٦]

بين جدراني: فيروز النصرانية!

كم ساعاتٍ طوال أو ربما أيام استغرقها نوميَ المتصل، المتخلل بيقظات فجائية خاطفة، أذكر وطأة هلوساتها المروعة دون مادتها؟

حين أخذت أحك عينيّ، هالني أن أبصرت، والوقت ضحى، عيّنة جرذان وفئران مجتمعة على استهلاك ما تراكم من صحون الطعام أثناء سباتي؛ وهالني أكثر أن لحظت رأس امرأة يبرز من تحت ملاءة على اللحاف أمامي. حاولت الوقوف فلم أستطع. هششت مهددا على الجرذان وأخواتها الصغار فعادت من حيث خرجت. حبوت نحو حفرة المرحاض، غطيتها بحجرها، ثم نحو بابي فاستعنت بقضبانه على النهوض، وطفقت أصرخ ملء فمي، منبها إلى وجود امرأة في زنزانتي على غير سنة الله ورسوله. لم أحصد من ضجتي سوى ارتداد صوتي إليّ منهكا ضعيفا، أعقبه تعليق أقرب سجين خلف بابه: يا حمار! أتتك

أنثى إلى فراشك وترفضها! رجل أنت أم خنثى؟ انكح القحبة بالمجان، يا بختك! وإلا فوِّتها لي أمخضها نيكا كما لم أمخض امرأة من قبل. كبتي وصل سيله الزبى! فوّتها لي مقابل حشيش معتبر وللحارس حفنة بقشيش... إيش تقول؟

لم أعبأ بهذر جاري. أرحت أنفاسي وحبال صوتي قليلا، ثم عاودت صياحي مجددا، لم أجنِ منه هذي الكرة غير إيقاظ الرفيقة الدخيلة، التي انبرت تتهمني بالعمالة والتجسس عليها في زنزانتها ونومها. أنكرتُ ملكيتها للمحل، بدليل مطابقة رقمه ١١٢ لرقمي، وأنفقتُ بعض البلاغة في الهجوم المضاد عليها واتهامها بالمخبرة المخترقة، مُهِمّتها إغرائي بالزنى مقابل الحصول على معلومات، عجزتْ الغولة بالتعذيب استخلاصها منّي.

تصورت أن المحقق لربما يشاهدني الآن مع المرأة عبر كاميرا خفية، ويضحك ملء شدقيه علينا ويتفكه، فقفزت نحو لحافي واعتصمت به متكوما، لازقا بحائطي الخلفي، جاعلا في ذهني وجوارحي بين الدخيلة وبيني حجاب الله وما قدرت عليه من حواجز ومحاذير. لكن المرأة ما إن رأتني هادئا، أتحاشى النظر إليها، حتى انتفضتْ واقفة وتجردت من لباسها السجني تماما، وخاطبتني بلهجة العتب والتقريع:

ـ انظر... هذا جسمي أثخنوه كله بالأخاديد، كل طرف ومفصل فيه إلا وأنهكته الغولة وغيرها بالعصا المكهربة وشتى أدوات النهش والتجريح. هل بعد ما رأيت تصر على اتهامي بالتجسس والعمالة؟

أجبت مستحييا، محدقا في بعض ندوبها وقروحها:

ـ أنت التي، سيدتي، باتهامي بدأت الشر...

ارتدت لبسها وجلست متنهدة، مقرة:

ـ صح! سلوك التوجس والحذر يسري كالسرطان حتى بين من عرفوا إقامات في الكاشو، وذاقوا العذاب المهين الأمر... العتاة الخنازير نجحوا في خلط الأوراق والأدوار، وحوّلوا إخوة أشقاء إلى أعداء... دمرهم الله وجعل كيدهم يرتد إلى نحورهم.

تبدت لي الرفيقة الجديدة من كلامها مكلومة حصيفة. أضافت:

ـ إيه! مطابقة رقمك لرقم الزنزانة ليس حجة... اكتظاظ المجمّع بالسجناء لا يسمح لأيٍّ منهم بالركون إلى محل خاص. مرات عديدة وضعوني في زنازن للنساء وفي أخرى للرجال. مرات عديدة تناوب بعض هؤلاء على استباحة جسمي وهتك عرضي... لا تفزع مني. لن أغويك ولن أغتصبك كما تفعل سجينات مأجورات. قد أكون مثلهن مصابة بالسيفليس أو السيدا، لكن وحق مولاي الذي أخافه، لن أنقل دائي المفترض إلى أحد، ولو كان عدوي أو من الخونة...

سكتت المرأة فجأة وأغمضت عينيها، كأنها تغالب انفعالها بحبس دموعها. آنئذ تسنى لي تملي وجهها ذي الملامح المليحة

القاسية. عمرها يناهز الأربعين ونيّف، جسمها الضامر أضعفه العسف والتجويع؛ شعرها مخضب ببياض نوراني يضفي على هيئتها وكلامها مسحة رزانة ووقار.

سألتها متحننا:

ـ ما بك يا أمةَ الله؟ من أنتِ وماذا أتى بك إلى هذا المجمّع الرهيب؟

مسحت عينيها مبتسمة. غمرتني بنظرات تنم عن حزن دفين. انتقلت قريبا مني، استلت من جيبها قفازا أبيضَ غلفت يدي به وقالت:

ـ حكَّ ظهري للتخفيف عني، فيما أنا أحكي لك نتفة من حياتي. اسمي الميداني فيروز، شرفني به الرفاق ظنا منهم أني أحسن تقليد مطربتنا اللبنانية المحبوبة... ما بي، يا عبد الله، عين ما بك، مع اختلاف في الأعراض والظروف. كلانا يُسلط عليه الظلم والظلام، يُقهر ويُسحق حتى يدخل بيت الطاعة، خديمَ أعتاب الجبابرة الطغاة، مأمورَ تصاميمهم الفاشيستية وغاياتهم الشريرة. لأسباب لا أعلمها نقلوني من سجن أبو غريب إلى هنا، ولا سؤال لهم إلا أن أكشف عن أسماء وعناوين قوميين وشيعة وشيوعيين مقاومين أنتمي إلى تنظيمهم، ووشى ببعضهم زوجي الخائن، فأطلقت عليه رصاصة في الرأس أردته قتيلا... منذ سنتين وصناديد الجلادين الأمركان يرهقونني بالاستنطاق والتعذيب، لكن صبري الأيوبي هزمهم، لأني اخترت الشهادة

حاملةً صليبي ولقاء ربّي متى شاء وكتب. فهل عنى النهرُ غيرَ ما عناه لمّا فجرتْ عينُهُ فورتَهُ واجتذب البحرُ مجراه!

فهمت أن المرأة أمامي مقاومة عراقية نصرانية، خاطبتُها بلهجة الإكبار والتنويه:

ـ حيّاك الله، يا مولاتي، وبياك، وجعلك مع الوليات الصالحات والمناضلات الأبيات، اللائي لهن في الدنيا الذكر الحسن وفي الآخرة نعيم الجنات... أشرتِ، سيدتي، أنك نُقلتِ من سجن أبو غريب إلى هنا... أين نحن هنا؟

ـ لا أدري بالضبط (أجابت)، لكن الغالب على ظني أننا في مكان مّا من صحراء بالقرن الإفريقي أو متاخمة له، والله أعلم... أنا الآن متعبة، أريد النوم. غدا إن شاء ربنا وبقيتُ على قيد الحياة، أحكي لك المزيد عني وأسمع منك حكايتك...

لم تتمَّ جملتها الأخيرة، إذ اقتحم أربعة حراس الزنزانة، انتزعوا السجينة من لحافي واقتادوها بفظاظة وعنف إلى الخارج، غير آبهين بمعارضتي واحتجاجي، مكتفين بسبي واتهامي بالزنى وتهديدهم بالرجوع إليّ. جهرت نحوها بالقول: اسمي حمودة الوجدي، يا فيروز. اصبري وصابري، الله معك!... وردّت عليّ وهي ترفع شارة النصر: إذا لم يكن الله مع أمثالنا، فمع من يكون؟! مع من يكون؟!

من عتبة بابي وعلى طول دهليز الزنازن، تناهى إلى سمعي صوتها الفيروزي منشدا، تصحبه أصوات سجناء وتصفيقاتهم:

الغضبُ الساطعُ آتٍ وأنـــا كـلّي إيمـــان

الغضبُ الساطعُ آتٍ سأمرُّ على الأحـزان

مـن كـل طـريقٍ آتٍ بجيـادِ الرهبةِ آتٍ...

ساد الصمت دفعةً واحدة. تمددت على جنبي مرددا نشيد فيروز ذات السؤدد والعزة، وعند النطق بكلمات «الغضبُ الساطعُ آتٍ»، كم أشبعت مخدتي لكما، كم بكيت! سعالي العائد بقوة وحده أخرسني، فداريته بتسليط مرذاذي على فمي الفاغر تماما، سيما وأن أصوات بعض الجيران تنافست في حثي على طلب الانتقال إلى عنبر المسلولين وسطحهم. وبقدرة قادر هدأتُ وخنقتُ آخر كحاتي، منصرفا كليا إلى التفكير في ما يحل بفيروز الآن من سوء وأذى، وكذلك في حالي وقد أتعبتُ الجلادين ببسالة صبري على مكارههم وجرائمهم، حتى لكأني أصبحت في عرفهم فردا ميؤوسا منه، لا نفع فيه ولا خير.

متدثرا بإزاري الشفيف قيدت بعضا من تلك الخواطر على وريقاتي وأضفت إليها ما يلي:

لست أيوب ولا هرقل ولا عنترة بن شداد، وحتى أمثال هؤلاء من الأحياء، لو قيّض لهم أن يقعوا بين أيدي غيلان هذا المجمّع وطغاته، الذي أنا حلّ به منذ بضعة أعوام خلت، لكانت مصائبهم صنو مصائبي في الشدة والهول. منكوب الجسم أنا، مكروب النفس، لكني لم أُهزم بعد، وفي اعتقادي أني لن أهزم إلا بالضربة

الماحقة القاتلة التي تتردد قيادة المجمّع العليا في الأمر بكيلها لي، طمعا في انهياري وإعلاني الخضوع والتوبة. غير أني وقد استرخصت بقائي على قيد حياة أشبه بالموت بل أحطَّ وأفنى، فلا قيمة لي ولا معنى إلا في أن أكون حصاة في آلتهم وشوكة في أقدامهم. فاللهم أفشل مسعاهم إلى استعبادي وكسر كرامتي، وقِ عقلي من كل مكروه وزيغ عن طوره، وإن تحامقتُ أحيانا مضطرا متحايلا، فلحاجة في صدري أريد قضاءها.

محنتي السجنية علمتني ما لم أكن أعلمه، وكشفت لي في نفسي عن نوابضَ ومقدّراتٍ ما كنتُ أعيها أو حتى أفترض من قبل حيازتها. في سالف أيام حريتي المغلوطة، كان يصح عليّ كلام كاتب يغيب عنّي الآن اسمه، يقول تقريبا: كم أمطارٍ ورياحٍ عرضت لها جسمي، باحثا فيها عن نفحات القدس وانشراح البال، فلم أصب في نسيجها وعتوها إلا بزكام حاد، وسعالٍ رئوي من مايات شتى وأوزان!

أما اليوم... لم أتمَّ جملتي حتى داهم مربّعي منتزعو فيروز الأربعة. طمرتُ وريقاتي تحت لحافي وكشفت عن وجهي. أمرني حارس بالوقوف ناعتا إياي بالزاني؛ وأوضح آخر: الزانية اللي أخدناها من تحتك جلدناها مئة جلدة، وفي ذمتك أنت مئة مثلها، نوافيك بها عما قريب.

أعلنت صائحا بطلان زعمهم لانتفاء الشهود، فنهرني ثالثهم مدعيا أنهم هم الشهود الأربعة، تحِل شهادتهم في

الشرع وتكفي، وأمرني بجمع أطرافي ومرافقتهم. مددت أمام أعينهم قدميَّ الجريحين المتورمين، لاعنا شهود الزور والبهتان، ذاكرا وعيد الله فيهم، ثم خيرتهم بين أن يحملوني على أكتافهم أو يمدوني بعكازين، وحثثتهم على مطالبتي بحل وسط يضمن السلامة للجميع ولو إلى حين، قالوا: ما هو؟ قلت: أن تخلوا مكاني وتتركوني وحالي... تناظروا قليلا ثم انسحبوا ـ واعجباه! ـ منكسين رؤوسهم صامتين.

اتهامي بالزنى وتهديدي بالمئة جلدة ثم انصياع الحراس المذهل لمطلبي الأخير: كل هذا، ولا ريب من حظيات لقمان وألاعيبه الماكرة الخبيثة، وهو القاضي المحقق، لا أراني الله وجهه وظله. ولا غرو أن يرسل إليّ بأخرى متأرجحة بين الوعد والترغيب والوعيد والترهيب، فلن يجدني، بحول الله وقوته، إلا وفيا للعهد، ثابتا على الموقف كالطود.

انصرف فكري إلى فيروز. تألمت لاستفحال الأخاديد القديمة على ظهرها بفعل المئة جلدة الجديدة؛ تذكرت قولها الشائق لي: هل عنى النهرُ غيرَ ما عناه لما فجّرت عينُهُ فورتَه واجتذب البحرُ مجراه!؛ قول حقيق بالتأمل والتأويل، آمل أن أجالسه وأوفيه حقه باستجلاء أبعاده ومعانيه العلية، إذا ما فرّج الله كربتي وتخلصتُ من هذا المجمّع الصادم الرهيب... أما علييات بنت بلدي نعيمة فإني ما زلت أنظر في فك شفرتها وفهم لغزها ودلالتها.

خبط خابط على بابي آمرا باستلام وجبتي، أجبته ما أنا بقائم ولا بآكل حتى يأتوني بعكازين ويداووا قدميّ. فتح الحارس الباب. وضع صحنا حذائي ثم انسحب وهو يهتف: ما على الرسول إلا البلاغ.

غطيت الصحن بفوطة حتى لا تشم رائحتَه حشرات جوالة أو جرذان وفئران متربصة. ظللت في هيئتي منطرحا على ظهري، أرمق قطيْعة سماء من كوتي، أقيس الوقت بتغير لونها، وأترقب ما سيجدّ في أمر مطلبي وإضرابي عن الطعام.

من الزنازن المجاورة، كانت تنبعث أصوات شتى، هذا يتلو آيات من الذكر الحكيم، وذاك يدعو جيرانه إلى سماع قصصه بصفته حكواتي المهجع بلا منازع، وآخر ينادي بالإنصات إلى نكته الجنسية من صنع مراكشيّ خالص. وبعد اشتداد جو الهرج والضوضاء، علا صوت خشن قوي كأنه صادر من بوق، قال: الصمتَ الصمت في ما تبقى من اليوم. وإن غدا لناظره قريب. النظامَ النظام بديمقراطية التناوب على الكلام. وكل منتهك أو مشوش لا عطف عليه ولا سلام...

كانت هذي الكلمات إعلانا عن تخييم سكون مطبق على زنازن الدهليز كلها. ظللت أنتظر عاصفة تعقبه، فما حصل شيء منها ولا نزر. وبعد تكاثف السكون وتواتره، مصحوبا بلسعات برد قارس تنذر بشتاء زمهريري عديم الأمطار، تكوّمت تحت بطانيتي وأسلمت مقاليد قلقي وخوفي إلى نوم زاحفٍ كسيح من تدبير أورفيوس أو جذّابٍ منوّمٍ آخر...

[١٧]

أمام لجنة تسوية البنان

عند استيقاظي كانت ذاكرتي ما زالت رطبة بنتف رؤيا منامية، تبدى لي فيها ابن خالتي الحسين وهو يستغفرني في ما حصل لي بسببه، ويتعلل بكونه لم يطلعني أبدا على كفاحه حتى يبعدني عن كل شبهة أو متاهة قد لا تحمد عقباها. ولكن صدق نيته وقصده حيالي عاكسه عمى الطواغيت ورياحهم الهوّج. ودعا على هؤلاء بأدعية ما سمعت أبلغ منها ولا أحدّ؛ ثم نصحني بالصبر على مساءاتهم كيما تكون كلمة الله هي العليا، وغاب رفقة رجال مسلحين بين أدغال جبلية شائكة منيعة.

جوابي إليه فهت به يقظا وبادرت إلى تدوينه: لا ذنب لك، يا الحسين، في محني ولا جناح عليك. أما الصبر فقد صار معدني الثمين والمصابرة أمست عندي جِبلّة. فاطمئنّ عليّ واعتنِ بأحوالك ورجالك واهتمّ. وفقك الله إلى ما يُرضي الله.

هل تزجيةً للوقت ومداراةً لأمعائي المتضورة جوعا غفوت أو ربما نمت بعد إخفاء وريقاتي المحبّرة؟

يقظتي المفجوعة كانت بفعل ارتجاج أرجاء الدهليز كلها تحت خبطات أحذية طابور من الخبراء في تفتيش الزنازن ما ظهر منها وما بطن، ومعظمهم من الأجانب. وحين داهم فريق منهم مربعي، أمرني كبيرهم بمواجهة الحائط واقفا، رافعا يديّ. مددت لهم قدميّ ففهموا أني مقعد. أزاحوني عن لحافي، ومرّر أحدهم آلة إلكترونية على كل أطراف جسمي، انتزع من جيوبي محتوياتها، فحصها بعناية، أعاد إليّ مرذاذي واحتفظ بعلبيات نعيمة، ثم أخضع كل الأشياء حولي لبحث يدوي وبالآلة نفسها. سألني أحدهم بعربية لكناء، وهو يريني بين يديه علبياتي ومرآتي ووريقاتي والمجلات المهملة عندي: ما عدا هذي، هناك حشيش تخفيه، شفرة، موسى، بقشيش؟ أومأت بالنفي؛ ثم، بعد أن ذهبوا، حبوت نحو لحافي المفروث وتهالكت عليه، مفكرا في سحب وريقاتي مني وما قد ينجم عنه من عواقب سيئة ومضاعفات مشؤومة.

غيبتي المتصلة عن مطعم المجمع وساحته وملعبه لربما أقنعت القيمين أني مهدد بالشلل وجادٌّ في إضرابي عن الطعام. لذا لم تمض بضع ساعات على رحيل طابور المفتشين حتى أقبل عليّ ممرضان وحملاني على نقالة إلى المشفى. هنا أخذ واحد يعالج قدميّ ويضمدهما، وشرع الآخر في إخضاعي

للتغذية القسرية عبر أنبوب بلاستيكي حشاه في خيشومي حتى معدتي. عمليتان متوازيتان لم يكن لي بد من تحمل أوجاعهما المتنوعة، مع أني صرفت تفكيري إلى نعيمة وصديقتها الطبيبة العجمية، اللتين آثرت، من باب التحوط والحذر، عدم الاستخبار عنهما.

حينما فرغ الممرضان من عملهما، أوقفاني على عكازين جديدين وسلماني إلى حارس حليق الرأس بدين، اقتادني، وهو ينظر في ساعته، إلى قاعة سفلية في بناية المشفى نفسها، حيث أوقفني حذاء طاولة صغيرة قبالة منصة ضخمة. أقبل رجلان وامرأة من باب خلفي وجلسوا على أرائكهم متهامسين، ثم لحقت بهم الغولة واضعة على أذنيها سماعة ونعيمة ـ نعم نعيمة!ـ متأبطة ملفا، فجلستا على طرفي المنضدة. الذين لم أتعرف عليهم افترضت أنهم مناطون في المجمّع بمهمة خاصة. أنبأني الحارس في أذني أني في حضرة لجنة تسوية البنان، أجلسني وانتصب مستنفرا وراء ظهري، ملامسا قفاي.

كانت المرأة هي السباقة إلى أخد الكلمة بتلاوة نص يعرف بي، وبعده سألتني إن كنت أقر بما ورد فيه. أومأت بالإثبات. صفعني الحارس على قفاي وأمرني أن أقف وأقول: نعم سيدتي الرئيسة، ففعلت. طالبتني بالبقاء واقفا ولزوم دقيقة صمت ترحما على عزيزة ماتت، فلبيت. وبعيد انصرام الدقيقة

رجوتها أن تكشف عن هوية العزيزة المتوفاة، أجابت بحدة وغلظة: أمك. أخبرنا بموتها من نثق به...

هويت على مقعدي حزينًا مفجوعا، ثم تمالكت نفسي وقويتها بكون نعي أمي في هذا الظرف وعلى هذا النحو إن هو إلا خبر زائف مكذوب، هدفه النيل من معنويتي وكسر صمودي. تابعت المرأة كلامها:

ـ نحن أعضاء لجنة تسوية البنان الموقرة، اطلعنا على التقارير المتعلقة بك. استخلصنا منها ومن شهادة حضرة القاضي المحقق أنك شخص عنيد، قوي الشوكة والشكيمة، لك في امتصاص الصدمات قدرة معتبرة، ولك مثلها في هيتباراد الصبر على الآلام، تستحق عليهما ميدالية ذهبية. سعادة المحقق الموقر يصنفك في فئة المازوخيين، مستعذبي العذاب النازل بهم، وهي ـ هذه الفئة ـ عُملة قوية بقدر ما هي نادرة. بنانك إذن يهم رؤساء مجمّعنا، ويقبلون بل يبغون دمجك في سلك الخدمة. صحتك نعالجها، صك تهمك نسقطه، بما فيه موت جارك السجين صاحب الكيس وكذلك الزنى مع المدعوة فيروز؛ عيوبك نتغاضى عنها، بما فيها شغفك بالأدبيات البورنوغرافية والإضراب عن الطعام وهلم جرا، وذلك كله لقاء قبولك التوقيع على عقد الخدمة... قلت إيه؟

بصعوبة متناهية، وقفت مبديا نقطة نظام بشارتها المعهودة، صحت قائلًا:

ـ سيدتي، إن كانت أمي التحقت بالرفيق الأعلى، فإني لن أصدق الخبر إلا بشهادة وفاة شرعية لا غبار عليها. أما معظم التهم الموجهة إليّ، فأنا أعلن براءتي من سالفها وأيضًا من محدثها، كأكذوبة الزني وبهتان شغفي بالنصوص الخليعة...

قاطعني أحد الرجلين سائلا، وهو طِرمّاح نزق:

ـ وتسببك في موت جارك السجين، صاحب الكيس؟

ـ هذا الجار، سيدي، سمعت صوته ولم أره قط. والكيس وما فيه عذرة كله... خراء!

صفعني الحارس على أم رأسي صفعة سوتني بمقعدي، وهو يجلجل: حسِّن ألفاظك أمام اللجنة المحترمة، يا حمار!

تناوب الطرماح وزميله الدحداح على تطويقي بحزمة أسئلة، فقاطعتهما جالسا بنقطة نظام أخرى، قلت بصوت مسموع:

ـ أضربت من قبل عن الطعام، فأطعمتموني كرها بالأنبوب، والآن باسم شكيمتي وشوكتي أضرب عن الكلام إلى أن تبعدوا عني هذا الغوريلا اللازق بظهري.

ساد بعض الصمت في القاعة؛ أومأت المرأة إلى الحارس بالابتعاد، ففعل.

استأنفت الست استنطاقي بأسئلة قصيرة، فأخذتُ أوافيها بأجوبة على قدها. استفسرتني بلهجة لاذعة:

ـ العلبيات البلاستيكية، ماذا عنها؟

متحاشيا النظر إلى نعيمة المنهمكة في تسويد تقريرها، قلت:

ـ كانت في سلة المهملات بالمستوصف...

ـ لأيّ غاية سرقتها؟

ـ التقطتها للعب بها وقتَ فراغي...

ـ ومرآتك المخبوءة؟

ـ لأعاين فيها آثار التعذيب على جسمي وأحصيها.

تململ الطرماح وصاح بلهجة الكشف والإدانة:

ـ أو قل لاستعمالها للنحر أو للانتحار...

ـ ليس عليَّ أن أقتل النفس التي حرّم الله ولا أن أقتل نفسي.

ـ لا علينا... لنأت الآن إلى نقطة مهمة. عثرت لجنة تفتيش بين أوراقك على مقالة لمجهول عن الصراع العربي ـ الإسرائيلي، سطرت على فقرات منها، هل تؤيدها؟

ـ المقالة في جريدة لا أدري من وضعها في زنزانتي ضمن جرائد ومجلات، ولا شك ألقيتم نظرة عليها. تلك الفقرات سطرت عليها لأنها في حكمي معتبرة وعين الصواب. إنما ذكروني ببعضها...

ـ ببعضها فقط نظرا لضيق الوقت: الفلسطينيون مخيرون

إسرائيليا بين الخضوع والانصياع وبين المنافي أو الاستشهاد. كيف لنا إذن أن نثق في مفاهيم الغرب عن العدالة الإنسانية ونقيسها بمعياري الضرورة والشمولية؟

تجردت للقول متحمسا:

ـ وما ردكم على السؤال الثاقب ذاك؟

ـ نحن الذين نسأل (صاح الطرماح)...

أضفت من دون أن أخاف في قول الحق لومة لائم:

نعم أذكر أيضا أن الكاتب، وهو عندي سليل الدوحة العلية، دوحة الأحرار العادلين، أضاف ما معناه: إني لا أرى أي تبرير معقول لعقاب العرب على الجرائم النازية، كما لا أرى أي شرعية لإقامة حركة توسعية في الأزمة الحاضرة على ذكريات توراتية...

قاطعني الدحداح متنطعا:

ـ إذن أنت تتبنى مجمل تلك المزاعم؟

ـ نعم، كما أتبنى خاتمة المقالة النيرة: إن صراع العرب ضد إسرائيل والقوى الداعمة لها لهو الوجه الآخر لصراعهم ضد عجزهم وتأخرهم...

ـ كاتبك لم يكن بعيدا عن معاداة السامية ونفي الهولوكست. هل أنت أيضا تنفيه؟

ـ لم أقرأ شيئا من هذا في المقال. والهولوكست إذا عنيتم به المحرقة التي أجرم النازيون بارتكابها في حق يهود أوروبا على دفعات صادمة وبالجملة، ها هي دولة إسرائيل قبيل إنشائها وطوال عقود وجودها تجترح في حق الفلسطينيين صنو تلك المحرقة، وإن بالحقن والتقسيط، تكسر عظامهم، تغتصب أراضيهم تباعا وتنسف مساكنهم وأحياءهم، تهين يوميا كرامتهم وتحشرهم بالآلاف في معسكرات اعتقال، تدنس مقدساتهم وتهوّد مآثرهم وما لهم من شجرٍ وحجر، ثم وامعتصماه!...

علا صوت الطرماح على صوتي معززا بضربات مطرقته على المنضدة:

ـ كفى لغطا، كفى... لنأتِ الآن إلى النقطة الأهم: رسالتك إلى ابن خالتك المطلوب للقضاء...

قاطعت الرجل محتجا:

ـ لم تكن رسالة بل بطاقة سجلتُ عليها نتفة من رؤيا منامية، تبدى لي فيها الحسين ابن خالتي...

ـ في أيّ مكان رأيته؟

ـ على جبل شامخ ذي مياه وأشجار، لا أدري موقعه على الأرض...

زمجر الدحداح مهددا:

ـ وماذا قال لك؟

ـ مفاد كلامه أنه، من شدة محبته لي وعطفه عليّ، لم يطلعني أبدا على كفاحه، وذلك حتى يقيَني من كل شبهة أو متاهة لا تحمد عقباها.

ـ كم عدد المسلحين الذين كان يقودهم؟

ـ لم أر غيره...

ـ هل تحلف أنك لم تلحظ جماعة معه؟

ـ إنها مجرد رؤيا منامية، فعلامَ أحلف؟

ـ صح! (علقت المرأة). الآن تعود إلى زنزانتك. تُفكر جيدا في عرض دخولك سلك الخدمة، وتبلغ سعادة القاضي المحقق باختيارك الأخير... لا تحرق أوراقك كلها، حسّنْ ما بقيَ لك منها تنلْ أوراقا أخرى رابحة... رُفعت الجلسة.

ندت عنّي ضحكة مسموعة لم أستطع خنقها، قلت:

ـ أوراقي تقولين مولاتي! منذ جيء بي إلى مجمّعكم لم تكن عندي أوراق حتى أحرقها... ولا واحدة... ولا بعضها...

ألقيت نظرات عجلى على نعيمة وهي تنسحب مع أعضاء تسوية البنان من باب خلفي. وقفت متكئا على عكازيّ وتوجهت نحو حارسي المستنفر، المقطبِ الوجه. تلثم وسألني بصوت أجش إن كنت أريد مداواة قدمي، أومأت بالإيجاب. أمرني: إذن عكِّز خلفي...

في غرفة بالمستوصف فحصني طبيب عليه سمات الجرّاح وصدرية ملطخة بالدم، كأنما هو جزار آتٍ من مسلخ أو ما شابه. مقوسا حاجبيه حذرني من خلف قناعه الطبي أن قدمي اليسرى الكثيرة التورم والتقيح آخذة في الغنغرة، وقد تحتاج بعد أيام إلى عملية بتر. رجوته أن يعالجها فورا. قال حارسي اللازق بي: ليس قبل أن تفشي ما تخفي. أجبت: على ما صرحت به والله ليس لي زيادة...

أوقفني على عكازيّ وأمرني بالخروج معه. لبيت الأمر وسرت مقاوما دهدهتي ودواري بترجيح ظني أن توقع الطبيب قد يكون هو الآخر من إحدى مساومات المتشيطن الخبيث وألاعيبه، القاضي المحقق، لا أرانيَ الله وجهه.

لو كان بإمكاني التخلص من هذا الرقيب الثقيل الظل والخطو، لذهبت وحدي، متفقدا في المجمّع أمكنة وأجنحة وفضاءات لم أرها قط، وبشرا لم أتعرف عليهم، ولو أني أشتم وجودهم وعيشهم في ظروف لعلها أفظع وأقسى مما عرفت. لكن رقيبي مأمور بملازمتي حتى يودِعني في زنزانتي، مربع ضيقي وقنوطي. سألته قبل أن يغلقها عليّ، عن سبب تلثمه فذكر واحدا لا ثاني له: حفظ أنفي من شم روائح السجناء الكريهة، وإذن رائحتك أنت.

كلاب، بل أولاد من لا دين لهم ولا خلاق!

يقترون في مد السجين بالماء، لا يتعدى نصيبه اليومي منه نصف سطل، يشرب منه ويتوضأ ويستنجي ويرش بعض أطرافه، ثم يعيّرونه بنتانة رائحته. نتانةُ كينونتهم وطباعهم المتأصلة لهي، والله، الأفدح والأدهى، لا تنفع في إزالتها مياه الدنيا ولا عطورها. خطر لي أن أقول كل هذا للملثم الغبي، لكني أحجمت نظرا لعيائي ويأسي من كلام عديم النفع والجدوى.

جيراني، وقد تمددت على لحافي، كانوا على غير عادتهم خالدين إلى النوم، لا يسمع إلا شخير بعضهم، وقد يكون المؤرقون منهم يدارون مثلي أوجاعهم وهواجسهم في صمت مطبق، أو بأنات بالغة الخفوت وعبرات خفيّة منهمرة.

[١٨]

حال رجلي تسوء والدهليزيمور

في الصباح، وأنا أحتسي قهوتي وأقضم كسرات خبز، قفزت إلى ذاكرتي رؤيا منامية تبدت لي فيها أمي حيّة تزرق، بين جمع من النساء، ترسل الدموع السواجم، تتنهد وتشهق، شاكية إلى الله ثكلها وحزنها، متضرعة إليه أن يتغمّد ابنها الأوحد بعطفه ورحمته. وحين تصبرها النسوة وتمنّينها برجوعي، تضرب على فخديها تارة وترفع كفيها إلى السماء تارة، وتئن قائلة: أعرف ولدي. يستحيل ينساني ولا يرسل إليّ وريقة، حتى لو كان في قاع القيعان. ابني طمرته الأرض أو أكله حوت البحر...

بل إنهم غيلان التجبر والظلم، يا أماه، يتفانون في نهشي والنيل من همتي وبأسي. لكني ما زلت صامدا صابرا بعون الله ورضاك عليّ، أنا الذي أحسنتُ دائما إليك ولم أقل لك أبدا أفٍّ.

إعاقتي القسرية حدّت من حركتي داخل مربعي. بعض

حاجاتي المستعجلة بتّ أقضيها حبوا. حتى الحراس صاروا يؤثرون إعفائي من مرافقتي إلى المطعم العمومي أو ساحات التريض والمشي؛ وشمل هذا الإعفاء القيام بغسل أواني المطبخ الرئيسي، وكنس ردهات وممرات، وتنظيف زنازن المرضى وذوي العاهات، ما عدا بالطبع زنزانتي.

انصرف همي كله إلى مراقبة حال رجلي اليسرى والنظر في شغل نفسي بما يخفف عنها وطأة القنوط والضيق. عندما جاءني حارس بوجبة سد الرمق، توسلت إليه أن يمكنني من قلم وأوراق. طلب المقابل. وعدته بأدعية صادقة له ولأحبته. أطلق ضحكة صاخبة في وجهي ثم عبس وسألني جادّا: دعاؤك مستجاب؟ قلت إن كان بالخير وصادرا على لسان مؤمن ممتحَن مثلي، فقد يستجيب الله له، هو الوهاب الكريم. ردّ عليّ بشيء من الانفعال: آتيك بما تطلب مع وجبة الغد أو بعده. لكن ليس قبل أن تكرمني بأول دعاء... لي مع زوجتي الأولى بنت عانس في الثلاثين، ادع لها أن تجد بعلا من أولاد الحلال؛ وزوجتي الثانية لا تلد لي سوى البنات! وهي اليوم حامل. ادع الله لي أن يخرج لي منها هذي المرة ولد ذكر... استجبت لطلبه بما قل ودل، فهرع إلى الخارج فرحا شاكرا. سجلت لحسابي أني لأول مرة، أثناء إقامتي في هذا المجمّع الرهيب، أتبادل مع حارس كلاما ذا طابع إنساني، ولو أني لا أضمن حسن مجراه وعاقبته.

في دهليز الزنازن المجاورة دبت حركة غير عادية. زحفتُ نحو بابي لإصاخة السمع واستراق النظر. استنتجت أن الحرس والرقباء منهمكون في ترحيل سجناء - مرضى أو أموات - وتعويضهم بآخرين يشي ضجيجهم ووطء أقدامهم بأنهم كثر، كُلفوا بكنس زنازنهم الجديدة وتنظيفها.

استبشرت خيرا بهذه الساكنة الوافدة التي قد يخلق اكتظاظُها نشاطا دائبا من شأن حرارته أن تزيح عن القلب، ولو بمقدار، صدأ الملل والوحدة الخانقة، ويحد شيئا ما من اكتساح فصل شتاء شحيح المطر، شديد البرد القارس.

لم يخب ظني، إذ ما إن حل وقت العشي وأخذ السجناء الجدد قسطا من الراحة حتى انبعث صوت جهوري قوي يدعو المقيمين إلى الدنو من أبوابهم. لبّيتُ الدعوة معكزا، ومما تناهى إلى سمعي من كلام الرجل:

«عباد الله... حكم علينا الطواغيت بما يحرّمه سبحانه وتعالى وكل الشرائع. أنا وبعض الإخوة من جيرانكم هنا قضينا سنتين ويزيد في البلوك ٧، يسميه سدنته الجحيم الأولمبي أو مختبر هيتباراد التعذيب، الذي في تقديرهم المعتل يدفع بقيس إلى التنكر لليلاه وبعنترة إلى التخلي عن عبلاه... من النزلاء من ماتوا مرضا أو وضعوا حدا لحياتهم بعد أن جُنّوا، عفا الله عنهم؛ ومنهم من على مرآى المنعوتين للترهيب، أعدموا في حقول الموتى المغمورين أو أجبروا على حفر

قبورهم بأيديهم. تغمدهم الله جميعا بواسع رحمته وأسكنهم فسيح جناته، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

«عبد ربه مخاطبكم والإخوة الباقون على قيد الحياة وُضعنا في هذا الجناح ـ ربما إلى حين ـ بعد أن ضاق معذّبونا بنا ذرعا، وآثروا أن نخلي المكان لمن هم في تصورهم أقل بأسا وصبرا في تحمل أهوال الجحيم الآنف الذكر...».

«شركاءَنا في الأسر... نحن النزلاء الجدد لسنا من جنس ملائكي منزه معصوم، ولا من أطياف الرهبانية وتاركي الدنيا وأهاليها، بل نحن مثلكم، اخترنا سبل الحياة الحرة الكريمة، واسترخصنا أرواحنا دونها، نتألم ونشقى ولا نبغي عنها بديلا. خيارنا كخياركم، هو عندنا جميعا الميزان المضيء، ورهان الوجود الأبقى والفوز المبين، وحدَه وقتَ المحن والشدائد، يحوّلنا إلى جمرات تحت الرماد، يقوي صمودنا وصبرنا، ويقرب أعمالنا من آمالنا...».

«اللهم إني قد بلغت. فلنعدَّ لعشرتنا أسباب اليسر والهناءة، ولوقتنا ما يليّنه ويفيدنا. قال تعالى في سورة يوسف: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾؛ وجاء في درر عليّ كرّم الله وجهه: إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، فابتغوا لها طرائف الحكم...»

انصرم صوت الخطيب فجأة، وتبين لي السبب في مداهمة

طابور من الحرس للدهليز، آمرين السجناء بالصمت ولزوم أركانهم، ثم سُمع صوت كبيرهم يصدع باللعن والسب، التقطت منه: وعدتني يا داعية الفتنة الباطنية أن تثوب عن هرطقة التشيع، ونكثت وعدك. لم تترك لي من خيار سوى قطع لسانك. كمِّمُوا فمه وخذوه إلى حيث ينال أمام الشهود جزاءه...

ما إن خلا الدهليز ومحيطه من طابور الحرس حتى عمّ المكان سكون مخيف، زاد في تعميقه زحف سدول الظلام وتلحف السجناء كل ببطانيته توقيا من قرسات برد الليل الصقيعي، ومثلهم فعلت، سيما وأن حرماننا جميعا من وجبة العشاء بات في حكم المؤكد، وذلك جراء إنصاتنا للداعية المغضوب عليه وعدم مجابهته وإسكاته بكلمات الردع والتكفير.

رجلي المريضة أخذت تمعن في إيلام كل أعضاء جسمي، ولو أني دثرتها بما استطعت، أضف إليها، يا خالقي، السهاد الممض وتزاحم الصور الرقطاء اللاسعة في ذهني، كل ذلك ولّد لدي رغبة عارمة في إطلاق صرخات مدوية مستغيثة، لم يمنعني من تلبيتها إلا خوفي من إيقاظ جيراني وإفساد النوم عليهم؛ لذا جعلت كفايتي في زفرات مكتومة لا تتعدى أذنيّ، شبيهة بأنات مصاب بالإمساك المعوي، آيته الدفع بالتي هي أحسن.

ظللت على تلك الحال، لا يعلم بسوئها وضراوتها إلا الله،

حتى إذا حل الهزيع الثاني من الليل، تردد في أرجاء الجناح صياح سجين يطلب كُلّاَبًا يقتلع به ضرسا يؤلمه. سمعت أصواتا تنهره وتسبه، وأخرى تنصحه بالصبر حتى يجيء حرس الصباح؛ هذا والمسكين يتضور وجعا، ويلهث بكلمات حرى مؤثرة، مفادها أن رئيس ممرضي المستوصف اشترط عليه لقاء علاجه أن يكشف عن أسماء وعناوين مافيا سلفية، يدعون انتماءه إليها وهو منها براء. وبقي يمعن في الصراخ ويسأل المحتجين عليه عما عساه يفعل. وبغتة انقطع صوته تماما، كأنما أغميَ عليه أو جُرجر بعيدا مكمّمَ الفم وربما سليب الأنفاس.

مصائب قومٍ عند قوم فوائدُ، قول المتنبي هذا يصح عليّ في مقامي الراهن. انشغالي بشكوى الأسير الضاجة الصارخة ألهاني عن ذاتي، وما قد يكون آل إليه من سوء العاقبة جعلني أحمد الله على كتمان أوجاعي، بالرغم من أنها، حسب تقديري وإحساسي، أفظع وأعتى من ألم سن ولو كان ضرسا. وبعد هذا الحمد وذاك الإلهاء، رفرف على عينيّ نعاس قسري أشبه ما يكون بالغيبوبة المخدِّرة.

[١٩]

من حظيات المحقق تعييني مفتيا

يقظتي هذا الصباح كانت فريدة من نوعها، غير مسبوقة، أي على نغمات الطبل والغيطة، تردّدت أصداؤها في جنبات الدهليز، مصحوبة بجلبة جيراني المنتفضين المتسائلين. وكم دهشت وذهلت لما اقتحمت مكاني الجوقة المكونة من رجلين، يتقدمهما العملاق الأسود حاملا على رأسه صينيتين، وحطهما أمام عينيّ أنا الجالس بين عكازيّ ما إن توقف صاحباه عن صخبهما. أقدم أحدهما على غسل يديّ بمزهرية ثم وضع اليمنى على مصحف من القرآن الكريم داخل صينية طالبا مني أداء القسم. سألته علامَ. قال اليمين أولا وإظهار السبب ثانيا. قلت هذا لا يحل، وكررتها ثلاثا. اضطر الرجل الثاني لمواجهة صدودي إلى سحب رقعة من كمه وتسليمها إليّ، مدعيا بصوت رسميٍّ أجش أنها مرسوم إجازتي للإفتاء بتوقيع حضرة القاضي، لا ينازعني فيها أيُّ داعية باطني بل ولا

أيُّ فقيه ظاهري. وأضاف أن الصينيتين وما فيهما من ملبس ومأكل ومشرب هبة من سعادته إلى المعيّن الجديد للإفتاء، وإشارة احتفاء بترقيتي وإسباغ النعمة عليّ...

منكسا رأسي وبالعا ريقي من شدة استغرابي وامتعاضي لما يفيض به خيال القاضي المخبولِ المعتل، لزمت الصمت قليلا لإعداد الرد الثاقب الفادح على العرض المفخخ المغرض؛ هذا فيما الجيران يتناقلون ساخطين لاعنين خبر أقربهم إليّ عما يدور في زنزانتي؛ وتعالت أصواتهم حادة متصاعدة، هذا يتهمني بالجاسوسية والعمالة؛ وذاك يؤيد التهمة بكوني أحظى من المحقق بجلسات مطولة وبمعاملة تفضيلية مريبة، منها تمتيعي بزنزانة سينغل وإهدائي صينيتين يعلم الله ما فيها من خيرات؛ وآخر يحتج عليّ ببذلة راقية ذات كرافت مواتية لاحظني مرة أرتديها، وأيضا بحذاء نايك رآني مرات أنتعله مزهوا. وهكذا اجتمعت حناجر الجميع والتفّت على سب الخونة والمخبرين مثلي، وتوعدوني بأسوأ عقاب من الله وعباده...

استعنت بعكازيّ على الوقوف. نبهت زواري أن ترقيتي تستحق جولة استعراضية أمام جيراني. قال حامل المصحف معترضا: ليس قبل أداء اليمين. أجبت: الجولة أولا... تناظر الموسيقيان لحظة ثم تقدماني والعملاق خارج مربعي. على طول الدهليز، عكزت صائحا ملء حلقومي: حسبيَ الله ونعم الوكيل! يخذلني من أناصرهم! وكررتها ما استطعت، حتى إذا

انقطعت كلمات القذف والتشهير في حقي، أردفت وأنا أكشف عن رجلي المتورمة المتقيحة:

إخوتيّ في الأسر... هل تصح تهمتكم على من مثلي يعكّز للمشي، وله رجل موعودة للقطع؟ جلاّدونا يساومونني في علاجها مقابل أن أتعاون وأتجسس، وأنتم تسِمونني بما أنا براء منه! أدعو الله لكم بالعفو والصفح، وأدعوه تعالى أن ينقذنا جميعا من هذه المحنة العصية التي سلطها علينا الطواغيت، وزرعوا لنا فيها عبوات النسف وأسباب التوجس والشقاق. اللهم استرنا برحمتك وغفرانك، وخفّف عنا مشاقَّ السعي إليك، وآزرنا واعضدنا ولا تكلنا إلى أنفسنا الواهنة المضطربة. اللهم شدّد عقابك للذين ظلموا وطغوا في الأرض، وأنجز فيهم وعيدك في الدنيا قبل الآخرة. آمين، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربّ العالمين.

كان السجناء جميعهم واقفين وراء قضبانهم، لاصقين بها، يرددون مع كل دعاء آمين، مادين إليّ أياديهم بالسلام وطلب المعذرة والسماحة، وأعيُنُ بعضهم تفيّض من الدمع؛ هذا فيما العملاق يحول بيني وبين مرافقيه، وعلامات التأثر بل البكاء بادية على وجهه الضخم ومقلتيه المحمرتين.

حين شعرت بوجوب إيقاف التظاهرة، تجنبا لعواقب قد تكون وخيمة، قفلت معكّزا إلى وكري، متبوعا بالرجال الثلاثة. أوقفني الغياط وذكرني متلعثما بأمر أداء القسم، فرددت عليه

بصوت مسموع وصل ولا شك إلى أقرب جيراني: لا قسم لي على وظيفة أرفضها ولا قِبل لي بها؛ كما أمتنع عن قبول الصينيتين وما فيهما. أخبر بهذا سيدك، وأبلغه أن السجين ١١٢ يحتج في موقفه بقول فطاحل الفقه وأئمته: من أفتى قبل أن يتعلم كمن تزبّبَ قبل أن يتحصرم...

ردّدت أصوات كثيرة هذي المقولة نقلا عنّي أو عن ملتقطيها من أقرب جيراني، هؤلاء بلهجة الإقرار والتثمين، وأولئك بصيغة الاستفسار عن المناط والفحوى، وآخرون طالبين معنى «تزبّبَ» في لسان العرب. أعرضت عن أي كلام في هذي المسائل، فولجت مربعي، ملقيا على العملاق نظرة ودّ وامتنان، سيما وقد منع الطبال من أخذ الهدية ولازم الرجلين في طريق الانسحاب.

بعد مضي لحظات، استرددت فيها أنفاسي كما لربما فعل كل رفاق الأسر، ملت إلى الصينيتين، أبصرت على إحداهما بوقا لا شك أن المحقق أراده لي أداة لتبليغ فتاواي. تناولته مجربا، قلت:

إخوة الدهليز والجناح كله! إبراءً لذمتي أطلعكم على ما في الصينيتين: واحدة تحتوي مقبلات وفواكه شتى طازجة أو يابسة وقناني لبن وماء؛ وفي الأخرى نسخة من القرآن الكريم وتفسير الجلالين وسجادة وسبحة وجُبّة وقلنسوة وطيلسان وألبسة داخلية ونعلان ومبخرة بقطع من العنبر والعود القماري

ومزهرية وأخيرا ترانزستور؛ والهدية كلها هي الآن متاع لكم، توزعونه بينكم بالتراضي والأريحية...

تناهت إلى سمعي أصوات كثيرة تُملكني المتاع ذاك غنيمةً حلالا مستحَقة، وانفرد صوت قوي الحجم والوقع بالثناء على رفضي القاطع لرتبة الإفتاء المعينة من طرف الإدارة، لكنه التمس مني باسم إخوة الأسر ألا أبخل عليهم بالإرشاد والموعظة الحسنة، مصداقا لقول سلفنا الميامين: الدين النصيحة...

اغتنمت انقطاع الأصوات وعودة الهدوء إلى الدهليز بسبب تفقدات حرس سمعت أصداء خطاهم، فتمددت على ظهري أنشد الراحة وأرمق الغنيمة الحلال المستحقة في صينية المأكل والمشرب. وبينا أنا أجرّب أصغر ترانزستور رأيته وألتقط بثه المتقطع الضعيف بلغة متخشخشة عجماء، إذا بي ألحظ نبشا في أسفل الجدار المحاذي للحافي، حسبته بدءا لفأر يبحث عن منفذ، لكن سرعان ما برزت عبر الثقب جعبة من الورق المقوى وصلني منها صوت يعرّف بنفسه وبالجعبة على أنها تيلفون التواصل بين نزلاء الزنازن. سألني إن كنت على الموجة، أجبت أي نعم. وما إن اطمأن على جودة الخط حتى قال إن له حزمة أسئلة من وضع سجناء كُثر، جمّعها وانتقى أحسنها وأذكاها، ومفاد بعضها في جواز ذكر اسم الله، سبحانه وتعالى، في هذا السجن الملوث بالكبائر والمنكرات، وبالنتانات من كل صنف

ونوع. رددْت وفمي على مدار الجعبة: يجوز بل يجب ذكر الله كثيرا لتقوية النفس على الجلد والصبر في محنة العذاب والمساءات، كما كان حال المسلمين الأُول، أيام الجاهلية وانتشار الخمر والميسر والأصنام والأزلام وظلام الوثنية ووأد البنات...

ثم بلهجة متحرجة، أضاف الصوت أسئلة سوّغها بمقولة لا حياء في الدين، ومجملها يتعلق بسجناء يعانون من الإسهال والإمساك والبواسير، وآخرين من كثرة الاحتلام في النوم واليقظة، وبعض هؤلاء، والعياذ بالله، تصيبهم الغلمة ويحصل لهم القذف المنوي ما إن تقع عيونهم على سجينة أو حارسة أو راقنة. أما فئة أخرى، وهي من وجهٍ مجانسة لهذه الأخيرة، فأصحابها يسألون عن حكم الشرع في اضطرارهم إلى الاستمناء للتخفيف عن أنفسهم من شدة الكبت والحرمان... ومشكلة المشاكل لكل هؤلاء وغيرهم تكمن في ندرة الماء وشحه، مما يعيق حاجتهم إلى التطهر وإزالة الجنابة، ويعطّل وضوءهم وصلاتهم.

بثت أجوبتي لماما في أذن من أضحى بمثابة مسمّع الجماعة، فسردت ما تيسر من آيات رفع الحرج والعسر وأخرى في الرفق واليسر، وذكّرت بوجوب الاستتار عند الابتلاء، وبأن الضرورات، في حالات قصية قاسية، تبيح المحظورات، ثم أوصيت بالتيمم وأداء صلاة الخوف وصلاة المريض والأسير،

كما نهيتُ المرضى والمعتلين عن الصيام في رمضان وسائر الأيام، حتى لا يلقوا بأنفسهم إلى التهلكة...

«ما على الرسول إلا البلاغ. كلامك أوصله كله بحول الله إلى طالبيه. أسمعُ خطوات الحرس. غطّ الثقب بترابه، وإن لاحظوه يوما، لا قُدّر لك، فحمّل مسؤولية حفره إلى الفئران والجرذان فتُعذر وتَسلَم».

كان هذا آخر ما نطق به المسمع قبل أن يسحب جعبته على عجل. نفذت وصيته بخصوص الثقب، وبقيت على هيئتي أراقب ما حولي وأشتم. أطلَّ عليّ موزع الوجبات بنظرة تومئ بشيء واحد لا ثانيَ له: لك في الهدية ما يغنيك عن وجباتِ أيام وأيام... يا بختك!

صينية المأكل والمشرب أحبّ العملاق الأسود، جزاه الله خيرا، أن تكون من نصيبي وحدي، ولو أعرضت عنها فستكون، لا ريب، من نصيب الحيوانات اللبونة والحشرات النقابة. استبعدت احتواء موادها على سمّ قاتل لكون مرسلها ما زال يريدني حيّا لتسخيري في مآربه الشيطانية كالتعاون والتجسس والإفتاء، وهلم جرا. تغذيت برغيف وتمر ولبن، صببت على وجهي بعض الماء وأديت متمددا ما قدرت عليه من صلوات، مروضا نفسي على نيل قسط من السلوان وراحة البال، فإن لها عليّ حقا لا بد لي منه.

أثناء استرخائي، تذكرت الحارس الذي وعدني بقلم وأوراق

ودعوت له بدعاء طلبَه مني. استغربت لغيبته وتأسفت، متمنيا أن يكون السبب خيرا. وفيما جريت وراء أفكار مبهمة وتوهمات، انغمستُ في نعاس قسري ملتبس، امتد بي إلى جوف الليل حيث انكسر بفعل رجات في الدهليز، أثارها صوت سجين يستصرخ ضمائر الممرضين ومن في قلبه ذرة رحمة لتخليصه من آلام بواسير حادة تحرمه من التغوط والنوم.

هتفت أصوات برقم زنزانتي طالبة منّي إسكات المريض بفتوى أو نصيحة. أجبت بالبوق أني جاهل بالطب والصيدلة، لكني، عوض ذلك، ذكرت له لماما حكاية صوفي من فرسان الحياء والفلاح، نال حصته من البواسير إلى حد الاستفحال والوجع الأعظم، فكان يصبر عليها حتى لا يسمع بها أحد ولا ينظر إلى عورته أيٌّ كان. ويروي بعض مريديه المقربين أنه كان، قبل أن يتوفى بمرض آخر، يجاري قصص الأمم والأقوام الذين هلكوا من قبل، كعاد وثمود وفرعون ذي الأوتاد، ويجعل منها مروحة، وذلك كلما بلغ به الألم مبلغ التضرع والانهاك...

تنافست أصوات في تبليغ خبري، وسماه بعضهم نصيحتي الضمنية، فأوعزوا للمريض باتباعها كي يستريح من أوجاعه ويريح الآخرين من ضجيجه. وفعلا، ما هي إلا دقائق حتى خيم على الدهليز ـ واعجباه! ـ صمت مطبق مكّن النزلاء من استئناف نومهم، مفكرين على الأرجح أن ما حدث كرامة من كراماتي، وليس الأمر من زاويتي كذلك. ظللت على وضعي

يقظا أشيّع عقابيل الظلام إلى مثواها السحيق وأترقب أول الأنوار.

مع مطلع الصباح دخل عليّ الحارس الذي طالما انتظرته. حط أمامي صحن الفطور ثم انحنى عليّ مقبلا رأسي شاكرا. سألته ما الخبر، قال طرِبا بصوت عالٍ رجوته أن يخفضه:

ـ أنت والله وليّ صالح ودعاؤك مستجاب. بنتي العانس تزوجها ابن حلال، وامرأتي ولدت لي ولدا ذكرا بعد أن لم أرزق منها إلا الإناث.

ـ هذا (علقت) من فضل الله وحده، لا شكر إلا له، هو الكريم الوهاب.

ـ هذا كيس أوراق وأقلام أعطيكه وفاء بوعدي. ويكون لك مني أعظم منه لو أنعمت عليَّ بدعاء آخر...

قاطعته متحرجا:

ـ هل هو دعاء خير؟

ـ كله خير لي... أن يدمر الله رئيسي بسكتة قلبية ماحقة حتى أتخلص من قهره وأرتقيَ مكانه.

ـ هذا دعاء وعر وعاقبته غامضة...

ـ أرجوك لا تحرمني منه... أبوس يدك...

ـ تلزمني معلومات كثيرة عنك وعن رئيسك وعن موقع المجمّع وهويات رؤوسه ومديريه.

ـ ما أعلم مما تطلب نزر يسير. وهذا النزر لو أفشيته لطاح رأسي، يا وليّ الله، قبل أن يُطيح دعاؤك برأس قاهري... عليّ الآن بالذهاب قبل أن أثير حول علاقتنا الشبهات...

ـ اذهب وفكر ودعني أفكر، لكن هل لك أن تمد يد العون إلى مرضى هذا الدهليز؟

ـ سأخبر بحالهم وبحالك طبيبة أثق بها وبعض الممرضين. أستودعك الله.

قبّل الحارس جبهتي وهرع مسرعا إلى الخارج، ولساني ينغل بالسؤال عن هوية الطبيبة إن كانت تلك التي قابلتها من قبل في المستوصف وعاملتني بالحسنى... التفتُّ إلى صحن الفطور، التهمتُ ما فيه قبل أن يتجمد، ثم إلى رجلي فرأيت تورمها يزداد، وزرقتَها القاتمة تزحف من شدة احتقان الدم وتخثره في العروق. بادرت إلى لفها بطيلسان المفتي درءا عنها قساوة البرد الصباحي، ثم سحبت الألبسة الداخلية من الميدة فارتديتها بجهد جهيد، وتدثرتُ بجبة المفتي من تحت بطانيتي منتظرا ما قد يأتي.

الملل والثبوت، في عرف الجلادين، من صنوف التعذيب النفسي التي يسلطونها على الأسرى لكسر شوكتهم وحشر معنوياتهم في درجة الصفر وبين ثنايا انهدامهم، وذلك حتى تغزو رؤوسَهم وأبدانهم حشائشُ الخنوع والانبطاح. لكني، ملتفتا إلى الوراء، أراني ذهبت بعيدا في رياضة التمنع والصبر

واكتساب النفَس المثابر الطويل، فلا يحق لي بعد ما طويته من مسافات وعقبات أن أكلَّ وأرضخ. رجلي مرشحة للبتر، فليبتروها، وربْوي قد يعاودني في أي وقت؛ لكن، وحق من خلق وكوّن، إما أبلغ خط النجاة والنصر، ولو بالزحف، وإما أهلك دونه وأُسلم الروح إلى باريها راضية مرضية.

سجلت خواطري تلك على ورقي الجديد، وأضفت إليها أخرى في ذم البغي والعبودية المذلة وتقريظ هواء الانعتاق والعيش الحر...

همسات من ثقب الجار عبر جعبته أوقفتْ نشاطي. بدأها برفع آيات الشكر والامتنان إليّ باسم نزلاء الدهليز وأصالة عن نفسه، وذلك لِما قدمتُ إليهم البارحة من كلام حلو ونصح أحلى. وأبلغني طلبهم التبرك مني بأكل بعض التمر والزبيب من صينيتي، كيما يحلُّوا به أفواههم ومعداتهم، فتكون لهم مني منافع الحلاوتين. لبيت الطلب مطاوعا، إذ مرّرتُ مادته من الجعبة حتى لم يتبق لي منها إلا النزر اليسير. بعد لحظات تعالت في الخارج أصوات تعدني بتمر الجنة وزبيبها، وأخرى تدعو لي بكل خير لكوني تشفعتُ في نقل مرضى الدهليز إلى المشفى للعلاج، الصارخين منهم والمنطوين على أوجاعهم؛ غير أن صوتا كأنه منبعث من بوق استعجلني في الرد على أسئلة وصفها بالشاقة، وصاغها تباعا: هل عند نفاذ الصبر وانحطام الجسم تحت التعذيب يحل الانتحار في شرع الله؟ وعلى ذكر

الله، هل هو مع المسحوقين أم مع الساحقين؟ هل للتفويج على النفوس التعبة الضجرة يحل سماع النكت الخليعة؟

خيم صمت مفاجئ، كأنما القوم كلهم ينتظرون أجوبتي. فكرت بعض الشيء، ثم عكزت نحو الباب قابضا على البوق، قلت صائحا:

قتل النفس، يا أخي، نهى شرع الله عنه بهذا الأمر ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]. ورحمتُه تعالى يستحقها المخلوق بالصبر على المحن والبلايا. أما أن يكون الله مع الظالمين فحاشَ حاشَ وتعالى عن ذلك علوا كبيرا، هو الذي لا يظلم مثقال ذرة، والقائل لنبيه نوح في قومه الجاحدين العصاة ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧]. وأما النكت إجمالا فتندروا بها تزجية للوقت لا لقتله، وترويحا للنفس بما يسرها ويفيدها. وإن كانت لحاكٍ نكتٌ ومستملحات خليعة، فليعلن عن طابعها هذا حتى يصم المستحيون المحتشمون آذانهم. ولولا ضيق المكان والظرف لأثريت أجوبتي وفصلت...

لم أنهِ كلامي حتى هجم عليّ رقيب لم أره من قبل، انتزع منّي البوق وأمرني أن أسكت وأتقوقع. آثرت الاستجابة فعاد أدراجه مقطب الوجه مهددا. وأحسب أن زملاءه فرضوا الأمر نفسه على باقي النزلاء، فساد صمت لبعض الوقت مشوب نحنحات وكحات، ثم أعقبه من بعيد صوت مسموع مجودا

سورة يس، فتتبعته في مصحفي بعد أن طهّرت يديّ بالمزهرية، حتى إذا أنهاها ظللت أقرأ ما شاء الله من السور الأخرى، متشبثا بها كألواح نورانية تخلّص النفس من أدرانها وتنقلها عاليا إلى ذرى التأمل والاعتبار.

[٢٠]

بين المشفى وإشراكي في عمل دفن جماعي

عندما فتحتُ عينيّ وانتبهت، لمحت الحارس العملاق ينحني عليّ مطَمْئنا مشفقا، يتناول المصحف الكريم من على صدري، يقبله ويضعه في صينية المبخرة والمزهرية؛ ثم إنه قام بإشارات وإيماءات فهمتُ منها أني مطالب بمرافقته إلى المشفى قصد تلقي العلاج. لم يكن في بريق نظراته ما يشي بغير ما عبّر عنه. أظهرتُ ابتهاجي بالأمر وترحيبي. أعانني على الوقوف، لكن حالة دهدهتي ودواري حدت به إلى حملي على كتفه وتأبط عكازيّ. وهكذا عبر بي الدهليز متباطئا فيما جيراني من شبابيكهم يهتفون باسمي وحياتي متحمسين: يعيش وليّ الله حمودة/ يعيش البطل حمودة/ يعيش يعيش يعيش! وبعضهم يدعون لي بقوة الصبر على ما ينتظرني مع الغولة في قبو التعذيب؛ وبعضهم يتوسلون إلى الله وأوليائه الصالحين أن يغلبوني على المحنة ويعيدوني حيا إلى جوارهم حتى أنفعهم بنصحي وأشرح لهم معنى «تزبّب» في لسان العرب.

في غرفة العمليات بالمشفى وضعني حاملي على سرير عال متحرك، ثم انصرف مؤتمنا ممرضا على عكازيّ وملقيا عليّ نظرة لا أعطف منها ولا أحنّ. خلع الممرض كل لباسي، رماه في سلة، وأخذ يرش بالماء الدافئ أطرافي وينشفها ثم يعطرني بماء كولونيا. وبعد ذاك قاس درجة حرارتي وضغطي الدموي، فحص بقلم ضوئي قعر عينيّ وفمي وجس مواضع حساسة في بدني، فما إن أتم عمله وسجل نتائجه في جذاذة حتى أقبل طبيب مقنّع، عليه سمات الأجنبي. اطلع على الجذاذة وهو يضع قفازين على يديه، وشرع يدقق النظر في رجلي المريضة ويفحصها بعناية فائقة، كأنه يتهيأ لتقرير مصيرها إما بالبتر وإما بالأدوية والمضادات الحيوية. وأخيرا همس للممرض بكلمات لم تصلني، وذهب من دون أن ينبس في اتجاهي ببنت شفة.

حدجني الممرض بنظرة ملتبسة أولتها تأويلا متشائما، ثم وخزني بمحقنة حسبتها لتخديري، وبعدها انهمك في تنظيف تورمات رجلي وتقيحاتها بأدواته المخصوصة وبقطع القطن المغموسة في سوائل ذات رائحة كحولية قوية. خلافا لما توقعت بقيت على أتم اليقظة، مفكرا أن ما تحظى به رجلي من إسعافات دوائية مكثفة يبعدها، والله أعلم، عن خطر البتر ولو جزئيا. وتأكد لي هذا ما إن أخذ مسعفي يلفها بضمادات عديدة، وازداد اطمئناني حين ألبسني بذلة برتقالية اللون ونقلني إلى سرير في غرفة صغيرة مجاورة، حيث أنبأني أني سأقيم فيها بعض الوقت تحت الحراسة الطبية حتى أُشفى. أغدقت عليه تشكراتي

الحارة ومزجتها بأسئلة عن اسمه وهوية أعضاء الطاقم الطبي لعلي أستدرجه لإخباري عن الطبيبة الأعجمية صديقة نعيمة ومعاملتي بالحسنى، لكنه نبهني بلهجة مشرقية أني هنا للعلاج لا للكلام، ثم عيَّنَ لي حبات أتناولها مع فواكه قبل النوم وغاب وراء الباب.

لا ريب أن من بين الحبات التي تناولت واحدة لها فضيلة تنويمية. يريدون لرجلي أن تبرأ بالأدوية ولذهني أن يستقيم بأقساط نعاسية وافرة مطردة. حاجتي إلى التبول أيقظتني في عز ليل لا أدري لأي يوم هو. لم أجد أثرا لعكازيّ. اضطررت إلى القفز برجلي المعافاة باحثا عن مرحاض. حال الظلام الدامس دون اهتدائي إليه في مربعي المقفل بابه عليّ. احترت بين أن أصيح بالنداء على ممرض ليليّ أو أن أُفرغ مثانتي على حائط ما، أخذت بالحل الثاني مكرها وعدت إلى وضعي السابق، حيث قضيت وقتا بين مراودة نوم متمنع وترقب انبلاج الصباح.

حين حل البياض محل السواد بين جدراني، أقبلت عليّ ممرضة سمينة سمراء في سن اليأس. سبّت من أشاع رائحة كريهة في الغرفة، وقاومتْها باستنشاق قارورة استلتها من جيب صدريتها، ثم اعتلت كرسيا وفتحت نافذة لم ألحظها من قبل. غابت برهة ورجعت بفطور على مائدة متحركة وضعتها أمامي. استفهمتني إن كنت أنا من زوّق الجدران بالبول، ومن دون أن

تنتظرمني جوابا جرعتني دواءً سائلا ووخزتني بمحقنة، وفمها يأمرني بالأكل. سألتها قبل أن تنسحب عن المرحاض فأشارت إلى ركن خلفي ذي ستار بلاستيكي.

وجبة الفطور، والحق يقال، أراها ذات مواد متنوعة، غنية بالبروتينات والفيتامينات. تعجبت وأنا أتناولها بشهية متفتحة: ما هذي الحفاوة السريرية وهذا السخاء الحاتمي! هل تكفيرا عما اجترحوه من سيئات وآثام في شأني، أم تدبيرا لحيلة يريدونني فيها حيّا معافى أو قد يتوّجونها بغيلة؟ في الحالة التي أنا الآن عليها يحسن بي أن أترك الحبل على الجرار والأقدارَ تفعل ما تشاء؛ والصمودَ الصمود آيتي ورهاني حتى النصر أو النحر.

أتيتُ على ما في صحون الصينية وتمنّيت المزيد. نظرت إلى رجلي الملفوفة بالبياض، كأني أستخبرها عن وضعها الصحي، فأومأتْ بشارات الميل إلى التحسن والأمل في الشفاء. وبعدها حولتُ نظري إلى النافذة الفوقية، بدت لي قضبانها نورانية من شدة انعكاس أشعة النهار وزرقة السماء عليها. بقيت هكذا أنقل بصري بين رجلي وقطعة الأعالي المزدانة أحيانا بأسراب الطيور المهاجرة، حتى إذا أقبل عليّ ممرض الأمس استقبلته محييا مبشورا، فرد التحية وبادر إلى تجديد ضمادات رجلي بعد أن نظفها بسوائله العبقة ومساحيق صيدليته. ولما انتهى أمرني بالتمرّن على المشي. استوعرت

ذلك ورجوته أن يمكنني من عكازيّ توقيا لسقطة قد تضر بي. أتاني بواحد منهما وقال: امشِ... ذرعت مربعي الضيّق خطوات متكئا على عكازي المفرد. استحسن الممرض مشيي، أعادني إلى وضعي السريري، أوصاني بأخذ أقراص بعيد الغداء. وقبل أن ينسحب حدد لي موعد أوبتي إلى مستقري مساءَ هذا اليوم.

وجبة الغداء التي جاءتني بها المرأة السمينة السمراء كانت هي أيضا في مستوى ما تشتهيه النفس وتستسيغه. ذكرتني الممرضة بتناول أقراص ففعلت. حاولت مكالمتها بمنتهى اللياقة والحسنى، لكنها أبدت إشارة تفيد أن للحيطان آذانا. وخزتني بمحقنة ثم انصرفت ساحبة الصينية وما بقي فيها. وبعدها شعرت باسترخاء عارم، مبشرا بهجمة نعاسية على جفنيَّ وحواسي. لكن الهجمة أخطأتني بسبب إقبال حارس مقنع عليّ مرددا: النزهة النزهة أولا! تذرعت بنقاهتي وسوء حالي عله يعفيني، فنهرني مهددا: لا تُكرر إلّا الصلاة على النبي. رجوته أن يرجئ الأمر إلى موعد آخر، فلكم رجلي المتماثلة للشفاء مستعجلا نهوضي. غادرت سريري لاتقاء لكمة أخرى تكون أشد وأعتى. رافقته متوكئا على عكازي المفرد، قطعت معه أبهاء ودهاليز بين عابرين من شتى المراتب والأصناف، حتى إذا أخرجني من المبنى ألحقني بجمع من السجناء، فسرت معهم في موكب رهيب تحت حراسة مسلحين شداد ذوي نياشين وخوذات، وبعضهم يبدون من الأجانب. سألت أقرب أسير مني عن الخبر،

أجابني حذرا متلعثما: يذهبون بنا لنحفر قبورنا أو قبور أشقائنا... أخذتني الرجفة واصطكت أسناني المتبقية، فيما السعال يعاودني فأكتمه ما استطعت، ولولا أن السجين الذي كلّمت أعارني مرذاذه لاستفحل حالي ودلّلتُ عليّ الحرس أجمعين.

وصولا عند أرض بطحاء متربة، سلمونا فؤوسا ومغرفات، ووزعونا مثنى وثلاث، وأمرهم الصادع أن نحفر قبورا بعمق ثلاثة أذرع لا أكثر. لم يكن بدّ من تلبية الأمر. واضعا عكازي حيثما استطعت، أخذت أنبش الأرض وأحفر بحسب ما يسمح به حالي وعطبي. انتبه إليّ حارس فهددني بالرمي في قبر وردم التراب عليّ إن لم أعمل بتفانٍ وجدٍّ. كلفتُ نفسي فوق وسعها، يساعدني من الحفارين هنا وهناك من عطفوا عليّ وأشفقوا.

حين صفر ضابط معلنا انتهاء العمل بعد أن أحصى القبور، أمرنا أعوانه بالجلوس حيث نحن، وسمحوا لنا باستراحة وشرب قدر من الماء. مضى علينا وقت أثقل من الرصاص، ورؤوسنا وأبداننا ترزح تحت نير شمس حارقة، أصيب بعضنا بضرباتها، وسُمح لأسير شاب، قيل لي إنه طبيب، بإسعافهم قدر المستطاع، أي برش رؤوسهم وبعض مفاصلهم بالماء البارد.

فجأة تهامس جمع القاعدين بما يرونه عن بعد وسموه قافلة الموتى، قال جاري إن منهم من قضى مرضا ومنهم من أُعدموا. أُمرنا بالوقوف فورا. اشرأبت أعناقنا جميعا إلى الآتين نحونا،

يرفد الاثنان منهم بين أيديهم محملا عليه جثة مغطاة، وكل الرافدين من المساجين. ولما حلوا بيننا، توجه كل ذي محمل، بإشارة من الجنود، إلى الحُفر وأفرغوا فيها ما عندهم، ثم أُمرنا نحن بإعادة كتل التراب المتراكمة حيث كانت وتسوية القبور بالأرض. تردّد معظمنا وتباطأنا في تنفيذ الأمر؛ ثم تعالت أصوات كثيرة عزَّزْتُها ملء حنجرتي بالتكبيرات الأربع، وبعدها رفعت عقيرتي بالدعاء للموتى وسط المردّدين «آمين»؛ ولم نقدم على الدفن إلا بعد أن اشتد أزيز الرصاص في الهواء وقرب أرجلنا. وما كدنا ننهي المهمة المفروضة علينا قهرا حتى شاهدنا العجب العجاب: سجين يُجهز بفأسه على جنديين فيرديهما قتيلين ويشق رأسه بآلته ويسقط مضرجا بدمه. هرع إليه جنود، أوقفوه على رجليه للتدليل على أنه ما زال حيّا، ثم رموه في حفرة شاغرة وردموا التراب عليه. وبعد معاينتنا لهذا المشهد المروّع استعجلَنا الحراس في العودة إلى مكامننا.

التحق بي حارسي، نبهني أن النزهة انتهت وحثني على المشي أمامه، ففعلت متوكئا على عكازي الذي حمدت الله أنه لم يضع مني.

عودا إلى مكمني بالمشفى، وجدت الممرضة السمراء السمينة في انتظاري. أجلستني على السرير وجردتني من بذلتي السجنية، وبعد أن سترتْ عورتي بفوطة أقبلت على رش بدني بماء يفوح برائحة الورد، ثم أزاحت ضمادات رجلي وباشرت

ما تبقى من ندوبي بالتنظيف الكحولي، مكتفية في الأخير بما قل من التضميد الملصق، ناصحة إياي بترك رجلي عارية تتنفس الهواء. ألبستني جبة المفتي نظيفةً مبخرة بالطيب، وأطعمتني بعض الطعام الشهي قبل أن تمددني على ظهري وتخز ردفي بمحقنة سرعان ما جلبت لي علائم نعاس عارم.

[٢١]

في فراش معذبتي، ليلة القذارة والهول

ـ منذ سنوات لا أعدها، يا بعلي العزيز، وأنا لا أنام إلا بعين واحدة. أخاف لو غطست في السبات أن تمتد إليّ أيادٍ لا حصر لها، فتفقأ عينيّ، وتقطع ثدييّ، وتدخل الإبر والسفافيد في كل ثقبي، ثم تشوهني بالأمونياك وتهرق عليّ سطل بنزين لتضرم فيّ نارا متوقدة تحولني إلى حفنة رماد، تكون أنت المنتخب لرميها في أعفن مرحاض. ألست بهذا تحلم يا من أنت منذ اليوم بعلي؟

المرة الأولى التي سمتني «بعلي» ظننتها نطقا من الغولة بكلمة لا تعرف معناها، لكني في المرة الثانية صحتُ في وجه خانقتي: لا... لست بعلك!

ـ بل بعلي أنت (أجابت)، وبالشرع والكاغد. هو ذا عقد النكاح بتوقيع عدلين. دخلتَ بي هذي الليلة. حلمي الأغلى وقد حرثتني أن أنجب منك ولدا يكون من طينتك

وصلبك. وعما قريب، حمودة، يتحقق الحلم وأبشرك بخبر حملي...

كلام المرأة الواثقة من نفسها يصعقني، ينزل عليّ سما ودوارا. صرخت ملء فمي:

ـ أنت شمطاء مخرّفة. ما أنا بزوجك ولو أقعدتْني عصابتك على كرسيّ كهربائي أو مزقتني إربا إربا...

ـ لا تزن سني ببدانتي يا نور عيني. أنا دون الأربعين، لم أيأس بعد من الحمل والولادة...

ربِّ ارفع عني هذي الغولة المهولة وغلبتها عليّ. تريد بمكرها ذاك أن تذهب بعقلي بعد أن قوَّيتني عليها يا مولاي، وعلى عصبتها الماكرين...

ربِّ فرّج عني كربتي، واحلل عقدتي، واعضدني في هذي المحنة الجديدة التي لا قبل لي بها، ولا حيلة ولا طاقة في دفعها.

ربِّ لا وليّ لي ولا ملاذَ سواك. يا ستّار يا معين...

استفهمتني ممسكتي عن سبب سهوي، لم أجب، وعما إذا كنت أصدق زواجنا، أومأتُ متقززا بالنفي الحاد القاطع. ختمتْ على فمي بوسة آلية عنيفة ولدت عندي رغبة في القيء قوية، وبعدها وضعتْ أصبعين بين شفتيها محدثة صفيرا صاخبا، فمثُل أمامنا أربعة رجال. تعرّفتُ من بينهم على داعية

لا أذكر بالذات أين أبصرته. سألتْه بعد أن أحكمت قبضتها عليّ:

ـ الفقيه! هل زواجي بهذا الذكر تحتي يحلّ في الشرع أم لا يحلّ؟

أجاب الرجل ومعه مرافقوه الثلاثة بصوت واحد: يحلّ يحلّ يحلّ... وأردفت مستهترة:

ـ وهل دخل بي أم لم يدخل؟

أجابوا أيضا بصوت واحد: دخل دخل دخل...

حررت رأسي قليلا وصحت في اتجاه الداعية:

ـ ماذا فعلوا بعقلك يا أخي؟ خدروه خلخلوه؟ هل يصح دخول رجل بامرأة من دون أن يعلم أو يعي؟

أجاب على الفور ككائن آليّ مبرمَج:

ـ نعم يحصل ذلك مثلا في الحلم، فيقع الاحتلام وقذف المني في فرج أنثى إذا وُجدت لصيقة به، وقد يؤدي برحمها إلى الحمل والوضع. ولله في خلقه عجائب وآيات...

رفعت عقيرتي بالدعاء على فقهاء السوء وشهود الزور، فأشارت الغولة إلى الجمع بالغروب. ولما اختلت بي، قيدت بالسرير يدي الأخرى ورجليّ بعد تفريقهما، واستلقت فوقي بكل ثقلها ونتانتها قائلة: الآن، حبيبي، ستعلم وتعي. ثم فعلت

بي ما لا يصدق ولم أتخيل جوازه حتى في الرؤى المنامية الكابوسية المهلوسة، إذ انشغلت بتعنيفي واغتصابي، مبدية مهارة فائقة ومهنية متعهرة، هذا فيما صراخي يرتد إليّ خاسئا واستغاثاتي تخمدها المسيطرة عليَّ بركل رجلي التي لم تُشف بعد. وحين قضت وطرها انطرحت جنبي لاهثة عرقانة، كأنها فرغت من معركة حامية الوطيس، ثم وقد استردت أنفاسها، أخذت تنشد بصوت خشن أجش: عَيْنيك عينيكْ/ جابُو الهوى/ من شيشاوَا/ جابو جابو الغاشي/ وهو ماشي/ عينيكْ عينيكْ/ طيْحو الزّرزور/ من فوقْ السّور...

لو وجدت حيلة لغرز أصابعي في عينيْ المطربة الرديئة، لفعلت من دون تردد ولا احتساب العواقب. عجزي عن ذلك يؤلمني، ويؤلمني أيضا اضطراري إلى سماع صوتها يغني سخافات وترهات أخرى؛ ثم إنها عانقت مخدة سمتها رضيعي وضناي، وأنشدت: نيني يا مومو/ حتى يطيب عشاء امّو/ ويجي باه من الجنان/ ويجيب له خوخ ورمان...

قالت إن كل ما غنته حفظته عن سجينة مغربية عروبية قبل وفاتها بضائقة قلبية حادة. سألتني إن كنت سآتي لطفلها بالخوخ والرمان. لم أجب. ظللتُ أقاوم تلوث أذنيّ بهذياناتها الهوجاء حول قصصها الجنسية السابقة على ما سمته قصتنا الجميلة، الفريدة من نوعها، ثم حول عزمها الاستقالة من خدمة المتاعب بقصد اتباعي إلى أي مكان في الدنيا ولو كان

جزيرة، نبني فيه عشنا، تقول، ونتحابّ ونربّي طفلنا ونقتات من غلات جناننا ومن لحوم وألبان ماشيتنا. وتشدقت بلغو آخر أوغل وأخرق، حاولتُ جهدي الإعراض عنه بالغوص في تدبر مصيبتي الزبّاء الجديدة وما قد ينجم عنها من أكدار ومآسٍ وخيمة.

بعد لحيظات خرجتُ من غوصي مفزوعا، عدت إلى واقعي العويص المر بفعل انفجار فم الغولة جنبي بالعتب على مقاطعتي لها وإضرابي عنها، وأرفقت غضبتها بتدخين عصبيّ، مرغمة إياي من حين لآخر على مشاركتها سيجارتها وتزنيدها. ولما أنهتها رمت عقبها وسحبت من تحت السرير طبقا ـ مليئا *بشندوتشات* وقناني خمر وفواكه، ووضعته بيننا بعد أن استوت جالسة. رغّبتني في التقوت فامتنعت، وفي الخمر فزممت شفتيّ بشدة إيماءً بتقززي ورفضي. فتحت قنينة بأسنانها وقالت: أما خمر المحبة فوالله ثم والله من يد عروستك تشربه... وأمام ممانعتي وصدودي ضربت رجلي النّقهة، ثم لما أعياها صبري أمسكت خصيتيّ بقوة، وأقسمت لا ترفع عني يدها إلا إذا استجبت. زخم التضور ألما أحدث فجوة في فمي ما لبثت معذبتي أن حشتها بفم القنينة وعملت على تجريعي سائلها بالإكراه، فكنت ألفظ ما أستطيع، وأبلع تجنبا للخنق ما يتسرب إلى حلقومي؛ وكذلك أفرغتْ في جوفي قنينة ثانية فثالثة، وهي تصحب فعلها المقيت بكلام بذيء وسبّ مبرح من صنف: يلعن دين أمك... أقبل الزواج بهذا العريس الحقير يا ناس،

ولا نسكر؟! تفضل خمور الجنة على خمري، ومن ضمن لك الجنة يا ابن القوادة؟!...

أوقفت الغولة جُرمها بغتة. لعلها أتمته أو ربما أصابها وهن ما. لمحتها تدخن وتشرب بشراهتها المعهودة، فيما الخمر أم الخبائث، التي لم أقربها أبدا من قبل، تسري حمياها فيّ شيئا فشيئا. سمعت مُكرهتي على تجرعها عنوةً تقول:

ـ الليل الآن يا بعلي لنا... ما فيه سوانا هنا... احك لي بعض النكت... أبوس فمك أبوس يدك... نكت مالحة لا حياء فيها... وحدها هذي النكت تضحكني وتجلب لي بعض النعاس... احك وإن حققت لي طلبي طلّقتك في الصباح فأرتاح منك وترتاح...

بصوت مهلهل متقطع قلت:

ـ الله... تبارك وتعالى يمهل ولا يهمل... عقابه للظالمين والظالمات شديد... سيعذبك العذاب الأليم... أكثر مما عذبتني وعذبت آخرين...

ـ بل أنت حمودة من تعذبني بصمودك ونفورك، تحرمني من حقائقك وأسرارك، لا تريني غير عنادك وسوادك. أنت من سيعذبك الله... الآن إياك تغمض عينيك. اسمع ما يفتح شهيتك للنكت. هذا سجين تأسفت على موته بين يديّ بنزيف دماغي حاد، كان يحكي لي على هذا السرير من النكت ما يعجبني

مقابل أن أخفف عنه. قعداتي معه كان يحضرها خادمي القزم الشيخ ويحفظها كلها.

صفرت ثلاثا فمثل أمامنا مبايعا مخلوق لم أر من قبل أقصر منه، تصل لحيته البيضاء إلى ركبتيه، وفوق رأسه طرطور على قد قامته. قال:

ـ سمعت نداء مولاتي، فقطعت أداء صلوات بقيت طوال أسبوع في ذمتي لكثرة الأنشطة والشواغل...

أمرت المنادية قزمها بالحكي، فتجرد له ملبيا صاغرا، قال:

في أول قعدة بدأ كلامَه منكتُك المفضل يرحمه الله: كان يا ما كان حتى كان الحبق والسوسان...، أمرتِه، مولاتي، يعفيك من الخزعبلات ويفذلك النكتة عارية، بلا لف ودوران... واحدة لا تنساها سيدتي تضحك كلما ذكّرتُك بها، يصفها صاحبنا بالواقعية من حيث وقعت له شخصيا. قال: زوجتي لعنها الله تميل جدا إلى كل الذكور، ما عدا ذكري... وعلى ذكر الذكر، حكى أخرى عن مصري صعيدي أخذ زوجته إلى طبيب النساء، ولما طلب هذا منها، وقد اختلى بها، أن تخلع سروالها جرت إلى بعلها في قاعة الانتظار تولول وتشكو، فنهرها وأمرها بالاستجابة. وحين عادت وجدّد الطبيب طلبه، أجابته بدلال وغنج: اخلع سروالك أنت الأولاني... وفي الطريق إلى البيت قال الزوج معجبا: الدكتور ذا، ما شاء الله، مخّه كبير زيّ كذا،

وعلقت المرأة: وكمان ذكره كبير زيّ كذا... سألها: عملتِها؟ أجابت: أنت أمرتني. قال: أنتِ من بكره طالق...

طبطبت الماجنة المتفحشة على عينيّ لمنعي من النوم، وأردف القزم متحمسا:

ـ وحكى المنكت، قاتله الله، قصة امرأة علمت بعد شهر من زواجها أن بعلها يسكر في الحانات وينكح العاهرات، ثم جاءها خبر أسوأ في أنه يباشر مؤخرات الغلمان، فسخطت وغضبت ثم دعته إلى حل سلمي أن تمتعه في الدار بما يطلبه برا. قبل البعل عرضها على سبيل التجربة. وفي ليلة التطبيق نادمته كما يلزم، ثم ضاجعته من الثقب الحلال؛ أما حين أخذ يفعل بها الأفعولة الأخرى، أطلقت صرخات ألم فظيعة، فنهرها وصاح: يا امرأة كوني رجُلْ...

قهقهت الغولة ملء شدقيها ولكمتني كي أضحك، ثم أمرت الشيخ: زدني.

ـ تكون، مولاتي، ملحة الوداع؟ كان يا ما كان... بل هذا شاب أعزب يعمل في مصنع طوال اليوم. وكلما رجع ليلا إلى بيته وجد أمه في غاية الحزن والاكفهرار، لا تجيب إذا سأل. ولما ضاق به الأمر استشار صديقه الأوحد، فتلقى منه نصيحة مفادها أن يجالس أمه وهي في قمة حالتها تلك، ويقلدها فيها حتى يقف على السبب فيبطل العجب. وكذلك كان. فما إن غاص الشاب قبالتها في لجة التجهم والانقباض حتى التفتت

إليه أمه مستفسرة: ولدي بوعزة... إياك تكون مثلي... ما وجدت من ينيكك؟!

دوت ضحكات الغولة وقلقلتني كيما أضحك أيضا، ثم طالبت القزم أن يشنف أذنيها بكلام عن نفسه عوّدها عليه في ختام كل قعدة، فقال: عوضني خالقي عن قصري، والحمد له والشكر، بقوة الحافظة وعظمة الأير، يحسدني عليهما الفيل، وهو مضرب المثل بقوة ذاكرته وطول ذكره. وبعد ذاك أغدقت المقهقهة المتهتكة على مهرجها عبارات الإعجاب والتنويه وعليّ عبارات قدح وتوبيخ لكوني لا أحكي النكت، ملح الحياة، ولا أتمتع وأنشط بما أسمعه منها. وتوعدتني بمعاقبتي على ذلك حين يصبح؛ ثم إنها أكلت وشربت، ثم هذت بما عزفتُ عنه، ثم تمددتْ وتجشأت وضرطت وزفرت كثيرا كثيرا...

ومن أغرب ما شاهدت مذهولا أن القزم، بدل أن يعود أدراجه، صعد إلى السرير وتكوم في حضن الغولة. أشرت إليه أن يزهق فأجابني همسا: ليس قبل أن تأذن مولاتي، وإلا فرأسي ولحيتي على كفّ عفريت... أبديت له إيماءات أخرى مستفسرا، ردّ بواحدة تفيد أن مولاته تسمع وترى ولو كانت نائمة، وأنّ عليّ أن أصمت وأنام... وبعد ذاك انجر إلى حضنها، وصدر عنهما لهاث وحراك وأنّات...

ربي ماذا اجترحت من الذنوب والمعاصي في حقك أو في حق عبادك حتى أبيتَ هكذا معذبا مؤرقا مع كائنين شنيعين شاذين، تلا فعلهما المنكر شخيرهما الفظيع الصادع: شخير غولة متغولة وشخير قزمها الماجن المطيع! أم تراك، ربّي، تمتحنني بالسكر القسري والشقيقة الفالقة وتَدافع الهلوسات والهواجس السوداء في كياني ورأسي!

ظللت كذلك أناجي ربّي في نفسي وأبث إليه شطحاتي وشجوني، حتى إذا لاحت أولى الأنوار، ارتج المكان بصوت الغولة مستنكرةً رائحةَ البول في فراشها، لاعنة أم فاعله وأباه. قفز القزم خارج السرير، وفمه الغائر في لحيته المرتعشة يلغو بالأيمان المغلظة أن المتبوّل ليس هو. أمرته بإرسال الحارس الأسود، وطوحت بي بعيدا عنها بعد أن فكت قيودي، ثم خلصت السرير من اللحاف والإزار والبطانية، ومزقت عقد نكاحنا المزيف، وهي تتوعدني بعقاب مهين من العملاق.

حين حضر المطلوب، أمرته الغولة بصوت خشن فظ أن يرميني في حفرتي ويفعل بي ما يشاء، ناعتةً إياي بالسكّير والمطَلّق، جاهرة بأن وضعها كأم عزباء أحبّ إليها من الزواج ببعرة الرجال مثلي.

حملني الرجل على كتفه بعكازي وخرج حثيث الخطى، كأنه يستعجل الابتعاد عن رئيسته وفمها الكريه النتن. وقرب دورة مياه أوقفني وأشار لي بدخولها وتسليمه جبتي والاغتسال ريثما

يعود إليّ بعد لحظات. وكذلك كان، إذ ما إن تطهرت من ليلة القذراة والنجاسة حتى أقبل عليّ ولفني ببطانية دافئة وحملني إلى زنزانتي حيث ألقاني على لحافي مع عكازي وكيسين، ثم انصرف وعيناه المحمرتان تفيضان، والله، بالعطف والدمع.

تعاونت الهواجس والمخاوف العرمرم وآثارُ الدوار والإنهاك للإجهاز عليّ بنعاس تُنذر بوادره بما يشبه الغيبوبة أو الدخول في ثقب أسود أو خندق غميق...

[٢٢]

أنام قهرا وأفيق على آثار حريق

في أقصى درجـات الانهيار الجسدي والنفسي، ليس للمصاب به من حيلة سوى تقليد الميت بالهمود وترويض النّفَس والحواس بالتقتير والتقشف. سمعت حارسين قرب لحافي، واحد يزعم أني توفيت والثاني أني أُحتضر. وكانا على وشك القمار حول وضعي حين أقبل ممرض لجس نبضي بمقياسه فيما الحارسان يترجيانه أن يفصل بينهما، فأعلن أن رهانهما انتهى بالتعادل السلبي، موضحا أني شبه ميّت وشبه حيّ، ثم وخزني بمحقنة قال لربما ترجّح عندي، ولو إلى حين، قيد الحياة على قيد الموت. وبغتة انصرفوا جميعا وعمّ صمت مريب في الدهليز كله، كأنما زنازنه خلت من نزلائها، أو أن هؤلاء حل بهم مثل ما حل بي، ولو بصنوف ودرجات متفاوتة.

كم وقت استغرقه نومي الاضطراري، المسكِر المغيّب؟

هل مدة ساعات طوال أو ربما يومين متصلين فأكثر؟ عقابيل خمر الغولة ما زالت تعبث برأسي دوارا وشقيقة. لكني، رغم ذلك، أخذت أستبين سبيلي إلى استدراج الصحو والتقاط أنفاسي ووضوح وعيي. النهار يميل إلى منتصفه، حسبما يبدو لي؛ أقوات صينية اختفت في بطون الحيوانات القاضمات أثناء غيبتي ولا شك، والصينية الأخرى ما زالت تزدان بالمصحف الكريم ومبخرة ومزهرية؛ أما كيسا العملاق الطيب الرحيم، هبته إليّ، فما لبثت أن اطّلعت على ما فيهما: واحد مليء بالخبز والزيتون والتمر والبيض المسلوق وقناني ماء، والآخر يحوي ألبسة داخلية نظيفة وبذلة زرقاء جديدة. فاللهم يا ربُّ الطف بعبدك ذاك، وحرر رقبته من مخالب المفسدين في الأرض وطوابير الظالمين الطغاة...

من باب وضع يقظتي على المحك، مددت يدي إلى كيس الطعام، تناولت شيئا منه بتمعن وتؤدة، أتبعته بجرعات ماء، ثم نهضت ملفوفا ببطانيتي، أجرّب رجلي على الخطو من دون عكاز، لاحظت ـ وابشراه!ـ تحسنا معتبرا في رجلي النقهة. ألزمت نفسي بذرع مساحتي مرات عديدة جيئة وذهابا، أركز ذهني على مُثل ونفائس علوية شتى، محوّلا إياها إلى ترياق بل سدّ منيع ضد شبح الغولة وما صرّفته فيّ من شرور جسدية ومعنوية بليغة. بعرقي المتصبب وتنفساتي هأنذا أطهر جلدي وكل ملكاتي من رواسب أفعالها الوحشية، ولغتها الملوثة البذيئة، وروائحها الكريهةِ الرديئة...

حين تعبت استلقيت على لحافي وفي زخم لهاثي تذكرت بعفو الخاطر ثقب التواصل بيني وبين جاري. كشفت التراب عنه بعكازي وطفقت أبث منه كلمات نداء خافتة؛ تبدى لي بعد ترديدها أنها لا تجد صدى أو أذنا لاقطة. استرقت النظر من الثقب لعلي ألمح طيفا، قدما متحركا أو ثابتا. لا شيء! جاري مات أو قُتل أو رُحّل، كما قد يكون، والله أعلم، حصل لجيران الأقربين وحتى الأبعدين.

هل أوجد وحدي في الدهليز كله ولا يسكنه أحد سواي؟

كنت من قبل أُحسد على السكن في زنزانة فردية، ويعده البعض تمييزا تفضيليا ونعمة، بيد أنه في حساب الجلادين نقمة ينزلونها على من يريدون خلخلة عقله وسحقه بالعزلة المطْبقة المميتة. أما أن أكون النزيل الوحيد الأوحد في مكان كان يعمره من قبل زهاء مائة سجين، فهذا أمر، ولا شك، أدهى وأعوص! لكن، ولو رموني في جُبّ أو في عرض الصحراء، فوحقِّ من خلقني ودربني وأحسن تدريبي على ذكره واستحضار أوليائه المؤنسين، لن أترك حبلي على جرار الهلوسات والهذيانات، ولن أغوص في نفق متاهيّ قراره الحنون.

في انتفاضة عفوية قصدت بابي. حاولت من شباكه الحديدي أن أسترق السمع والنظر. لا غاشيَ ولا ماشيَ، لا لاغيَ ولا هامس. الصمت مطبق يفوح بالرطوبة وطقسِ القبور. استشكلت الوضع وتطيّرت. وكم تعجبت حين أدى

ضغطي على بابي إلى انفتاحه. خمنت: لعل العملاق الطيب نسي إغلاقه أو ربما تركه كذلك تكرما عليّ وتفريجا. تسلهمت ببطانيتي، تناولت عكازي الذي لي فيه الآن مآرب أخرى، اتكأتُ عليه وتوكلت على الله، فنفذت إلى ممر الدهليز الشاحب الإضاءة، مجريا جولة تفقدية خفيفة الوطء، بطيئة الوتيرة. كم راعني، آهٍ كم راعني وأحزنني ما عاينت! الجدران كلها فحمية السواد، كأن حريقا نخرها بألسنته المتأججة؛ أثاث الزنازن وحوائج أصحابها استحالت إلى أكوام هشيم ورماد، تنفث بين الفينة والأخرى خيوط دخان متلاش ضعيف...

ما تصورته أكده لي سجين عجوز لمحته متقوقعا في عقر آخر زنزانة في الدهليز. أطللت عليه مسلما، سائلا عما وقع. لم يبد حراكا إلا من نظرة كئيبة تالفة ألقاها عليّ، ثم بصوت متهدج منهك لملم جملا متقطعة فهمت منها أن سجينا في زنزانته الوسطى أضرم النار فيها وفي نفسه، فامتدت إلى الزنازن المجاورة كلها، ما عدا مربعه المتطرف وآخر مثله في الجهة المقابلة. سألته عن زمن الواقعة فوافق خبره ليلة القذارة التي أمضيتها في قبضة الغولة، وعن الخسائر البشرية، قال كل السجناء بين قتلى مختنقين وجرحى ذوي حروق بليغة. استفسرته عن حاله، قال: ما لم تنله مني النيران يفعله بي الآن العطش والجوع... منذ حدث ما حدث، يا ابني، نسوني هنا أو ربما حسبوني في عداد الهالكين.

هرعت إلى زنزانتي وعدت إليه بنصف زادي. رميت به إليه، هو العاجز عن الوقوف، فتلقفها داعيا لي بخير دعاء. استمهلته ريثما أرجع، وذهبت في طلب طبيب أو ممرض. قطعت ممرات وردهات وأبهاء باتجاه الحي الذي فيه المشفى، والعيون الملتفتة إليّ تستغرب تلفلفي ببطانية كأني من بلاد الإسكيمو أو مصاب بضمور حراري في بدني.

في ساحة كان عليّ عبورها ناوشني بعض السجناء ساخرين من لُبسي واضطرابي، وأخذتْ بعض الأيدي تمتد إلى بطانيتي قصد تجريدي منها، فاحتميت بحارس صنديد وسألته مرتبكا:

ـ هل تصحبني إلى المشفى، سيدي؟

طلب مني رقمي، كشفت عنه فحك قفاه وقال:

ـ ١١٢ تقول! كيف نجوت من الحريق؟

ـ بأعجوبة، سيدي، بأعجوبة...

ـ إذن ضاعت حوائجك كلها... والطبيب، لماذا الطبيب؟

ـ هناك في الدهليز المنكوب سجين حيّ يُحتضر...

ـ عد إلى زنزانتك في الحال. سأنظر في القضية... اذهب.

ما كان لي أن أعصى أمر رجل يدل زيه الكموني ونياشينه أنه ضابط أو عقيد. عدت من حيث رجعت متعاميا عن الوجوه والعيون، حتى إذا لحقت بالدهليز أطللت على العجوز

المريض، فألفيته متمددا، غاطا في سبات عميق. عوض إزعاجه وإفساد راحته آويت إلى غاري حيث أخفيت تحت لحافي كيس ألبستي الجديدة، ثم تهالكت عليه منتظرا ما سيأتي.

[٢٣]

من جناح التائبين إلى ملهى ليليّ فاجر

ضربات المطارق والمعاول في الدهليز أيقظتني صباح يوم غائم بارد. فهمت من تواترها واشتدادها ومن الأوامر الصادرة عن الحرس أن الزنازن تخضع للترميم والإصلاح بأيدي سجناء حرفيين. لبست بذلتي الجديدة واقتربت من شباكي فلمحت صدفةً حارس الأمس برتبة ضابط. حيّيته وسألته عن الأسير المريض الذي أخبرته بحاله، أجاب بين إعطاء أمرين أنه دفن، وفيما أنا أترحم على العجوز المسكين في نفسي، استفسرني، وهو يلوك علكة، عن الحرفة التي أحسنها. قوست حاجبيّ ترددا، فأمرني قبل أن يغيب بالتهيؤ لمساعدة الصباغين. قضيت زهاء ساعة من اليوم التالي في إعداد سطول الجير كيفما اتفق، غير أن الحرفيين سرعان ما أعفوني من ذلك رأفة بقلة دربتي وبضعفي وعرجي. نصحني كبيرهم ـ يسمونه الطاشرون ـ بالركون إلى مستقري والتحلي بالصبر ريثما تنتهي الأشغال وتعود الزنازن كما كانت.

ما العمل بنصح المعلم بصعب على من مثلي امتهن الصبر على المكاره وصار له في امتصاص الصدمات باع وأيُّ باع! ضوضاء العمال نهارا أمسى يؤنسني، وفي الليل أُدرك انسداد بابي، ويقوى شعوري أني بتّ في الدهليز نسيا منسيا وربما آخر المتروكين. فلا وجبات تأتيني ولا ماء، ولولا ما بقيَ لي من زاد العملاق الخيّر، أقتات منه لسد الرمق لا غير، لقهرني الجوع وعاث في معدتي فسادا. وفي قراءة آيٍ من الذكر الحكيم على ضوء باهت شحيح، كما في استظهار ما في حافظتي من حكم وأشعار وقتَ فرض الظلام، وجدت قوتا آخر روحيا أتقوى به وأعلو فوق وحدتي وتصدعي، محاولا الاندلاع في ربوع القيم الأبقى وكل البهاء.

استمرت أعمال الإصلاح والترميم بضعة أيام، زارني خلالها الحارس العملاق ليلا ليمدني بكيس طعام وماء. وبعد انتهائها عمت ممرَّ الدهليز حركة دائبة تشير إلى مجيء سجناء جدد ودخولهم مربعاتهم. وصاحب ذلك حفل تدشين بالطبل والغيطة أُعلن فيه بالبوق أن الدهليز يسمى من الآن فصاعدا جناح النادمين التائبين، ووُزعت بالمناسبة على المقيمين الوافدين أكياس أكل وقناني لبن وماء، ولم أُستثن، أنا المقيم القديم، من هذي التبرعات السخية التي لا يمكن أن تكون خالصة لوجه الله.

بعد اختتام الحفل وانصراف الحراس، ارتفع صوت قريب مني محتجا مندداا:

ـ لا يا قوم! أنا هنا في غير مكاني المخصوص. لم أقتل، لم أسرق، لم أجرم أبدا. قضيت ست سنوات مع أسرى السياسة والرأي، يسوموننا أسوأ أنواع العذاب، وفي الليل يرومون منعنا من النوم بما يسمونه «تلاوة القرآن نونـستوب»، لكن كيدهم يرتد إلى نحورهم، إذ تنزل علينا آياته البينات دفئا وسلاما، فتحملنا إلى براري الأمان أو إلى فراديس السماء. أريد الرجوع إلى جناح صحابي، لأني مرشد سلفي، لا أندم على خياري والتزامي، ولا أطلب توبة من أحد. الله وحده هو التواب الغفور...

وصاح صوت مقاطعا من أقصى الممر، لكنه مسموع:

ـ لا يا شيخ! البيدوفيليا، اغتصاب الصبيان الأبرياء جريمة نكراء تحرمها شرائع السماء والأرض، وعقابها يكون في الدنيا قبل الآخرة. أليس كذلك يا ناس! ماضيك البيدوفيلي، يا زعيم الزور، لاحقك في حاضرك، وهو الآن وصمة خزي وعار في جبين أصوليتك الباطلة الفاحشة...

صمت الزعيم لحظة، ربما لالتقاط أنفاسه بفعل صدمة التهمة وخطورتها، ثم صرخ بكل ما أوتي من قوة:

ـ الرجل ذو الفم النتن، الذي سمعتموه كلكم، بوليسي

سري يتبعني حيثما حللت، يتسقّط أخباري وأخبار آخرين لرفعها إلى أسياده ومستخدِميه. ولي على ما أزعم دليل مادي، وأرجو أن يبلّغ عني من منكم يصله كلامي... يا نزيل الزنزانة ١١٢، هل سمعت ألفاظ متهمي جميعها مع أنه في الدهليز الأبعد عنك؟

أجبت عاليا أي نعم، فتناقل ردّي السجناء تباعا، ثم أردف المتهم قائلا:

ـ إذا كان صوت الجاسوس يعْبر هذا الفضاء من أقصاه إلى أقصاه فلأنه يستعمل ميكروفونا من نوع إلكتروني خفي، هو جزء من ترسانة آلات مصغرة يحملها المخبر بيننا لأداء عمله القذر الدنيء. ومن له أن يقترب منه ويفتشه سيثبت صدقَ ما أقول، ويشهد أنه من وحل ملوث فاسد، ومن طينة المتعيّشين بتلطيخ سمعة الأتقياء وامتهان حرفة السعاية والقذف والتشهير، قاتلهم الله وأخزاهم إلى يوم الدين.

تعالت أصوات مؤيدةً الزعيم، مبرئة ساحته، وأخرى رافعة عقيرتها بسب المخبر ولمزه، ولم تهدأ إلا بعد هجوم فرقة من قوات التدخل السريع، فصالوا وجالوا بعصيهم المهنية مهددين متوعدين، يصحبهم نباح كلابهم البوليسية. وظل بعض عناصرهم لساعات يفرضون النظام والسكون، يفاجئون الأسرى عبر شبابيكهم بإطلالات فاحصة رقيبة، نلت منها حصتي وزيادة. ولا ريب أني بالهيئات التي كنت أتخذها على لحافي برهنت

للمطلين على حسن سلوكي وصفاء نيتي، فرفعوا عني عيونهم ومسالطهم الضوئية وتركوني وحالي.

اغتنمت عود التوحد إليّ، فأزحت التراب عن ثقب التواصل وناديت همسا على جاري الجديد. فرحت لاستجابته، بادرتُ إلى التعريف باسمي وأطلعته لماما على صك التهم الموجهة لي، مقسما بالله على براءتي منها. وفعل مثلما فعلت، مع فارق جوهري هو اعترافه أن إدانته ثابتة، لا تقبل الاستئناف أو النقض... سألته عنها فعدّد جرائم قتل من توقيعه طالت زوجته وبنته العاهرتين وقوادا وثلاثة زبائن. وأعلن أن نزلاء جناح التوبة كلهم على شاكلته أو أخطر منه، منهم اللصوص والنصابون والقتلة بالجملة، ومنهم المتاجرون في المخدرات والجنس والخمور، ومنهم ممارسو شتى أنواع الشذوذ بما فيها اللوطية ونكاح المحارم... واستثنى السارد المرشد السلفي الذي قال إنه لا يعرف شيئا عنه ولم يره من قبل. وأضاف أن المبتغى من مجرمي الحق العام مثله أن ينخرطوا في أسلاك المخابرات والاغتيالات تحت الطلب، مقابل نيل التوبة وإبراء ذممهم علاوة على أجور سخية. وحذرني كثيرا من رفاق الجناح قبل أن ينخرم صوته تماما.

عند حلول المساء ومتاخمته الهزيع الثاني من الليل، صاح صوت ذو نبرة حادة: يا أهل هذا الكهف، في انتظار أن ينضج ندمكم ويختمر، وتنجم توبتكم عن نيل الغفران والعفو،

ليّنوا لياليكم بالنكت والنوادر، وأدعاها للضحك والتفويج عن النفس هي الماجنة المتهتكة، الصادرة من تحت الحزام والسرة... هاتوا إذن ما في جعبكم منها، ابتغاء هزمِ الهم وقتلِ الوقت، جودوا بها وأحسنوا الحكي، وإلا هزمكم الهم وقتلكم الوقت... وحتى ألهمكم وأشحذ قرائحكم، هذه واحدة من تلك: هل أتاكم خبر مراكشي من سلالة قوم لوط. اتخذ الجبل قاعدته الخلفية، وصار منها يجري غارات جنسية في الغابات والسهول، تستهدف الصبيان والشباب وحتى الكهول. حيّر اللوطي اللعين البوليس والدركيين ودوخهم. وذات يوم ربيعي جميل، مر ضابط سام مع حرسه في سفح ذاك الجبل، فضبط على امتداد مائة متر ونيف ثلاثة رجال عرايا ساجدين، ومؤخراتهم ناتئة مستنفرة. تبين الضابط أنهم من أعوانه، سألهم مستفحشا عن فعلهم، فقالوا وقد استقاموا وأدوا التحية العسكرية: فشلت حضرة الضابط كل الخطط للقبض على ذاك اللوطي الزئبق، وإننا كنا، على النحو الذي رأيتنا عليه، ننصب له كمينا يسقط فيه... أشار إليهم بارتداء لباسهم، وأمر تجريدة لحقت به باعتقالهم وفتح تحقيق دقيقٍ مفصّل حول توجههم الجنسي.

ارتجت أركان الدهليز بقهقهات صاخبة مدوية، شجعت المنكت الخليع على الاسترسال في حكي ما هو أفحش وأفظع، فصممتُ أذني بقطع من لبّ الخبز، عصمةً لي ولمكاني

هذا الذي به نسخة من المصحف الكريم، ثم تعشيت بما قل، وعلّقت كيس طعامي المذخر على عكازي بعد أن سويته أفقيا بين ثقبين في زاوية مربعي الخلفية. ألم أقل إن لي في عكازي مآرب أخرى! ارتدتُ المرحاض وأمنت جانبه قبل أن أتدثر ببطانيتي وأتهالك على لحافي حيث همهمت بكلمات في مدح النوم وجلبه إلى عينيّ.

في عز الليل استفقت مذعورا على إثر صوت يتضرع ويئن. حررت أذنيّ بما علق بهما واقتربت من بابي، فكان مما تناهى إلى سمعي: اللهم يا رب اشهد أني نُحرت ولم أنتحر... أشهدُ أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبدُهُ ورسولُه... أشهد... فجأة خفت الصوت وتضاءل ثم امحى تماما. استصرخت ما استطعت ضمائر النائمين لإغاثة سجين يُقتل، ولا مجيب. ولما عاودت الكرة، والظلام دامس، امتدت يد من شباكي إلى عنقي، لوت عليه ليا وصاحبها يهددني بالخنق إن تكلمت، ثم طوّح بي إلى لحافي حيث رجفتُ ولبدت.

جراء ما سمعته وحدث لي لم يغمض لي جفن، حتى إذا زقزقتْ بعض الطيور الشتوية هنا وهناك، معلنة عن انبلاج الصباح، ضج الدهليز بالأصوات قريبا مني، بعضها تعلن انتحار السلفي بفصد عروق يده اليسرى، كما تدل شفرة دامية ما زالت بين أصابع يده اليمنى؛ وبعضها الآخر تقر وتشهد بصحة ما حصل. اختلست النظر من شباكي، رأيت تباعا

طبيبا بصدريته البيضاء وحراسا والعديد من السجناء الجدد. قال واحد لم أتبينه: السلفي وقد انتحر مات ميتة جاهلية، لا يُصلى ولا يُترحم عليه، ولا يدفن إلا كما تدفن الجيفة اتقاءً لعفنها وانتشار جراثيمها... وأمر آخر: اغسلوا زنزانة المنتحر من دمه وكذلك لحافه وملاءته. شهد شاهدون وطُويَ الملف بتوقيعات نصابهم الشرعي. تفرقوا الآن. عودوا إلى غرفكم...

خطر لي أن أجهر بالتكبيرات الأربع، والدعاء للمقتول غيلة، والشهادة بنقيض ما أقره شهود الزور؛ لكني قست هول العواقب والتبعات بين رهط من أباطرة الجريمة والقتلة المحترفين، فأحجمت تقيةً ولذت بالصمت.

بعيد تناول وجبة الفطور، نودي على قاطني جناح النادمين التائبين للخروج إلى ساحة البناية للتنزه والرياضة. تأخرت عن تلبية النداء، فجرني حارس من مكمني عنوةً، وحشرني بين جيراني الجدد الذين تسنى لي لأول مرة رؤيتهم رأي العين، ولو من طرف خفي. معظمهم كانوا من ذوي الكروش المتكرشة أو العضلات المفتولة، كأنهم من قدامى أبطال الكاتش أو المصارعة اليابانية؛ والنحفاء منهم كانوا، ما شاء الله، كالزرافات مشيةً وطولا، وبعض هؤلاء وأولئك كانت لهم لحى تتدلى ضفائر كأنها عقاربٌ سامةٌ لادغة، وعلى آذانهم أقراط، وفي أطراف من أبدانهم تتبدى رسوم ووشوم غريبة الأشكال... أما أنا فقد بدوت ضمن طابورهم المتحرك كقزم

أو صبي، تلهى بعضهم بقرصي والعبث بلحيتي أو بصفع قفاي ورأسي، متضاحكين عليّ، مستهزئين بي وبمشيتي العرجاء. لم يكن بوسعي أن أحتج عليهم أو أشكو بهم، فصبرت وتحملت طوال الطريق الذي بدا لي أوعر من الصراط وأشق.

حين بلغ الطابور الساحة الوسيعة، تفرقوا جماعات، واحدة للعب الباسكيط، وثانية للمبارزة البدنية، وثالثة للتريض بحمل الأثقال. اقتادني أفراد من هذي الأخيرة وأخذوا في هيئات متنوعة يستعملون جسمي ووزنه كما لو كنت جزءا من الأجسام الجامدة، يحركونني كما يشاءون ويفتلون بي عضلاتهم الناتئة.

لم أكن لأسمح بكل هذي المساءات والمهانات، خصوصا حين سمعتهم يتداولون في تسخيري ككيس لحم وعظام يترامونه، ويكون على من يخطئ المسك به أداء الحق، أي إهداء دورة كحول أو حشيش... تحينت لحظات لغوهم واستراحتهم، فتملصت من قبضتهم وعدوت في أرجاء الساحة، أوقع برجل نقطة وبأخرى فاصلة، باحثا عن ملاذ أو منفذ. لاحقني بعض من هربت منهم، لكني غلبتهم بخفتي وإتقاني فن المراوغة والفلت. ولما أحسست أن نفَسي بدأ ينفد ويخونني، تراميت على حارس كاشفا عن رقمي واسمي، مترجيا إياه أن يحميني ويقودني إلى حضرة القاضي المحقق. وكم حمدت الله حين سمعت الرجل يأمر المطاردين باستئناف رياضتهم ويهتف

في وجهي: حمودة أنت! يا لحسن المصادفة! سيادة القاضي سألني عنك. هيا بنا إليه. لكن لا بد لك أولا من دوش وحلاق ولباس مشرّف... هيا اتبعني.

تبعته مدهوشا، وأملي ألا أكـون بفراري من فائضي العضلات إلى مقرر المصائر كالمستجير بالنار من الرمضاء. ومن جهة اقتناعي أنه لم يعد في الإمكان أسوأ مما كان، لبيت اشتراطات الحارس الثلاثة، فكنت بعد بضع ساعات مغتسلا نظيف الجسم والفم، حليق اللحية والرأس على مقاس نمرة ٢، مرتديا بذلة مدنية سوداء وقميصا أبيض وربطة عنق حمراء، واحتفظت لتيسير مشيي بحذائي الرياضي نايك.

استبقاني الحارس في غرفة ضيقة مغلقة طوال ساعات لم أستثقلها، بل على العكس استحليتها نظرا لموسيقى هادئة منبعثة من بافلات في السقف، ولخدمات أخرى قدمتها لي مضيفة حسناء شديدة السمرة: مرطبات حلال ووجبة غداء فاخرة متبوعة بكؤوس شاي معتبر وحلويات متنوعة شهية. حاولت استدراج المضيفة إلى حوار مّا، ففهمت منها أنها فيلبينية لا تتكلم سوى الإنجليزية. تفوهت بكلمات وجيزة تفيد شكري الجزيل لها وسوءَ معرفتي بهذه اللغة، معتذرا عن خلل نطقي وعواره.

في أوقات انفرادي بالغرفة الموصدة وما فيها، صرفت لحيظات واقفا أمام مرآة، أتأمل جسمي ونحوله المفرط،

ووجهي المتغير إلى الأسوأ: فم قليل الأسنان، وجنتان ضامرتان، أنف ناتئ العظمِ مرهق، عينان غائرتان تلويان على آخر بريق، لحية وشعر مخضبان بشيب كثيف... هاربا من المرآة كشّافة العيوب والنقائص، اعتصمت جالسا بأريكتي، أتأرجح بين الإضراب عن التفكير والتخمين للتمتع بالساعة التي أنا فيها، وبين محاولة استقراء ما يدور في مخ المحقق وتصورِ ما يعده لي من عروض مغرية أو من مفاجآت غير سارة في حالة ثباتي على موقفي أو ما يسميه عنادي وتعنتي.

كذلك بقيت حتى حلول المساء وإقبال المضيفة المذكورة عليّ تدعوني لمصاحبتها حالا. ركبت معها خلف سائق جيب مسلح، وبعد طي زهاء خمس كيلومترات على الرمل بسرعة مذهلة، توقفت السيارة أمام عمارة قوية المبنى، محروسة المحيط والجنبات. تبعت مرافقتي إلى المدخل حيث الطقس جيد التكييف، يبعث على الانشراح والراحة. وهنا اجتزت بعدها معبر المراقبة الإلكترونية، وخضعت دونها لتفتيش يدوي دقيق من طرف جندي أجنبي ما لبث أن طالبني بخلع حذائي ووضعه في سلة. استجبت مطاوعا. وبعد دقائق عاد من تواريه في مخدع وسلمني سلة فيها حذاء موكاسان عوضا عن حذائي الذي حجزه لأسباب عجزت لسانيا عن طلبها. انتعلت الموكاسان الجديد وسرت وراء المرافقة عبر ردهات وأبهاء أمريكية الديكور والأثاث، ولمّا وصلنا إلى مدخل حانة مكتوب

عليه bar zamzam طلبت مني اقتعاد أريكة منعزلة نعتتها لي قبل أن توليَ الدبر محيية.

الحانة أمريكية الصنف والطراز، حسبما أعرفه عنها في أفلام الوسترن. الرواد معظمهم أمريكان ولا لغة غير لغتهم تصول وتخرق الآذان. نقرت على طبلتي الوطيئة مغنيا بالهمس مع المرحوم حسين سلاوي: ما تسمع غير أوكي أوكي كامن باي باي...

إحدى بارُومن شدت انتباهي، ليس بصدرها العاري تقريبا وجمالها الباهر فحسب، وإنما أيضا لشبهها الشديد بنعيمة، سكرتيرة المحقق، معاملتي بالحسنى والعاطفة عليّ. من دون أن أشعر أو أقدر العواقب هرولت نحوها وهتفت باسمها همسا. تجاهلتني وقالت سآتيك بما تطلب. عدت إلى مكاني فورا كيلا أحرجها أو أثير التفات عيون رقيبة فضولية. بعد لحظات تيقنت خلالها أن لا أحد يأبه لي، دلفت إليّ نعيمة فانحنت ووضعت كأس عصير برتقال على طبلتي مرفقا بكلمات خافتة سريعة: إذا كلمتني خرّبت حياتي، ثم انصرفت عجلى متمايعة.

ناجيت نفسي: لا وألف لا يا نعيمة! لن أخرب حياتك أبدا. يكفيني أن تكون حياتي خربة، يكفيني...

لكن هل عليّ أن أسكت عن هؤلاء الجنود والمخبرين الأجانب، الصناديد المكابرين، الذين لا يستثنونكِ يا محبوبتي مما يفعلون بالنادلات والبارُومن الأخريات؛ فهذا يطبطب

على ردفيك متلذذا؛ وذاك يعصر نهديك ويبخرهما بسيغاره ويشرب على نخبهما؛ وآخر يحوشك إليه ويقبّل فمك بشغف ثملٍ مجنون.

أجيبيني، نعيمة، هل أصبر على ما أشهد من مناكر وأبلع حنقي وغيظي، أم يحق لي أن أنتفض على اليانكيز وأنهر العابثين بك وأهدد: لا تمسوا بنت بلادي يا خنازير، وإلا...

وإلا ماذا يا حمودة الضعيفُ المريضُ المسحوق، المرشحُ في كل آن وحين للقتل بجرة سكّين أو بلكمة صاعقة على القلب أو مخ الرأس! بعوضة أنت بين الفيلة والأسود، وليس لك والله إلا أن تلزق بمقعدك وتتصاغر وتتقوقع، وإذا صارعت فعلى توهم، وإذا استنكرت الفواحشَ ما ظهر لك منها أو وضْعَ ماء زمزم المبارك اسما لهذي الحانة المتهتكةِ الخليعة، فافعل ذلك في قرارة نفسك، لا تتعداها أبدا إلى الجهر والصدع فإلى التهلكة.

الوافدون على البار من الجنسين تكاثروا، والأجسام والأفواه، حسبما أرى، تمشت فيها حميا الكؤوس، والموسيقى التي اشتد أوارها جذبت إلى الحلبة الراقصين فوجا بعد آخر، فالتفت سيقانهم وتشابكت أياديهم، وتأرجحوا مترنحين بين الشد والبسط والضم والرخف، وهلمّ جرا هلمّ جرا.

على هامش ذلك الجو الصاخب، قصدتني نعيمة، أعطتني كأس ماء، شممته ولم أشربه. أبدت في وجهي حركات تشي

بنهري، وكلماتها في أذني، خلاف ذلك، نزلت عليّ دفئا وسلاما: هذي عليبة دم خبّئها. وفي ختام لقائك مع المحقق مزقها بأسنانك، واقذف ما فيها وأنت تشكو له بين سعال وآخر إصابتك بالسل. استرني. وداعا...

لم تمض دقائق على غياب ناصحتي في الزحمة حتى شعرت بمن يربت على كتفي ويقول: قم واتبعني.

[٢٤]

من لقاء أخير مع المحقق إلى عنبر الساهرين

الآمرة امرأة بزي عسكري، الراجح عندي أنها أجنبية. كان صخب المرقص يتضاءل وأنا أتبعها في ممرات وأبهاء. اقتادتني عبر باب أول فثانٍ، وعند الثالث استعملت هاتفها المحمول، وبعد دقائق من الانتظار تلقت الإذن بالدخول. دخلت خلفها إلى صالون وسيع تضيء جنباتِه أضواء حمراء خافتة. أبصرت قاضي التحقيق يتربع على أريكة متحركة، وأمارات سكر متقدم تغزو محياه. أقعدتني المرافقة على كرسي، أدت التحية العسكرية وانسحبت.

ظللت كالصنم، أترقب أن يفاتحني الداعي بالكلام، وأُدركَ موضوع الدعوة ومحلَّ إعرابي أمامه في هذا المكان الفاره الباذخ؛ لكنه بدا لي منصرفا عنّي إلى حركات غريبة مشبوهة من تحت منضدته. وفجأة خرجتْ من هنا بالذات فتاة نصف عارية، واختفت وراء باب. استفحشت الأمر وأنا أرى القاضي

الزاني يسوي حزام سرواله ويعبُّ كؤوس ويسكي كما لو أنه ماء. اضطررت لإشعاره بحضوري أن أسعل متحسسا علبية نعيمة، وصعّدت السعال ثم خفضته لأسمعه كأنه يهذي: فانتزمات النيك في الماء، وإتيان الحوامل من حيث حلل الشرع، والحائضات من الدبر، ومباشرة الأوانس الفاتنات المزاحمات تحت الطاولات، كل ذلك حققته ونلته، ولا سبق لي فيه ولا ادعاء...

أخذ الرجل يترنح على أريكته، مغمضَ العينين، ثملا. سلطت عليه سعالي مجددا، فتنبّه وسأل من الساعل، عرفته بهويتي، استغرب وجودي فذكرته أنه هو من دعاني. فكّر قليلا، أمرني بالجلوس قريبا من منضدته مشترطا ألا أسعل. وحين نفذت، سمعته يقول بين عبة من كأسه ونفثة من سيغاره:

ـ هذي يا الوجدي فرصتك الأخيرة... الخلاص نصيبك إذا اغتنمتها، والهلاك مآلك إذا ضيعتها... طوال سنوات عملي المديدة لم أعثر على صنوك في العناد والصلابة. لكن وحق الحق، لن تكون شوكة في قدمي ولا حجرة عثرة في مشواري. أعطيتك الكثير من وقتي الثمين، بيد أنك لا تساوي بصلة أو خردلة؛ نهيت الغولة عن الإمعان في تعذيبك؛ أمرت بغسلك وتطهيرك، ثم بعلاج رجلك المعطوبة؛ عيّنتك للإفتاء وأنعمت عليك بهبات وهدايا في صينيتين؛ وأنت يا أجلف بادلت إحساني وإكرامياتي بصدودك وعقوقك، قابلتني بإقفال قلبك

بل صدرك كله في وجهي. بُحتَ للجنة تسوية البنان باعترافات تسترت عليها في حضرتي، وعندي إحساس بل يقين أنك ما زلت تتستر على أخرى، أخطرها حول الإرهابي ابن خالتك الحسين المصمودي ورهطه... الآن دقت ساعة الفصل، إما تُفرغ ما بقي في جعبتك، وإما عوضه تدخل سلك الخدمة، فأعفو عنك وأطوي ماضيَ صفحتك. وإن أجلفت ورفضت هذا وذاك، كانت نهايتك في جناح النادمين على يد أحد محترفي القتل والنحر وجبابرة الإجرام بالجملة. هناك حيث وكرك، لا أمان لك بالمرة على حياتك. وقد أعذر من أنذر. مصيرك إذن بين يديك. قرره فورا، لا تبطئ.

قلقلت رئتيَّ وما يمور به صدري نحو حلقومي وفمي، فأجبت القاضي الفاسق السكران بين سعلة وسعلة:

ـ سيدي... قلت ألف مرة في شأن ابن خالي... لا شيءَ لي أزيده عما سطرته في تقريري المرفوع إليك... إلا أن أفتري عليه الكذب، وهذا حرام... في الدين والأخلاق... أما الخدمة فمرضي يجعلني غير صالح لها... الطقس في مجمعكم لا يوافقني، وقد أمعن في نخر صحتي، كما ترى...

رأيت الرجل، وقد احتقن وجهه واحمر، يغادر موقعه ويهجم عليّ بصفعات متوالية، آمرا إياي ألا أسعل، وبعدها رفعني بيديه وعاجلني بضربة رأسية أرعفتني وكادت تمحق وعيي. اغتنمت عودته إلى أريكته وانشغاله بخمره ودخانه،

فصحت: لا للعنف لا للعنف! أليست هذي عقيدتك حضرة القاضي! وفيما أنا أموه بهذا الكلام، حشوت عليبة الدم في فمي وفعلت ما أوصتني به نعيمة، مزكيا مقداره بلحس رعفي، ثم دنوت من المحقق ساعلا، قاذفا بين يديّ نقط دم، شاكيا إليه سلّي وخوفي من أن أعديَه. انتفض الرجل مبتعدا وتلثم بمنديل وهو يشير إلى باب خلفي ويزعق آمرا: ازهق يا مسلول. اغرب عن وجهي...

لم أذعن على الفور. بدا لي أن أتحامق قليلا حتى أعطي للقاضي الهائج المائج حجة أخرى للحكم عليّ بالإبعاد وإرجاعي إلى موطني. خطر لي: في هذا المعتقل الرهيب، لم يعد لي ما أفقده. سلّي سلاحي، صح أم لم يصحّ. بناءً عليه أخذت أطارد القاضي المحقق في جنبات صالونه الفسيح، شاهرا عليه سعالا وبصاقي الدموي، متوعدا إياه بنيل نصيبه من سُلّي، فيما هو بجثته الفيلية يفر بين أثاث المكان الكثيرة، مثبتا منديله على أنفه وفمه. مثل رئيسك الآن، يا نعيمة، كمثل صبي مرعوب، يهرب من جنّ يلاحقه أو غول. لو رأيتِه هكذا خائفا مرتجفا، يتصبب عرقا ويلهث من شدة الإرهاق، إذن لسقط من عينيك تماما، وأدركتِ أن المستأسد المقرر في مصائر المعذبين مجرد كائن من ورق، يخشى الموت ويصغر أمامه كأيّ حقير رعديد.

حين رأيت حضْرتَه يلجأ إلى المرحاض ويقفله عليه،

ارتأيتُ أن السلامة في أن أنهيَ سيركي، وأغادرَ الصالون على عجل من الباب الذي أشار لي إليه سعادة المختبئ. الباب ينفتح على سرداب إسمنتي، تضيئه لمبات شاحبة، يصلح كمخرج إغاثة أو ما شابه. السرداب يفضي عند متمه إلى أرض رملية تيماء ذات رُبى وكديات، يكشف القمر البالغ أشده عن شساعتها وتراص كتلها الرتيبة. وقفت لحظة محتارا، أحاول استبانة سبيل يهديني إلى مباني المعتقل، ويقيني شرَّ الهيام على وجهي في صحراء تضمن للتالف عديم الزاد والبوصلة موتا محققا، ولجثته دفنا تحت رمال هوجاء، أو نهايةً في بطون الطيور الجوارح والحيونات آكلة الجيف.

مضربا عن موت رديء غير مشرف من ذاك الصنف، حكّمت عقلي أو ما بقيَ لي منه. قدرت أن سيارة الجيب، التي نقلتني إلى حيث الآن أوجد، لم تقطع أكثر من خمس كيلومترات ونيف. فعليّ أن أسير في الاتجاه المعاكس معبئا حواسي لالتقاط أصوات وروائح أو أضواء تهديني. وكذلك كان.

بعد مضي وقت واجتياز مسافة قِست حجمها بإرهاقي واشتداد البرد القارس عليّ، حملتِ الريح إلى مسمعي نباح كلاب أخذ شيئا فشيئا يعلو كلما حثثت المشي وغالبت الخوف. وما هي إلا لحظات حتى برزت أمامي دورية جنود بكلابهم وكشافٍ ضوئي سلطوه عليّ بعد أن طوقوني وحصلوا

مني على هويتي ورقم زنزانتي. لحظت بينهم أسيرا مكبلا، طلب منيّ رئيسهم تحت إنارتهم إن كنت أعرفه. ألقمت فمي الحجر حتى لا أنطق باسمه، عمر الرامي، تجاهلته من باب الحيطة والحذر، لكنه بادر إلى تذكيري بتلك الليلة التي قضاها معي في زنزانتي قبل أن تأمر الغولة باستئصال خصيته الثانية. سمحوا له بمعانقتي وتقبيلي، قال لي باكيا:

ـ أشهدك أخي أمام هؤلاء السادة أني حاولت الهروب من المعتقل، وأقبل راضيا عقوبة الإعدام الصادرة ضدي.

منفعلا مرتبكا رددت عليه:

ـ لا يا عمر! هذا حكم جائر، عليك بطلب الاستئناف...

قاطعني الرئيس زاعقا:

ـ القانون هو القانون... سيطبق عليك أنت أيضا وقد ضبطناك في حالة فرار بينة. سأطلب تفعيل المادة الاستعجالية في شأنك، لأنك زدت على عمر الرامي بانتحال شخصية المدني ذي الزي الأنيق واعتمدت أسلوب الخداع والتمويه...

ركّبت مضطربا جملة تفيد أني أرتدي هذي البذلة غير السجنية نزولا عند طلب حضرة القاضي المحقق ودعوته لي. ضجّ الربع بقهقهات الجنود الصاخبة وأصدائها حتى اضطر الضابط إلى إيقافها بإصدار أمر تنفيذ حكم الإعدام.

عصبوا عينيْ عمر الرامي واصطفوا قبالته على بعد بضعة أمتار مصوّبين إليه بنادقهم. قربني منه الرئيس وسأله عن وصيته الأخيرة فقال: تسكنوا حمودة الوجدي هذا زنزانتي حتى يرث حوائجي ويرعى ذكراي، ثم تلا الشهادتين غير خائف ولا مرتجف. وبعد أن أبعدني من قرّبني، أعطى الأمر بإطلاق النار، فهوى صاحبي المسكين مضرجا بدمه، تُريه أنوار القمر الساطعة.

ناشدت الجمع، وأنا أحبس دمعي وأرتعد من شدة الانفعال والبرد، أن يُدفن جثمان الميت بالتكبيرات الأربع والدعاء له. نهرني الرئيس بأمر اصطحابهم والتزام الصمت، لبيتُ بينا هو يلغو بصوت جافّ مستهتر: لا تكبير ولا دعاء ولا هم يحزنون. هذا حكم القانون في الفارين الفاشلين، وأيضا لا يدفن الفار لكون جثته لن يبقى منها بعد ساعات غير العظام والجمجمة، تتكفل الرمال العاصفة بطمرها إلى الأبد...

على باب بناية سجنية لم أتبين رقمها، سلمني الجنود إلى حارس غوريليِّ البنية، وأمره رئيسهم أن يضعني مؤقتا في زنزانة المتوفى عمر الرامي عنبر الساهرين. كان الممر المؤدي إلى عشي الجديد المؤقت يضم على جانبيه زنازن ذات أبواب من قضبان حديدية تكشف عنها وعما يجري فيها. درجة الخلوة والحميمية بالغة هنا درجة الصفر، كحال الطقس أو أقل! بعد أن أوصد حارسي الباب دوني لم يكن في وسعي سوى

الارتماء على اللحاف طمعا في نوم مبرم يريحني بعض الشيء من مخاطر الأمس ومشاقه.

ليس ضوء النهار الذي أيقظني بل ضجيج أنواع شتى من الوصلات الغنائية الراقصة، غمرت أصداؤها القوية مربعي في موجات صادمة متدافعة، ففتحتْ عينيّ على حلول الليل وإدراكـي للمكان الذي أنا حلٌّ به. قمت أنظر في الأمر. الزنزانة قبالتي تأوي شبح إنسان متعرّم في لحافه، الراجح أنه نائم. صحت مرارا وتكرارا باستفساري ومطالبتي بحقي في الهدوء والراحة، ولا من مجيب. عدت القهقرى، قبعت في فراشي مفكرا في هذا البلاء الجديد المسلط، الصادر من ترانزستورات أو من أبواق مبثوثة في جدران وسقوف. محاولا صرف حواسي وأعصابي عنه، تلهيت بالنظر المركّز في حوائج المرحوم الرامي، فلم أر في إرثه الضئيل سوى مذياع من حجم متوسط سارعت إلى إخفائه، ومشط دائري الشكل، ومعجون أسنان في علبتين من دون فرشاة، وبذلة سجنية زرقاء بادرت إلى ارتدائها فوق بذلتي الرومية اتقاءً للسعات البرد. بحاسة شمي رصدت شيئا من الطعام في كيس مختوم، فتحته وهدّأت تضور معدتي جوعا ببعض الخبز والزيتون وبطاطا مفردة مغلاة، ثم بماء أنبوب شحيح نظفت أنفي من مخاطه المحمر وأسناني المتبقية بسبابتي المطلية بالمعجون. وحين تمددت طمعا في شيء من الراحة أو النوم كان هذا وتلك من رابع المستحيلات. الصخب الموسيقي

أخذ يقوى ويصم السمع كلما دارت عقارب الساعة، لا فتور يصيبه ولا تخفيف.

في الهزيع الأخير من الليل ساد الرحاب صمت فجائي. اهتبلته فرصة لجلب النعاس إليّ؛ لكن سرعان ما انطلق صوت مدوٍّ بالبسملة والحمدلة، أعقبه بكلام في الوعظ والإرشاد حول نواقض الوضوء وتجهيز الميت والتكبير والدعاء له، كما في ضرورة تفضيل المؤمن للصلاة على النوم، والتفكير آناء الليل وأطراف النهار في عذاب القبر بين نكير ومنكر، وفي الحشر ويوم الحساب؛ كلام يذكّر بأفقر خطباء البوادي والأرياف وأغباهم؛ وكان خطيب آخر الزمان هذا يضمنّ هذره من حين لآخر بآيات كثيرة من الذكر الحكيم، تعالى كتابنا المقدس عن هذا المكان المدنس المهين، ويتلوها لاحنا بصوت أنكر من أصوات الحمير. وحين أفرغ ما في جعبته البئيسة، وبحّت حنجرته وعيت، أعقبتها مباشرة أسطوانات الأهازيج والأغاني الفادحة الوقع والصخب، فاستعصى النوم واستحال. لمحت حارسا يمر أمامي، هرولت إلى قضباني وصرخت بتسآلي واحتجاجي، فأشار لي بما يفيد أنه لا يسمعني، وانصرف.

بقيت وحدي أبرطم بكلمات السخط والتذمر. حشوت أذني بما استطعت من فتات الخبز المبلل، عصبتهما بربطة عنقي، لكن من دون أي فائدة تذكر. هذا الهرج الهائج المشعشع، المحطم للأعصاب حقا، طريقة أخرى من طرائق ولاة المجمّع

وطغاته في تعذيب السجناء ودفع أهشهم وأهزلهم إلى الانهيار والجنون. تلوتُ في نفسي ما قدرت عليه من الآيِ والأثر لاتقاء شرهم وإبطال كيدهم، وحسبيَ الله ونعم الوكيل...

الفجر لمن صلاه. صليته والحال في الجناح على ما كان، فلم يهدأ إلا مع انبلاج الصباح، حيث أتاني حارس بوجبة فطور، فرجوته أن يلتمس من النزلاء تخفيض موسيقاهم إلى آذانهم بالليل، رحمة بمن يريد النوم أو الاسترخاء، فأنبأني بصوت خشن رسمي أن المبدأ المؤسس لهذا الجناح يُلزم السجناء بترويض أجسامهم على فقدان عادة النعاس أو تعاطيه تحت إيقاعات الأهازيج الشعبية والأغاني العصرية، تتخلله نتف من خطب الفقهاء أيامَ الجُمع والأعياد... سألته عن سبب إحداث هذي الضوضاء في الليل وليس نهارا، ردّ عليّ مستخفا وهو يقفل راجعا: السهر يكون بالليل، يا غبي! وتلك الموسيقى التي تأتيك فيه مجرد تداريب للسهرة الكبرى مساءَ هذا اليوم. أما سمعت بها!

غاب الرجل تاركا لساني يغلي بأكثر من سؤال:

السهرة الكبرى؟!

إذا دُعيت إليها فأن ألبّي أخف عليّ من أن أقبع في هذا الدهليز الذي لا شك يسكنه أحياء ما هم بأحياء، وأشباح آدمية يعلم الله ما بها وما تنطوي عليه من قروح وأعطاب.

عدا التيمم فالصلاة التي صارت قرة عيني، ليس لي أن أملأ

فراغ نهاري بغير ما فطرت نفسي عليه: أن أقبع وأتقوقع، أن أنكمش وأتكوم، محاولا النفاذ من سرتي إلى مكمني الجواني، حيث أبحث وأنقب، أناجي وأحاور، أتذكّر وأستحضر، أحارب على توهم وأنتصر، أراود الأسئلة الحدّية والعلامات القصوى، أتاخم القولَ المُحال، والإكسير الزئبقي العصيَ على النوال، أدور حول ذاتي كالثعبان، وأعض على أخمص قدميّ ناشدا من النوم الهادئ قسطا، لعلي أغور في التأمل أكثر، وأستعيض عن واقعي المتصدع بالحلم المنير الأبهى. لكن هيهاتَ هيهات!

ها الممر كله يعج بحركة أقدام وأصوات دؤوبة. ها أصحاب المحامل يخلون زنازن من ساكنيها المرضى أو الأموات، ضمنهم النزيل قدامي المتعرِّم دوما واثنان من جيرانه شملهم بصري وترحمي. ها صوتٌ بوقيّ يطن الآذان بإعلان واحد مكرور عن موعد السهرة الكبرى، وحثٍّ جميع السجناء المعافين على حضورها، والعمل على إنجاحها بعد أن يمسحوا أطرافهم بالماء ويقطعوا دابر روائحهم الكريهة. ونبه المعلن أن كل من تشرف بالدعوة عليه أيضا بالتخلص من أي سلاح ولو كان شفرة، موسى، حجرة، وإلا فضحته المعابر والآلات الإلكترونية، وقضى في الكاشو عشرين يوما تباعا...

أطل عليّ صاحب البوق واستعجلني في تنفيذ أمر الطهارة، وراح يلغو بكلامه حتى انقطع صوته. نهضت متثاقلا، مفكرا أن عصابة المجمّع يدّعون توفرهم على آلات التقاط الروائح

الكريهة، فضحكت مكرها وأنا أخلع لباسي. قصدت الصنبور، كان ماؤه وافرا على غير عادته، بادرت إلى تنظيف قميصي ثم رش أطراف بدني، بدءا بالإبطين والأليتين والعانة، وكللت ذلك بوضوء معتبر يستحق اسمه. أديت ما عليّ من صلوات، وبعدها تربعت على لحافي أنتظر أن يجف قميصي وما قد يأتي.

هدوء غريب يخيم على الممر والزنازن لا أدري أيَّ هرج سيتبعه أو هيعة. خطر لي تجزيةً للوقت أن أصنع عطرا على قد الحال، أتطيب به وأتمضمض، وكذلك فعلت، إذ حللت قطعا من معجون الأسنان في كأس ماء وذوبتها ومخضتها حتى صارت سائلا صالحا لما توخيت. وبالمناسبة ترحمت على روح عمر الرامي الذي ورّثني من ذلك المعجون النادر الأعز علبتين، جزاه الله بأوفر منهما وأرفع في جنان الخلد.

وفيما أنا، متلفلفا ببطانيتي، أعرض قميصي لريح كوة في أعلى الجدار، سمعت أصواتا بين الصياح والخفوت، تحتج وتشكو، هذا يسأل كيف يشرف السهرة بحضوره، وهو يعاني من انحباس بولي، إذا خرج شيء من أيره فكشفرات جارحة حادة؛ وذاك يطالب بالصابون كي يصح الغسل وإزالة الأوساخ ورواسب الجنابات؛ وثالث يستبعد حضوره السهرة وبذلته متسخة ولا بخور ولا ماء الزهر يتطيب بهما... أما ما فاه به آخرون فلم يصلني لبعد المسافة أو رداءة الصوت والموجة.

قبيل غروب الشمس، كنت على أتم الاستعداد بعد أن

ارتديت بذلتي العصرية بما فيها ربطة العنق، ولبست فوقها بذلة عمر السجنية، وجدّدت مضمضتي وتطيّبي بعطري الخصوصي، ومشطت لحيتي وبقية شعري. وما هي إلا لحظات حتى نادى عليّ حارس برقمي، واقتادني بين زنازن فارغة إلى بهو تجمع فيه سجناء كثر، لم أتعرف بينهم على أيّ واحد. معظمهم كانت لهم وجوه كالحة مكفهرة، كأنهم يذهبون إلى حتفهم أو إلى مآتم وليس إلى حفل كبير ساهر؛ أما أقليتهم من المنشرحين المبشورين، فيبدو من حركاتهم وتصنعاتهم أنهم محششون أو يعانون من انفلات عقلي.

دوت صفارة إيذانا بالمسير، فهش الحارس على الجمع كما يُهشّ على القطيع. تكاثرت أعداد السائرين مع اجتياز ردهات وأبهاء، وحين كان الخروج من البناية وتقصّدِ أخرى عبر رحاب وساحات، عزلني جندي وأمرني بالمشي أمامه وتجنب السؤال. عند سفح تل رملي خال إلا من جنديين ورجل بعباءة فقيه، خاطبني هذا الأخير بعد أن بسمل وحوقل وتأكد من هويتي ورقمي السجني:

ـ صك ذنوبك وآثامك ثقيل، يا الوجدي! آخرها محاولتك الهروب من المركز واحتلال زنزانة لا تحمل رقمك... أجبني بما قلّ ودلّ: ألا تطلب التوبة؟

ـ لم أرتكب جنحة حتى أفعل... لم أهرب. كنت عند سعادة القاضي بدعوة منه.

تبارى الرجال كلهم في إطلاق القهقهات. عاد الفقيه إلى استنطاقي:

ـ وهذا الادعاء بل الفيش جنحة أخرى تزيد في طينك بلة... قل لي ألا تخشى الموت؟

ـ قال تعالى ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

ـ إلى هذا الحد تسترخص روحك! هل لأنك لم تجد عملا؟ في زمان تفشي العطالة الملايينية كالوباء العضال، ألست تطلب شغلا؟

ـ أطلبه إذا كان حلالا شريفا، يدر رزقا ويحفظ ماء الوجه.

ـ أراك عصي الانقياد، غليظ الطبع، لا تستحق الرحمة ولا العفو. استعدَّ للموت الآن، إما تدفن حيا وإما رميا بالرصاص. الطريقة تُحدد لا بالأزلام، التي يحرمها الإسلام، بل بما لم يمنعه ديننا الحنيف بنص صريح، أي بيل أو فاص. أنت وحظك، أنت وزهرك. أيَّ وجه تختار؟

مغالبا ذعري ورجفتي، أجبت:

ـ وجه الله وحدَه أختار...

ـ إذن هذي قطعة نقدية، أدوّرها عموديا في الهواء، وتنزل في راحتي بما اخترتُه عوضك. اتفقنا؟

فعل فقيه الزور ما ذكر، وعند نتيجة القرعة هجم عليّ يقبلني ويهنئني صائحا:

- نصيبك الرصاص وهو أرحم لك من أن تقبر حيا... يا سعدك! وحتى الرمي بالرصاص نوعان: إما يتكفل به الجنود فيصدر من بنادقهم حيا مدخنا أو مطاطيا لا يميت، وإما نعيرك مسدسا صامتا توجهه إلى صدغك فتخرج منه رصاصة عامرة أو لا شيء يميت عدا تجشؤ الزناد. أيّ حل تختار؟ هذي المرة لا مجيب غيرك...

أجبته ورأسي دائخ بكلامه الخبيث: ليكن الحل الأول، فطالب الجنود بأخذ موقعهم في المسافة الشرعية. وفيما أنا أردد الشهادتين دنا مني الرجل وهمس لي: أعفيك من هذا الموت الوشيك إذا قبلت عرض القاضي المحقق، وأنت حفظته عن ظهر قلب. أومأت له بالرفض. إذ ذاك ابتعد قليلا وعدّ: ثلاثة إثنان واحد صفر... صدمتني الرصاصات دفعة واحدة. هويت على الأرض ولما لم أسلم الروح. حين رمقت سائلا أحمر يلطخ صدري لم أشكَّ أني أنزف دما وأُحتضر. لكن طال احتضاري وطال انتظاري، فيما أصوات منفذي الإعدام فيّ تطرق سمعي مقهقهة مستهزئة؛ ثم وقع بصري أفقيا على حذاءين أمرني صاحبهما بالنهوض. نهضت متّاقلاً، مشتت الذهن، مفكّك الكيان. كان الآمرُ هو الفقيه، قال خانقا ضحكه:

ـ حتى الموت يمهلك بعض الوقت كي تفكر جديا وتتخذ الخيار الأخلص... يا بختك! الدم على صدرك ليس سوى عصيرِ الطماطم. امسحه واذهب إلى السهرة... اذهب.

لبّيت أمر العسكري المتنكر في عباءة فقيه، وسرت رفقة جندي إلى حيث أشار.

[٢٥]

السّهرة الكبرى ومفاجآتها المفجعة

أوقفني مرافقي أمام باب وأمرني بالدخول، دخلت. أشار عليّ حارس باحتلال مقعد شاغر في مؤخرة القاعة، قعدت وأنا أستغرب عدم إخضاعي لكشاف إلكتروني عن السلاح والرائحة الكريهة، ربما بسبب أني أتيت متخلفا أو أن الكلام عن ذلك الكشاف مجرد أكذوبة بلقاء وبهتان. سألت جليسا قدامي أين نحن؟ استعجم سؤالي، فوضحت: معتقلنا أين يوجد؟ أدار سبابته في صدغه وأشاح بنظره عني. بقيت راكنا، أغالب هجمة النوم عليّ بتنقيل نظري بين الأقفاء والظهور وبين العيون الملتفتة أو الرقيبة وما تزخر به القاعة وتمور.

القاعة حيث يجري الحفل الساهر هي قاعة المطعم الجماعي وقد أُعـدَّت كمسرح، جمهوره المساجين بكل أطيافهم وألوانهم، يطوّقهم الحراس وبعض الجنود، ويخترقون صفوفهم أمام خشبة بارزة وسيعة، تتداول على إضاءتها لمبات

متعددة الأشكال والألوان، متراقصة على إيقاعات موسيقى بلوز خافتة. وكان بين الحضور الجالسين المنتظرين باعة متجولون بأكياسهم وسللهم، هذا يعرض مرطبات، وثانٍ مقبلات وساندويتشات، وثالث، الأنجع في تسويق سلعته بالجهر: يا ناس، اسمعوني أقول، إذا انخلص الفول، أنا مش مسؤول...

وافق قعودي بفارق زمني بسيط ظهورَ فتاة على الخشبة، تشي كل صفاتها الجسمية أنها، والله أعلم، السكرتيرة ناهد بوسني. ومن تتمة كلامها المغنّج المغنّى، البازغ من شفتين محمرتين باسمتين جدا خلف ميكروفون محمول، هذا ما التقطت:

- أي شيء يروي عطشكم؟ أي شيء تشربونه فتسري السعادة في حواسكم وأوصالكم؟ كي تولدوا من جديد وتتمتعوا بشبابكم اشربوا دائما ما أشربه: ببسي كولا... كل الشباب ما يشرب غير ببسي... ببسي كولا يعطي للنساء النشوة وللرجال القوة... والآن آخر ما تطبنه جعبتي: أنا وحبيبي، لما يصيبنا الملل ونتساق وراء المخاصمة والكره، ننطرح فورا على فراش ريشبوند، إذ ذاك تعود السعادة ويعود الحب... ريشبوند ريشبوند يا سلام!

حيّت الفتاة الجمهور، التي لا ريب عندي الآن أنها ناهد بوسني بالذات والصفات، ولو أنها عوضا عن قلبها الراء غينا،

كما عهدتها ذهبت إلى قلب القاف ألفا، واستقر يقيني حين سمعت أصوات سجناء ينادونها بذلك الاسم، ومنهم من يصيحون، وهي تنسحب متمايعة، بدعوتها إلى فراش التبن والحلفاء، فراش الفحول.

بعد المنسحبة، أتى إلى الخشبة من كولسها رجل سمين تامَّ الصلع، مضفرُ اللحية، نزق المشية، كثير الهرولة والقفز، متشح ببذلة صفراء، يمسك بيد ميكروفونا، وبأخرى منديلا أحمر يلوح به تارة، ويمسح عرقه الغزير تارة، قال متخنثا:

ـ جمهورنا الحبيب، دامت لكم الأفراح والمسرات... بعد تلك الوصلة الإشهارية، غابت صاحبتُها ذات الصوت الرخيم، كاملة الصورة والأوصاف، لكنها بفضل استقامتكم وتأدبهم ستؤوب. وأنا منشط الحفل أعود لأستأنف معكم جلسة تنقية الأجواء وإذابة الجليد وإزاحة عقابيل الحسيفة والشحناء بين الإخوة الأشقاء، وذلك تحت ظل الآية الكريمة: كلكم من آدم، وآدم من حواء.

تعالت الأصوات بالتصحيح فتمايع المنشط بالقبول والاعتذار ثم استأنف:

ـ أه سوري! اللسان ما فيه عظم... نظرنا من قبل في شكاوى وتظلماتِ بعضكم من بعض، فصلنا فيها من على هذي الخشبة إما بالإجماع وإما بالأغلبية، متوخين الإنصاف وتآلف القلوب والوسطية السمحاء. لم تبق إلا دعوى واحدة رفعها السجين

٦٩ الحاضر بيننا ضد السجين الغائب ١١٢... أرى يدا مرفوعة... لعلها للمدعى عليه... إذن تقدم إلى الخشبة صحبة المدعي... أسرعا أسرعا، الوقت يداهمنا... أنت المدعو حمودة الوجدي؟ حسنا... عليك ربطة عنق. إذن أنت إنسان متحضر، شيك! علال منخار هذا يتهمك بالتسبب له في ستين جلدة نالها بعد أن شجعتَه على التصفيق لك أثناء حصة تحقيق سابقة. نخيرك بين أن تُجلد الآن تحت أعين الشهود بمثلما جُلد هذا العبد المسكين، وبين أن تبوس رأسه وتطلب منه الصفح أمام الملأ...

لم يكن في وسعي لختم هذي المسخرة إلا أن آخذ بالخيار الثاني. وفيما أنا أستسمح غريمي بالميكرو أمام الجمهور، تعلقتْ عيناي برجلين جالسين جنبا إلى جنب في الصف الأول. عاد المنشط إلى تناول الكلمة وهو يحثني على الانصراف، كما فعل المدعي، قال:

الحمد لله والشكر له. وصلت البوسة وطُوي الملف على الهواء مباشرة... ما لك يا الوجدي تقف جامدا كالصنم؟ هل تستأنف الحكم؟

نعتّ الرجلين وصحت:

ـ هذا وصاحبه أعرفهما...

ـ هل لك دعوى ضدهما؟

ـ هذا إلياس بوشامة، أُعدم منذ مدة في ساحة المجمّع أمام الشهود، وهو الآن هنا حيّ يُرزق! وذاك عمر الرامي، أُعدم أمام عينيّ بالأمس فقط، وهو هنا الآن حيّ يُرزق!

نقل المنشط كلامي بآلته فأثار زوبعة من الضحك. سألني:

ـ الوقت يداهمنا. اختر أحد الاثنين في مواجهة تكون لك أو عليك.

أشرت إلى عمر الرامي فأقبل. سعيت إلى معانقته وتقبيله، فتبرم وأجفل. سألته متوددا والمنشط يدير بيننا الميكرو:

ـ بأي أعجوبة بل معجزة ربانية عدت للحياة، بعد أن أفرغ الجنود فيك كمية هائلة من الرصاص؟

أجاب بصوت خشن أجش:

ـ لم يحدث لي أبدا ما تقول، يا هذا. أنت أكيد غلطان...

ـ لا أخي! تذكر ليلة وضعوك في زنزانتي، بعد أن أخرجوك من غرفة التعذيب مثخنا بأنكى الجراح، شبهَ ميت، فأسعفتك وواسيتك... تذكر أرجوك...

ـ هذا الرجل يا ناس يخبط ويخرّف. كل ما تقوله محض كذب وافتراء!

تدخل المنشط هاتفا:

ـ هذا نزاع لا بد من فضه سريعا للعودة إلى برنامجنا الحافل. من منكم يا سادة يقترح طريقة أو حلاّ...

تعالت بعض الأصوات منادية بتطبيق أحد مبادئ الشريعة: البينة على من ادعى واليمين على من أنكر؛ وتطالبني أخرى بذكر أوصاف أو أمارات حميمية في جسم الميت المبعوث. أخذ مني المنشط موافقتي على الاقتراح. اعترض بدءا على احتجاجي بملكية عمر للبذلة التي أرتديها لكون البذلات السجنية كلها تتشابه. عندئذ بثثت في أذنه أمر افتقاد عمر الرامي لخصيتيه، فحدجني بنظرات مبهمة وأطلق سلسلة ضحكات أشبه ما تكون بالزغاريد، سرعان ما انتقلت عدواها إلى فئات من الجمهور، ثم قال بين قهقهة مصفرة وأخرى:

ـ لا لا مش معقول! هذي جوهرة فريدة لن تنسوها حتى لو نسيتم سهرتنا برمتها... اسمعوها، يا سادة، وعوها كيما يكون لكم من بعد، في هذي النازلة كما في سابقاتها، الكلمة الفصل والحكم النافذ... الجدع ذا يصف غريمه بالخصيّ، أي بافتقاره إلى خصيتيه... تصوروا هول التهمة!

ضجت بعض جنبات القاعة بضحكات مدوية تعضدها أخرى آلية. ارتفعت أصوات طارحة أسئلة غير مسموعة، فعلق المنشط:

ـ كم هائل من المداخلات عبرتم عنها بكل حرية على الهواء

مباشرة. أُعيّن هذا المشاهد في الصف الأول أمامي لتجميعها في رأي واحد. خذِ الميكرو وأعلن عنه بكل شفافية ونزاهة...

تناول المعيّن الآلة، فتذكرت للتو أني تعرفت عليه في جناح التائبين. وكيف أنساه وهو ممن استعملوا جسمي كتلة للتريض! آثرت السكوت حتى لا أزيد في تعويص أمري. قال:

ـ أستخلص مما ذهب إليه الجمهور الموقر أن ينتخبوا لجنة من النزهاء الثقات، تُعهد إليها مهمة التحقيق في الأمر عن كثب. فإن ثبت لها بالفحص والمعاينة أن المدعى عليه تنقصه خصيتاه، تُوبع بجنحة التستر والكذب، وإذا انتهت إلى عكس ذلك حُكم على المدعي بالإخصاء الوتري، مراعاةً للظروف المخففة. هذا هذا والسلام.

سأل المنشط إن كان الطرفان المعنيان يقبلان بهذا العرض. بادر غريمي بالإيجاب، وعقبت أنا بالاعتذار، ثم اعترفت في الميكرو الممدود لي بغلطتي وبكون الرجل إنما شُبِّه لي. لكن عمر قبالتي، الذي لا شك في هويته، جذبني من ربطة عنقي وطاف بي الخشبة مرتين، فيما المنشط يولول ويهتف لا للعنف، آمرا إيانا بالعودة إلى مقعدينا سالمين، ثم استدرك مغتبطا:

ـ قبل أن تلحق بمقعد، ضع يا الوجدي بوسة على رأس هذا الفحل البريء... هكذا نكون بعون الله قد نقينا كل الأجواء وأذبنا الجليد وأزحنا عقابيل الحسيفة والشحناء بين الإخوة

الأشقاء... سهرتنا مستمرة نونستوب على الأثير مباشرة... والآن يطيب لي أن أزف إليكم هذا الخبر السعيد: بعد قليل سيشرف سهرتَنا بحضورهم بعضُ أعيان مجمّعنا، إلا فخامة القاضي المحقق الذي اضطر للسفر إلى الخارج لإجراء فحوص طبية روتينية... أعود إليكم لأكرر على مسامعكم ما قلته من قبل: مبدؤنا شعارنا التداوي بالمسرح والحفلةِ أيْ بالمسرحِ الاحتفالي وبالموسيقى الراقصة والرقص الموسيقي... مبدؤنا شعارنا صفقوا له صفقوا...

من بافلات ضخمة معلقة بأعلى الأعمدة والزوايا، انبعثت تصفيقات آلية، لم تعززها تصفيقات معظم الحضور إلا بنغزات وهمزات من هراوات الحرس وأيديهم، نلتُ منها حصتي وأنا أستبشر خيرا بخبر سفر المحقق لإجراء فحوص طبية، أرجو الله أن تكون ذات صلة بلقائي الأخير به وتمارضي الموفق أمامه. استأنف المنشط كلامه متحمسا:

ـ شكرا على تصفيقاتكم الحارة الصادقة... الآن قبل ذلك كله، هذا خبير أمريكي في الشؤون الإسلامية، يريد تبليغكم بلغة الضاد كلمة وجيزة في ما انتهت إليه أبحاثه وحفرياته... تقبلون؟ إذن ليتقدم الدكتور جورج ليفي مشكورا.

أقبل المنادى عليه بزي مدني لافت وربطة عنق فراشية، قصد الميكرو الثابت، حيّى الجمهور بابتسامة صفراء متوددة، قال:

ـ حضرات السادة... أتشرف بأن أخاطب جمعكم الموقر

بلغتكم العظيمة العصماء، التي نزل بها القرآن الكريم. واسمحوا لي إذا أخطأت في النحو أو نطقت بكلمات على غير ما يلزم. وللتقليل من هفواتي سأعمل بنصيحة «اجزم تسلم»، اقتداء بما بُني عليه الإسلام الحق، أي السماحة والتسامح والتيسير واللطف. ألا تعلمون أن اللطيف والغفار والرحيم من أسماء الله الحسنى! ألم تقرأوا في الذكر العزيز قوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، ثم ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. يُقال الأصولية بشتى صنوفها ردة فعل لحيوان جريح. لكن من يجرح نفسه ويجرح الناس حتى القتل غير دعاة العنف والغلو والإكراه، وسوى ذلك مما نهى عنه الإسلام، دين المسالمة والسلام، كما يدل عليه نزوعُه الصوفي، الصوفت أو اللاّيت؛ إنه دين الوسطية والوئام والمجادلة بالتي هي أحسن، دين اتباع القول الأحسن، ولو تعلق الأمر بالقرآن، القابل جدا للتكيف مع مستلزمات العصر وضروراته، وبالتالي لإعادة الهيكلة والليفتيگ؛ إنه دين لا للحروب، لا للتسلح إلا بما خف وكفى لدحر أعداء الأمن الداخلي، لا لامتلاك أسلحة الدمار الشامل، لأن الإسلام جوهريا دين الليونة والمرونة والوداعة واللطافة وخفض الجناح والجنوح إلى الهدوء والسلم... كما أبين ذلك في محاضرة مقبلة، والسلام...

اضطر المتكلم الخطيب إلى التوقف والهرولة من حيث جاء، بعد أن ضجت القاعة بالاحتجاجات ضده، وانهال عليه

سيل من النعال، فاعتقل الحرس بعض أصحابها. غير أن سجينا، كمارد، تسلل إلى وسط الخشبة وصاح في الميكرو الثابت: يكفي لدحض كلام الأمريكي السخيف أن تسمعوا آخر تصريح التقطته من ترانزستوري قبل أن يخطفوه منّي، وهو لرئيس الحكومة الإسرائيلية يهود أولمرت، قال: إذا لم تتوقف حماس عن تخويف أطفالنا وعجائزنا بقذائفها التقليدية الصنع، فسندمر غزة ونتركها أثرا بعد عين. وذهب فطاحل الحزبين الكبيرين والطوائف الأخرى إلى التنافس في إعلان إسرائيل دولة يهودية نقيّةً خالصة وفرض تجريد الفلسطينيين من السلاح بما فيه السلاح الديني؛ ونطق وزير الحربية باسم كل هؤلاء وأصالة عن نفسه بما هو أدهى وأشرس، اسمعوه...

لم يكمل الرجل جملته حتى اقتربت منه ناهد بوسني على رؤوس قدميها، فرشت وجهه بمرذاذ فاحت رائحة فلفله الحار في أرجاء القاعة، ثم عادت من حيث أتت، ونقل حارسان المنطرح المغمى عليه عبر باب إغاثة، وسط موجة احتجاجات من بعض الجمهور.

مع عودة السكون الذي فرضه الجند والحرس، رجع المنشط إلى الخشبة صحبة جماعة عليهم سموت الزهاد والدراويش، قال وهو في غاية النرفزة وينقر الخشبة بقدميه:

- ويلي ويلي! قلت لكم في البداية بلاش سياسة بلاش بلاش! السياسة تفرّق القلوب، وتزرع سموم الفتنة وبذور

الحروب، ونحن هنا مرادنا تنقية الأجواء وإذابة الجليد وإزاحة عقابيل الحسيفة والشحناء بين الإخوة الأشقاء... الآن وقد عاد إليَّ هدوئي، لنرجع إلى سهرتنا البهيجة... مبدؤنا شعارنا، كما سبق أن ذكرت يا سادة، هو التداوي بالموسيقى الراقصة. هذي فرقة تفتقت عبقريتها عن مزاوجة الحضرة الصوفية بأنغام التكنو الشهيرة، كما حصل بين الجاز وطرب گناوة، وتسموا بأحَرفهم الأولى هكذا T T I، أي ترانستكنو إنترناسيونال، وهم هنا معنا ليشنفوا أسماعنا بقطعة من إبداعهم. ومن منكم هاج وجدُه وغلت روحه وأحب الإسهام في الرقص، فله ذلك على السعة والرحب... اثري... تو... وان... زيرو...

من البافلات صعدت موسيقى التكنو بقوة تصم الآذان، فيما الفرقة على شكل دائري يدخلون في جذبة جنونية، اشرأبت فيها الأعناق، وترنحت الرؤوس والأبدان، وغمضت العيون من شدة التأثر والانفعال، وتنافست الأفواه في هدير فائض لا يسمع منه سوى «الله حي». كان بعض الجمهور يشاركون الفرقة جذبتها، وبعضهم، وأنا معهم، يرفعون عقيرتهم بقراءة اللطيف وترديد أسماء الله الحسنى.

توقفت فجأة ضوضاء التكنو، فانسحبت الفرقة تحت تصفيقات معظمُها آلية. بعدئذ عاد المنشط فرحا جذلان. قال:

ـ شكرا شكرا الفرقة TTI. سهرتنا الموفقة مستمرة... مبدؤنا شعارنا الآخر: التداوي بالهزل والتسلي، كما دأب عليه السلف

الصالح، المبشورون، المتبسمون، المقتدون بنبينا المرسل، عليه أزكى السلام، إذ رويَ عنه أنه كان إذا رأى فرجة نصَّ. أقول إذن لا للكلوح والتجهم، لا للانقباض والعبوس...

وفيما هو يتمايل بجسمه الضخم ويرقص، عبرت الخشبة فرقة عازفةً مغنية على طريقة الراب: نصوا يا ناس نصوا/ بصوا يا ناس بصوا/ تفرجوا تنفرجوا/ تنعّموا تنغّموا/ ترنّموا تغنموا/ الدنيا تمر وتفوت/ واللي ما يضحك عليها/ بهمومها يذبل ويموت...

ـ إذن (أردف المنشط) علينا بحصة من الضحك الحلال، يتكفل بها مهرّج المركز المحلّف، المقتدي بأئمة الهزل والتنكيت، والتفكه والتفويج، وكلها ملح الحياة وترياق الغم والتقنيط... صفقوا للقزم الظريف، صاحب اللحية البيضاء الطولى والأير الخبير، سليل الدوحة الضاحكة، ووريث شيوخ القولِ المرحِ الخليع، الذين يشفع لهم الشعار المأثور: لا حياء في الدين؛ ومنهم تمثيلا لا حصرا الجاحظ والتوحيدي وابن الجوزية والسيوطي والتفاشي والنفزاوي، وغيرهم كثير، رحمة الله عليهم أجمعين، ونفعنا بذكرهم وذكراهم وغفر لنا ولهم، قولوا آمين...

لبَّت الأمرَ أصواتٌ متحمسة وأخرى فاترة. وبعدها ظهرت من باب خلف الخشبة جماعة من مدراء المجمّع وأكابره، وكانوا سبعة، تبرز بينهم الغولة بجسمها المهول،

الأسودِ الملبس، وبنظراتها الفالتة الشزراء، فهب المنشط لاستقبالهم ومصاحبتهم إلى منصتهم المخصوصة، منحنيا مرحبا، ثم توجه إلى الجمهور بأمر الوقوف لهم وتحيتهم بالتصفيق. أطاعته فئات وعصته أخرى، فأقبل الحرس على هؤلاء بالضرب والتهديد حتى وقف الجميع مصفقين، فيما البافلات تبث سيلا جارفا من التصفيقات الآلية ومعزوفات عسكرية غريبة، ما أنزل الله بها من سلطان. وحين انتهت هذه المسخرة، تربع الأعيان على أرائكهم، واقتعد الجمهور كراسيهم، والمنشط يجزل لهم الشكر على حرارة استقبالهم للأعيان الأجلاء وصدق مشاعرهم تجاههم؛ ثم نادى على القزم المهرج لعرض نمرته بخفة وإتقان. مثُل المنادى عليه فبايع أسياده المتكئين واحدا واحدا، ولحيته الشيطانية تكاد تكنس الخشبة، ثم تناول الميكرو وقال تحت ضحكات الجمهور الهازئة المستهترة:

ـ أيها الأسرى الأعزاء، يا أحبابنا في الله... هل أتاكم خبر ظريفٍ زير، كان يشيد بإحدى غوانيه، وبأدائها الجنسي عبر تقنيات وضيعة عز نظيرها، وضمير مهني لا يضاهى. سُئل هل تدخل الغانية الجنة أم لا؟ أجاب بما يستحق الضحك والتصفيق: لا تدخلها، اللهم إلا إذا تبطنتها يوم الحشر، واجتزتُ الصراط هكذا معها، فولجت الجنة تحت جبتي...

انفردت البافلات بالضحك الآلي، وبعده أردف المهرج قائلا:

ـ حفظكم الله من الكبت والقصور الجِماعي. هذا راهب عجوز على مقعده في حافلة مكتظة بالركاب، تقف بجواره فتاة فاتنة حسناء، ما فتئت بعد ضربة حصّار مفاجئة أن فقدت توازنها وهوت بمؤخرتها الأنيقة في حِجر الراهب المرتبك، ثم استقامت محمرة الخدين، معتذرة، ملتمسة عفوه. أجابها منفعلا: لك العفو كله يا ابنتي. ما فعلت سوى إيقاظ مفتاح الكنيسة من سباته العميق.

دوّت الضحكات الآلية متبوعة بأخرى لمن أدرك رمزية النكتة فورا أو بعد هنيهة. وعاد المهرج طربا متبسما، قال:

ـ بدأتم تستملحون نكتي. أراكم تطلبون المزيد، لكن البرنامج حافل والوقت ضيق. واحدة أخرى هي ملحة الوداع. هذا شيخ يعشق الغلمان، وقعت عينه ذات مرة على واحد ذي رونق وجمال، تبعه يراوده عن نفسه، يكد في ذلك ويجهد. ركب الفتى حافلة، ففعل مثله ووقف لاصقا بظهره يبث في أذنه كلاما. أومأ المتبوع بقبوله ورضاه، لكن الشيخ أخذ يهمز طيز معشوقه ويبالغ، فسأله المهموز متضايقا: خلاص اتفقنا... تنغزني كذا ليه؟ أجاب: أنغزك، حبيبي، عشان أذكرك...

تلت ذلك مباشرة عاصفة قهقهات منكرة، أطلقتها الغولة من مكبر صوتيّ أمامها، فرددتها البافلات وضخّمتها في صعقات

متدافعة متصاعدة. وحين صرمتها بغتة، مثل أمامها المهرج القزم، قام بحركات بهلوانية عجيبة، كأنه يهديها لمولاته وحاميته دون سواها، وحين تعب حبا نحوها واختفى وراء أذيالها.

عاد المنشط مصطنعا ابتسامة عريضة، قال:

ـ قاتلك الله يا إمام المهرجين وشيخ الأقزام! الآن جاء دور العملاق الأسود، خديم هذي الديار، الغني تماما عن التعريف. سمعتم لا شك في يوم ما، دامت لكم المسرات، قرعات الطم الطم على الطبول، الناشئة المترعرعة في أدغال إفريقيا السوداء، لكن لم تسمعوا قط أقوى وأتقن من التي سيشنفنا بها عملاقنا. والعجب الأعجب في أدائه أنه، هو القارع، لا يسمع شيئا من قرعاته، سواء خفّت أم دوّت، لأنه، كما تعلمون، من الصمِّ البكم، والعياذ بالله... إنه قريبا آت... صفقوا له شجعوه... عدّوا معي اثْري تو وان زيرو...

فعلا، أقبل العملاق بطبله الإفريقي إلى وسط الخشبة. تطلعتُ إليه معتليا مقعدي، فكنت من أول الواقفين له، المتكاثرين، المصفقين حقيقةً وصدقا، لا بالتهديد والإكراه، الهاتفين بحياته والدعاء لقارته وأمته وقبيلته. وبعد أن تدخّل الحرس لإسكات الواقفين الهاتفين وإجلاسهم، ركع العملاق للجمهور، وظل على هيئته هاته وطبلُه بين ركبتيه، فأخذ بين نقر على آلته وقرع ولطم يُحدث أنغاما يتجاذبها الخفوت

والتوسط والعلو، فتبعث كلها على الطرب والنشوة فالرغبة في الاهتزاز والرقص. كذلك كان، إذ ما سخن الجو وحمي حتى شرع أفراد يقفون راقصين، يليهم آخرون، فساد الرفس والعفس والخبط والركل وتحريك الرؤوس والأيدي والأبدان دائريا، ميليا، حلزونيا، تنطعيا. دعاني راقص إلى مشاركة الجماعة، اعتذرت برجلي النقهة. لم يسمعني. جذبني حذاءه، فطفقت أقلده بما قل واستطعت.

طال المشهد الراقص مدة فأخرى، فشل المنشط في إيقافه، والراقصون، وقد استطابوه، أمسوا كأنهم به يتطهرون من أدرانٍ وكبوتات، ويرمونها عرقا متصببا وزفرات وآهات جوفية حرى مزبدة. عاود المنشط الكرة لإطفاء لهيب الفتنة، وتذرع بأعلى صوته الميكرفونيّ بأن الحفل الساهر ما زال في برنامجه الكثير، مذكرا أن ختامه المسكي سيعرف تقديم الأفواج والطلائع الجديدة من الأسرى التائبين، خريجي الهداية إلى سبل التعاون على البر والتقوى، واستئصال التطرف والإرهاب من البسيطة وكل أنحاء الدنيا. ولما لم ينفع كلامه في شيء، دنا من العملاق يلاطفه ويداريه، مشيرا عليه بإنهاء نمرته والاختفاء، فلم يلق منه سوى الإعراض متبوعا بضربة إبعاد أسقطته أرضا.

آنئذ نهضت الغولة نافرة متعجرفة، قصدت عونها وخديمها بخطوات ثقيلة خابطة، ووجهٍ ساخطٍ خطير. أمرته إيماءً برمي

طبله ففعل، وبالسجود لها وبوس قدميها فلبّى. طلبت مكبرها الصوتي ولغطت بخليط ألفاظ فرنسية وإنجليزية وعربية، تفيد أنها اشتغلت من قبل في سركات عالمية كمروضة للأسود والنمور وحيوانات وحشية أخرى، وأن ترويض العبد الزنجي الساجد الآن لها، المقبّل قدميها، أهون عليها من ترويض قردٍ أو حمار جافل. وبعد ذاك توجهت إلى الجمهور بكلمات تهديد ووعيد بالكاشو المؤبد وأقفاص التدمير لكل من تسوّل له نفسه التنطع والزيغ عن النظام والطاعة.

لكن ما إن سكتت المرعدة المزبدة، مستردة أنفاسها استعدادا للمزيد من التشدق بالكلام الناريّ المهين حتى شاهد الجمع كله عجبا: العملاق بغتةً ينتفض واقفا وفوق كتفيه الضخمتين الغولة، فطاف بها الخشبة وهي، مغالبة ذهولها، تحيّي الجمهور وترفع شارة النصر تحت عاصفة من التصفيقات الآلية. وتعاظم العجب وساد، إذ ما لبث الحامل أن خبط محمولته بقوة على الخشبة، تحت أنظار كل الحضور، الجاحظة المدهوشة، ثم انقض عليها يغرز أصابعه في عينيها وهي تصرخ وتستغيث، ويكيل لرأسها ضربات ماحقةً دامية، ويمزق بطنها كأنه يروم إخراج أمعائها وأعضائها. وما إن خلت الخشبة من المنشط والأعيان الفارين، حتى أطلق الجنود والحرس وابلا من الرصاص على العملاق الذي بادر إلى التدرق متمددا ثم واقفا بجسم الغولة المضرّج بالدماء. ولما تيقن المسلحون أن رئيستهم تُحتضر أو أمست جثة هامدة

بين يديْ محتجزها، تلقوا الأمر باجتياح الخشبة واستهداف العملاق من كل صوب. وكذلك فعلوا بحيث أشبعوا جسم المستهدف رصاصا من دون أن يعفوا منه الغولة الميتة، فهوى الجسمان في بركة من الدم الوافرِ السيال.

عندئذ حدثت في القاعة حركة تمردٍ واشتباكات عنيفة بين أطياف من السجناء من جهة، وكنت معهم، وبين الحرس وفئات من الأسرى من جهة. فتدخل الجنود يعضدون هؤلاء ويطلقون على أولئك الذخيرة الحية في الهواء وبين أرجلهم، مصحوبة بالقنابل المسيلة للدموع. وفي جو الهلع والرعب المتفشي والتزاحم نحو الأبواب والمنافذ، تلقيت ضربة على قفاي من أخمص بندقية، فسقطت بين آخرين نازفا، مغمى عليّ.

[٢٦]

عودتي إلى أرضي الحبيبة

استيقاظي كان في عنبر المستوصف بين جرحى كثر. بجهد جهيد حاولت تذكر ما حدث لي منذ وقت صَعُبَ عليّ تقديره. استرجعت بعض خيوط الشريط ومحطاته. لكن سرعان ما أوقفتُ تذكري بسبب شقيقة ألمت برأسي، ثم تظاهرتُ بالنوم ما إن أبصرتُ نعيمة رفقة صاحبتها الطبيبة النصرانية ورجل أجنبي يقصدون سريري بأقنعتهم الطبية. وفي ما دار بين الثلاثة من كلام بالإنجليزية، وفقني الله إلى فهم أن الطبيبة تحاول إقناع الرجل بكوني مسلولا أبصق الدم، تُشهد على ذلك نعيمة وتنصح بإرجاعي إلى موطني، لأني صحيا لا أصلح لأي خدمة، وقد أكون وبالا على سكان المجمّع كلهم... كان ذلك آخر ما سمعته قبل أن أحس بيد نعيمة تلامس وجهي وألمح الثلاثة ينتقلون بين أسِرّة أخرى ثم يغادرون العنبر.

شعرت للتو بفرح ولو مشوب بالحذر. ساعة الفرج عما

قريب تدق إذا لم يطلب الرجل الأجنبي إخضاعي لفحوص طبية مراقبة. لم يدر في خلدي ـ وهذا ما حدث! ـ أن ينتفض مريض بجواري واقفا على سريره ويصيح ملء حلقومه: يا ناس! هذا الرجل مسلول، أرسلوه بيننا ليصيبنا بدائه المعدي. إما يطردونه في الحال وإما نخلي جميعا هذا المكان...

أعقب تحذير المريض كلمات استنكار وتنديد، ثم تأهب معظمهم للفرار، وأوشكوا عليه لولا قدوم فرقة التدخل السريع، فأطفأوا نار الفتنة بطرائقهم الخاصة، وبعد أن فهم رئيسهم السبب، أمر بعزلي في مربع موصد، وهنا حمدت الله كثيرا على ما حصل، واستبشرت به يمنا وخيرا.

في عز الليل أتاني زائر مقنع، استلم خاصرة يدي اليسرى، ركبّ فيها دمليجا وصفه بالإلكتروني، يُخبر كوادر المجمّع وخبراءه عبر شاشات هايٍ تِك بكل حركات حامله وسكناته. أنبأني أني عما قريب سأُرحّل، ناصحا إياي بعدم محاولة إبلاغ أي شخص أو أي جهة عن إقامتي السجنية أو سبب غيبتي، وإلا أحدث لي الدمليج فورا سكتة قلبية ماحقة حتى قبل أن أفتح فمي، وفي حالة أي عطب تقني، فإن قناصا محترفا سيترصدني برصاصة صامتة ثاقبة يصوبها إلى رأسي، ثم إن الزائر وخزني بحقنة وغاب، وبعده غبت تماما عن وعيي...

لا ريب أنهم أثناء ترحيلي جددوا مرارا حقني بمخدر شديد

الفعالية، مديد الأجل، بحيث لم أشعر بأي شيء عن واسطة النقل وكيفيته وحيثياته، فلم أفق إلا وأنا تحت ظل نخلة أحمل كيسا يحوي بعض الأكل المصبّر وزجاجة ماء وقطع نقود مغربية. تأكد لي أني أصبحت في ذمة أرضيَ الحبيبة بعد أن أقبل جمّال وسألني بعامية المغرب الفصيحة إن كنت أحتاج عونا. شكرته واستفسرته عن اليوم الذي نحن فيه، قال الأربعاء ربيع الثاني ١٤٢٥ الموافق ١٧ ماي ٢٠٠٦. همهمت: إذن حبسي ناهز خمس سنين. سألني الرجل قلقا إن كنت أحتاج شيئا. أجبته: نعم، أقرب قرية بها مسجد، قال إنها عبو الأكحل، تُرى من هنا رأي العين، وأنه سيعبرها. استقمت واقفا فأركبني خلفه وأطلق العنان لدابته مهللا مرحبا.

أثناء الطريق سألني عما أتى بي إلى هذي البقاع النائية. أجبت وأنا أنظر دمليجي: حبُّ بلادي وصحرائها ورغبتي في مشاهدة البدر عن كثب وسماء النجوم اللألاءة. استحسن فعلي وأثنى عليه، وجوّد بصوت كوثري رخيم: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ۝١٩ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا﴾ [نوح: ٢٠] صدق ربنا العظيم. أنبأته أني قاصد من بعدُ مدينةَ مسكني وجدة، فقال الطريق إليها، والحمد لله، سالك عبر شاحنات وسيارات وحافلات أجرة. ولما وصلنا، خلع عليّ سلهامه وتركني قرب الجامع الأوحد في القرية استأنف ترحاله بعد أن استحلفني أنّي لا أحتاج شيئا.

دخلت الجامع حيث توضأت وصليت الفروض والنوافل شكرا لله على سلامتي وخلاصي. بتّ في صحن الجامع مع جمع من الغرباء وأبناء السبيل، وفي الغد ركبت وسائل نقل شتى في اتجاه مدينة مستقري.

تذييـل

(أ)

نعم يا نعيمة، أنعمكِ الله ونعّمك!

هنا في سهل أنگاد قريبا من وجدة، اخترت مثواي منذ رجوعي إلى وطني. البلدة فلاحية رعوية، نقية الهواء، طاهرة الماء. أصوات الطيور والدواجن والدواب وريح شمالية طيبة تهب من مرتفعات بني سناسن، فتتضافر في هذا الفصل الربيعي على إلهائي، ولو بين حين وحين، عن سنواتي الجمرية وركام جراحي وآلامي.

بوصية من رجل خيّر صالح، حمدان المزاتي، مالك الضيعة حيث أقيم، تسهر أرملة وبنتها العزباء على راحتي وترميم جسمي بتغذية طبيعية وأعشاب شتى. استعدت بفضل الله وعناية المرأتين الإقبال على النوم مخلصا شيئا فشيئا من عادات الأرق والكوابيس السجنية، كما صرفتُ نهارات شهر متفيئا ظلال سنديانة معمرة وارفة، وأماسيه تحت سراج وهاج في

بيت مفتوح وسيع، أحرر على الورق فصول شهادتي السجنية وأتحرر ما استطعت من ذكرياتي الموجعة ورواسب المحنة السائبة في جسدي ونفسي.

أثناء ذلك وبين صلاة وأخرى، في رجب الخير هذا، كانت قريحتي تتقد وملكاتي تفور وتغلي، فتسيل شآبيب الكلمات والصور على لساني فورقي عبر قلمي. وحين آخد وقتا للراحة أو للأكل تسألني مضيفتي خدوج وبنتها زينب عما أفعل، فأحكي لهما نتفا وجيزة، إذّاك ترمي الأم حجابها على الأرض وتنفجر بالأدعية الساخطة الحامية على الطغاة الكفرة الظالمين الجانين عليّ، فيما الفتاة من مقلتين محمرتين ترسل الدموع الغزار، فأبادر إلى مسحها بمنديلي وراحتيّ.

صبيحةَ يوم بهيّ الطلعة، بدا لي أن أقتعد تجويفا بأعلى السنديانة لأضع اللمسات الأخيرة لمخطوطتي وأصحح وأنقح، مصحوبا بمنطق الطير الفاتن. وكذلك فعلت. لكن ما إن انصرفت إلى عملي تماما حتى أوقفته لحظة جراء رؤيتي زينب تجري في كل اتجاه، كغزال مولَّهٍ جُنَّ، تناديني ملء صوتها وتترجاني أن أظهر، فيما أمها تأمرها أن تهدأ وتتزن. وحين نزلتُ إلى مكاني المعتاد، هرولت الفتاة نحوي، لاهثة، متنفسة الصعداء، فشملتني بنظرات مبللة بالدمع، لم أر منذ زمان أدفأ منها ولا أعمق ولا ألمع، ثم فرّتْ إذ لمحت أمها تقصدني حاملة طبق فطوري.

لما دقت ساعة فراغي من تقييدي، طويته وخبأته في صندوق،

واستأذنت السيدة خدوج في الذهاب إلى وجدة على بغلتها لقضاء أغراض ملحة، فهيّأت لي وزينب رحلي وشحنتاه بالطعام وسلل خضر وفواكه لأسلمها للفقيه المزاتي، ثم وهما يودعانني ويدعوان لي استحلفاني أن لا أطيل الغيبة، فانطلقت إلى وجهتي معمّم الرأس، مجلبب الجسم، مقصوص اللحية، لا خوف عليّ ولا أنا أحزن.

أمضيت في المدينة خمسة أيام حافلة بالأنشطة والإنجازات: بكرت إلى مركز تحاقن الدم حيث تبرعت بشيء من سائلي الأحمر لقاء إطلاعي على حالة مناعة المكتسبة، وبعده قصدت صانع أسنان فاقتلع من دون تخدير ما تبقى لي منها نخِرا متداعيا، ووعدني بتعجيل إعداد فكين على مقاسي ينسيانني فمي الخرب.

ليلة اليوم نفسه أمضيتها في مكتبتي حيث جمّعت تحت ضوء شموع ما أمكنني إنقاذه من كتب لم يأت عليها قضم الفئران ودودات الورق، وخزنتها في صندوق ما زال يحفظ بعض حوائجي وألبستي وكناش حالتي المدنية. بعدئذ توضأت وصليت قبل أن أستسلم للنوم متدثرا بجلبابي.

غداة اليوم التالي، استفقت مفزوعا بتوالي رؤى كابوسية عليّ، يعمرها شخوص أعوامي السجنية المرعبين وأحداثها المفجعةِ الجسام. انتفضت وهرعت إلى الجامع حيث توضأت وصليت الفجر واستخرت، ولا أحد من المصلين تعرّف عليّ، وكذلك

كان حالي مع المارة بعد أن غادرت الجامع. زيّي التقليدي ولحيتي الشيباء وسنوات غيبتي، كل ذلك أضفى عليّ صفة المغمور أو الوافد الجديد. وحتى أنا في ارتيادي للأسواق والقيصرية والأمكنة العامرة، قليلة هي الوجوه التي استذكرتها لِما يلحق الناس من تغيرات بفعل التوعكات الصحية، والتقدم في العمر، وزحف الشيخوخة. سنة الله في خلقه ولا تجد لسنته تبديلا.

تناولت فطوري على عجل، وبعده يممت وجهة مركز تحاقن الدم حيث استلمت نتائج تحليلاتي. طلبت من رئيسة الممرضات طمأنتي على سلامتي من السيدا، فقالت مبشورة: كل شيء بخير، فنزل عليّ قولها يمنا وسلاما. قبّلت يديها فرحا مبتهجا إذ أدركت أن الله نجاني مما فعلته الغولة بي وفتح لي سبيلا سالكا إلى الزواج الشرعي، لا يتحمّل المزيد من التلكؤ والإبطاء، سيما مع من مثلي أضاع سنوات في غياهب السجن، وأخذ يطرق باب الخمسين. فما إن زرت الفقيه الفاضل حمدان المزاتي بعيد عشاء يومي الثاني حتى خاطبته في هذا الشأن بالذات، وأنا أسلمه سلل الغلة من التي أتمنى أن تصبح حماتي. تنورت قسمات الرجل ونادى على زوجته أن تحضر العشاء. قال:

ـ والله، يا ابني، ما تنويه يُسجَّل لك في الحسنات. تسْتر بنتا طيبة وتبر بها، ترعاها وترعاك، وتحسّن دينك بزواج حلال... بالأمس جاءني مقدّم منطقة أنكّاد يسألني عنك وعن سبب إقامتك

في ضيعتي، أجبته بما رده على عقبيه خجلا معتذرا. والآن وقد عزمت، لا خوف عليك من المقدّم ولا من أيٍّ كان.

رآني مترددا في قول شيء. أتت زوجته مرحبة مهللة. قمت للسلام عليها. ملأتْ المائدة بالصحون وقالت وهي تعود إلى شواغلها المنزلية إن الحاج حدثها عني بالخير وإني هنا كما في بيتي.

استأنف الفقيه كلامه:

ـ رُزقتُ، حمودة، ابنان، واحد مات في ظروف غامضة، والثاني يجوب البلدان بعلمه وخبرته العصرية. وأنت الآن بمثابة ابني. كلْ أولا، وبعده قل لي ما يقلقك ويشغل بالك.

اقتت بالقليل. مسحت يديّ وفمي، قلت:

ـ جزاك الله يا حاج عما تفعل من أجلي. لكن بعيد زواجي بحول الله لا بد أن أجد عملا حلالا أتعيش به وأعول أهلي. رأيي أن أبيعك المكتبة حتى أتملك بثمنها قطعة من ضيعتك أو بجوارك. نفسي تضيق في المدينة وأمكنتها المغلقة، هذا ما جناه السجن عليّ والشكوى لله. لذا لا أراني أشتغل وأتنفس واسعا إلا في البادية، أفلح الأرض، أزرعها وأسترزق بمحصولها وغلاتها... شأن آخر يشغلني الآن وقد أتممت تحرير شهادتي: كيف لي أن أنشرها حتى تصل إلى من يهمهم الأمر؟

نظر الشيخ إليّ نظرة ود وحنان:

ـ التأني من الرحمن، يا حمودة، والعجلة من الشيطان. كل شيء في وقته. القطعة الأرضية تحصل عليها كما تريد وترضى، لكن ليس الآن. طبع تقييدك يتم بعون الله، لكن ليس الآن. أما زواجك فبرّ، وخير البر عاجله... يوم الجمعة بعد العصر نقصد الضيعة مع عدلين، تعقد على زينب، نقيم عشاء احتفاءً بالمناسبة السعيدة، وبعدها لها مدبر حكيم.

سكت الشيخ لحظة، اقتات خلالها باليسير ثم استل من شكارته ظرفا مختوما، قال:

ـ هذا مبلغ من المال، أقرضك إياه قرضا حسنا، لا فوائد ولا ربا. ترده إليّ متى استطعت. اشتر منه ما تحتاجه ويخصك، لا تنس لباس العريس والعروسة. عشية اليوم الموعود عليك بارتياد أقرب حمام من داري. وإلى أن يحين يوم السفر تبيت هنا عندي. قم الآن إلى الغرفة أمامك تنل ما أنت في أمس الحاجة إليه: الراحة والنوم الهادئ.

لم أجد من وسيلة لشكر الشيخ على بره وإحسانه سوى الإكثار من تقبيل رأسه ويديه قبل الذهاب إلى ما أشار عليّ به.

عشية يوم الخميس اشتريت مقتنيات وألبسة، ركبت طاقم أسناني الجديدة، اغتسلت في الحمام كما لم أغتسل منذ سنين، صليت مع الشيخ صلاة العشاء في مسجد الحيّ، ودعا كل منا للآخر بخير دعاء. صباح يوم الجمعة، أحضرت من مكتبتي

صندوق الكتب الناجية، وبعيد صلاة الظهر كان الفقيه الأجل في شاحنته ينقلني بمتاعي صحبة زوجته وعدلين.

في الضيعة، استقبلتنا خدوج وزينب بوجهين مشرقين، مبشورين؛ ثم هبتا لإحضار أطعمة وأشربة. وما إن استوى المجلس حتى فاتح الشيخ الأم في طلبي الزواج من بنتها على سنة الله ورسوله، فأتى جوابها بتثقيلة الصلاة والسلام على رسول الله متبوعة بسلسلة زغاريد، لا شك أن أصداءها وصلت إلى أقرب الجيران؛ أما البنت فقد ألمت بها نوبة انفعال وفرح شديدة، فخرجت تجري في الحقل وتقفز. وبعد أن آبت إلى رشدها ودنت من الجمع دامعة العينين، محمرة الوجنتين، أجابت وهي على تلك الحال بنعم على سؤال العدلين في الموضوع، فحررا عقد النكاح الشرعي، وبعده قرأنا الفاتحة، وصلينا العصر، وذبح الشيخ كبشا وأعده للطهي، فيما انهمكت الأم والعروسة بمساعدة جارات، مهنئات مزغردات، في إعداد وليمة شهية معتبرة، فمر العرس بفضل الله وتيسيره بحضور بعض الجيران والمقدم، وتنافست خلاله النسوة في إطلاق ألسنتهن بين جنبات فضائهن المخصوص بالزغاريد والأهازيج، مصحوبة بالتصفيق الموقّع والضرب على البنادير والطبول والنقر بالملاعق والكؤوس في الطسوت والصحون، بينما أخريات، حسبما علمت، كنّ يغسلن جسم العروس ويعطرنه ويزيّنه باللباس المواتي والحلي النفيسة.

أما نحن الرجال فقد قضينا بين أداء صلاتي المغرب والعشاء أوقات روحانية في تلاوة ما تيسر من الآيات البينات وإنشاد بعض الأمداح النبوية والأوراد الصوفية، كان لي فيها قصب السبق وأحيانا الصوت الأوحد. وفي لحظة استراحة مال عليّ الفقيه وليُّ نعمتي وهمس سائلا: من أين لك كل هذي الخيرات؟ أجبته في أذنه مبتسما: يسرها لي ربّي أثناء دراستي، وكانت زادي الروحي وذخيرة أنسي وصبري طوال سنوات حبسي... تحرج العدلان والقايد من قصر باعهم في استظهار الآي ونصوص السمع الراقي، فانتفضوا ما إن تعشوا وانصرفوا شاكرين داعين لي ولزوجتي بخير دعاء.

(ب)

نعم يا نعيمة، أنعمكِ الله ونعّمك!

لما جاءت ساعة الدخلة، قصدت وزوجتي غرفة أُعدت لنا، نختال في لباسنا الأبيض الطاهر، تصحبنا النساء بالتكبيرات والهتافات والأدعية، حتى إذا أغلقن الباب دوننا، عدن إلى نشاطهن لإعداد فطور «الصبحية».

هأنذا وجها لوجه مع زينب وقد صارت حرمي. في صحبتها سأعيد تعلّم أبجدية الحياة، وأعلمها عما قريب القراءة والكتابة حتى تأخذ ذات يوم كتابي ـ الشهادة بقوة وتفهم ما فيه.

هذي الليلة الغراء نقطة بداية ولبنة انطلاق لحياة، أدعو الله

أن تخلوَ ما أمكن، في الحاضر والمستقبل، من هجمات العسف والعبث والكدورات...

الدموع المنهمرة على خديْ قرينتي دموع فرح باكتشاف سحر الزواج الحلال، ودموعي أنا هي لهذا الفرح أيضا، لكن يعززه ويشحذه فرح آخر، فرح الإفلات من الردى الرديء والموت المجاني، وهذا بفضل من الله ومنك يا نعيمتي ووليةَ نعماي.

ولعلمك أيضا يا واسطة الخالق في إنقاذي، هأنذا في الحقل بين كتاب أقرأه وأرض أحرثها مع زوجتي وحماتي، أتنشق ملء رئتيّ هواء حريتي المستعادة، وأنتعش به رفقة زينب متنزهين على بغلتنا بين وادٍ وعينِه ومرتفعات بني سناسن ومغارة الجمل. نترجل أحيانا ونتسابق جريا في الغاية والمسالك الواطئة، فوالله لمنافسة الأرنب أسهل عليَّ من مجاراة زينب. وحين تتوقف رأفة بي من أمسيت أسميها غزالي، أقيس جناية أعوام السجن على نفَسي ورئتيّ، وأحمد الله على أني ما زلت حيّا أرزق، ولي متع أجتنيها، منها مثلا بعد الجري مجالسة عقيلتي الطيبة البريئة على العشب الوفير، متفيّئين ظلال أشجار مورقة وارفة وبجوار ماءٍ غدير، فنتجاذب أطراف الحديث، تُقبّل يديّ وأقبّل يديها، نتداعب، نتلامس، نصيخ معا السمع إلى نمو الجنين في بطنها...

كل يوم يمضي ـ وانعماه! ـ يقصّر من نقاهتي، يبدّدُ ربوي كأن

لم يكن، يقلل من توارد الرؤى الكابوسية عليّ ليلا، يدنيني دفعة بعد أخرى من شفاء واعد، إن منّ الله عليّ به وتكرّم.

ها الرجل الصالح، الفقيه المزاتي يملّكني الضيعة كلها بموافقة خطية من ابنه الأوحد، ويترك المكتبة في ملكي رجاةَ أن أفتحها ذات يوم لطالبي أنوار المعرفة، ولو على قلتهم.

وها حماتي ـ التي أشهد أنها من الحموات الطيّبات ـ أسعد بها وتسعد بي. فما مر يوم إلا وتحاكينا نكتا ونوادر نقية مليحة، من ذلك مثلا أني استغربت ذات يوم غياب ثور في حظيرتها، فقالت لأن البقرة هي الأنفع برحمها وما يلد ولبنها ومشتقاته، وهي بالتالي الأحق بالعلف والعناية؛ أما الثور فتستعيره بالمجان في مدة معلومة، يخصب خلالها بقراتها وتعيده توا إلى مالكه... ومن كلامها البديع أيضا أنها استضافت ذات ليلة زوجين فاسيين. وفي الصباح قبيل الفطور وقفا متعجبين من وفرة الدجاج والديكة والفراخ، فسألها الرجل عن سر ذلك، قالت لأن الديك كثير النكاح، فمالت الزوجة على بعلها هامسة: هل سمعت؟ واستوضح الرجل حماتي إن كان الديك يفعل ما يفعل مع دجاجة واحدة لا غير، فاستضحكها وقالت: بل له كل الدجاجات هنا وحتى دجاجات الجيران، فمال الزوج على امرأته هامسا: هل سمعت؟

أما مخطوطتي شهادتي فلم تجد بعد من ينشرها، إلا من طابع سخيف أرعن، اشترط لذلك أن أدفع مقابلا ماديا مُهمّا،

متذرعا بكساد سوق الكتاب، وأن أشطب على كثير من فقراتها وتعابيرها، نظرا لكلامها اللاذع في الساسة والسياسة أو لمسها الخادش بالحياء والأدب العام. لم أر فائدة في تذكيره بالقول المأثور: حاكي الكفر ليس بكافر، ويُقاس عليه حاكي الفُحش والفسقِ. وذهبتْ حماتي المهمومة بالأمر إلى أن عرضت عليه بقرةً مقابل أن يفعل، فقبل هذا الرديء العرض مزيدا بكبشين وفراخ، غير أني رفضت جازما أي حذف أو تشطيب يلحق خميرة معاناتي وسجل عذاباتي، فولى الرجل الدّبر، ممتقعَ الوجه، خاليَ الوفاض.

اليأس ليس جِبلتي ولا مهنتي. وقد يأتي الأمل في شأن مخطوطتي كما في غيره من حيث لا أحتسب، أو من تحركات لا بدّ أجريها في العاصمة الرباط ولدى جمعيات حقوقية مُنصتةٍ وازنة... فهل كنت أنجو من محنتي لولا صبري الأيوبي وتمارضي وتحامقي، كما نصحتِ يا نعيمة؟! وهل كنت أتصور أن أتزوج في هذه البلدة وأرى زينب حاملا مني لولا مدَدُ رجل صالح خيّر وعملي بوصية سيد المرسلين: «إذا أفضيتم إلى نسائكم فالكيسَ الكيس» لطلب الولد؟! وللكلام صلة يا نعيمة، وإن غدا لناظره قريب...

للمؤلف

بالعربية

الإبداعات

* كناش إيش تقول (شعر كاليغرافي)، دار النشر المغربية، الدارالبيضاء، ١٩٧٧.
* ثورة الشتاء والصيف (شعر كاليغرافي)، منشورات البديل، الرباط،، ١٩٨٣.
* كتاب الجرح والحكمة، بيروت، دار الطليعة، بيروت (ط. ٢)، ١٩٨٨.
* مجنون الحكم (جائزة الناقد للرواية)، دار رياض الريس، لندن، ١٩٩٠.
* محن الفتى زين شامة، بيروت، دار الآداب، بيروت،١٩٩٣.
* سماسرة السراب، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدارالبيضاء، ١٩٩٥.
* العلاَّمة، دار الآداب، بيروت ١٩٩٧.
* فتنة الرؤوس والنسوة، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٠.
* زهرة الجاهلية، د ار الآداب، بيروت، ٢٠٠٣.
* أنا المتوغل وقصص فكرية أخرى، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٤.
* جماع الشعر، رياض الريس (تحت الطبع).
* هذا الأندلسي! دار الآداب بيروت، ٢٠٠٧.
* سيناريات: أفلام تلفزية للقناة الثانية المغربية: أمواج البر(٢٠٠٣).
* علال القلدة (٢٠٠٤) علاش ّلا! (٢٠٠٥).

الدراسات

* في نقد الحاجة إلى ماركس، بيروت، دار التنوير، ١٩٨٣.
* معهم حيث هم (حوارات فكرية)، دار الفارابي، (ط٠ ٢)، بيروت، ١٩٨٧.
* التشكلات الإيديولوجية في الإسلام - الاجتهادات والتاريخ، المنتخب العربي، (ط٠ ٢)، بيروت، ١٩٩٠.
* في الغمة المغربية، دار شراع، طنجة ١٩٩٧.
* الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ، دار الطليعة، بيروت،١٩٩٨؛ المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧ (ط٢).
* في معرفة الآخر، دار الحوار، اللاذقية، ٢٠٠٣.
* نقد ثقافة الحجر وبداوة الفكر، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٤.
* العرب والإسلام في مرايا الاستشراق (تحت الطبع).
* في الإسلام الثقافي (تحت الطبع).

بالفرنسية

* Le livre des fièvres et des sagesses, Rabat, Okad, 1992
* Au pays de nos crises, Essai sur le mal marocain, Afrique-Orient, Casablanca, 1977
* Le Calife de l'épouvante, Le serpent à plumes, Paris, 1999
* Ijtihâd, la face voilée de l'Islam, Paris 1987, réedition Rabat, 2006
* Ibn Khaldûn, un philosophe de l'histoire, Paris 1990, réédition Rabat, 2006
* Etre en vie et autres méditations, Eddif-Non lieu, Casablanca-Paris, 2007
* Le roman d'Abdel sous presse

الفهرس

توطئة ٩

١ ـ في قبو الصدمة والترويع ١٧

٢ ـ تصريف وقتي في زنزانتي ٢٥

٣ ـ في حضرة القاضي المحقق ٣٠

٤ ـ جريح على الحافي ٤٥

٥ ـ كيف حررت تقريرا في شأني؟ ٥٢

٦ ـ في قبضة سكرتيرة المحقق ٦٤

٧ ـ جريح آخر على الحافي ٧٠

٨ ـ جلستي بين المحقق وكاتبته ناهد بوسني ٧٦

٩ ـ ماتش المساجين ٨٨

١٠ ـ ليلة تعذيبي الأفظع ٩٤

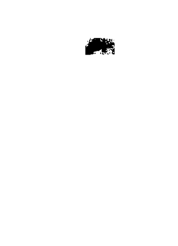
١١ ـ هذي أضراري وبعدها حلقوا شعري ١١١
١٢ ـ مع المحقق وكاتبته الجديدة.................................. ١١٦
١٣ ـ الرسالة النبراس ومشاهدتي لإعدامات ١٣٠
١٤ ـ حصة تعذيب أخرى ١٤١
١٥ ـ من دهليز المعتوهين إلى مرأب «المتمرنين ليوم الحشر» ١٥٢
١٦ ـ بين جدراني: فيروز النصرانية! ١٦٣
١٧ ـ أمام لجنة تسوية البنان ١٧٢
١٨ ـ حال رجلي تسوء والدهليز يمور ١٨٣
١٩ ـ من حظيات المحقق تعييني مفتيا.............................. ١٨٩
٢٠ ـ بين المشفى وإشراكي في عمل دفن جماعي................ ٢٠٢
٢١ ـ في فراش معذبتي، ليلةَ القذارة والهول ٢١٠
٢٢ ـ أنام قهرا وأفيق على آثار حريق ٢٢١
٢٣ ـ من جناح التائبين إلى ملهى ليليّ فاجر....................... ٢٢٧
٢٤ ـ من لقاء أخير مع المحقق إلى عنبر الساهرين............ ٢٤١
٢٥ ـ السّهرة الكبرى ومفاجآتها المفجعة ٢٥٧
٢٦ ـ عودتي إلى أرضي الحبيبة ٢٧٥
تذييل.. ٢٧٩

عن الكاتب

بنسالم حمِّيش مفكر، روائي وسيناريست مغربي. دكتوراه الدولة من جامعة باريس في الفلسفة. له أعمال بالعربية والفرنسية في البحث والإبداع. ترجمت بعض رواياته إلى عدة لغات. عضو في مؤسسات عربية وأجنبية. يمارس مسؤولية حزبية وأخرى سينمائية. فاز بجوائز، أهمها: جائزة الناقد للرواية (لندن، ١٩٩٠)، جائزة الأطلس الكبير ـ الفرنسية (الرباط، ٢٠٠٠)، جائزة نجيب محفوظ (القاهرة، ٢٠٠٢)، جائزة الشارقة لليونسكو (باريس، ٢٠٠٣)، ميدالية تنويه من الجمعية الأكاديمية الفرنسية للفنون والآداب والعلوم (باريس، ٢٠٠٩)، جائزة نجيب محفوظ لاتحاد كتاب (مصر، ٢٠٠٩). يشغل حاليا منصب وزير الثقافة في الحكومة المغربية.



اللوحات للفنان جان دوبوفيه



«عزيزي حمودة،
إذا شق عليك أن تصير خديمَ أعتاب الطغاة وخططهم الجهنمية، جاسوسًا مخترقًا، عميلًا مزدوجًا، قاتلًا أجيرًا، فعليك بمراودة حلّ قد ينجيك لو أتقنته: أن تتحامق وتتمارض... دوِّخ مستنطقيك بأعتى كلام الحمقى والمجانين، هدد معذبيك بسعالك وعدوى مرضك، لعل وعسى أن ييأسوا منك، فيعيدوك إلى موطنك أو قريبًا منه مخدرًا بأفيون، تصحو منه وأنت مراقب بدمليج إلكتروني ومستهدف برصاصة في الرأس، تصيبك ولا تخطئ، إذا ما رويتَ قصتك من حولك أو رفعت في شأنها شكاية ضد مجهول...».


دار الشروق
www.shorouk.com
6 221102 026079